حرب الجواسيس

روايات مصرية للجيب

سلسلة الأعداد الخاصة

4

د. نبيل فاروق

قاهر الجواسيس



على الرغم من الانتصـارات الضخمـة ، التى حققتهـا جيوش (ألمانيـا) النازيـة ، فـى بدايـات الحـرب العالميـة الثانيـة (1939-1945م) ، وهى تجتاح دول الجوار ، بلا رحمـة أو هوادة ، وتسحق جيوش (أوروبا) سحقًا ، على نحو درامى مثير ، ظل رجـال مخابراتها يشعرون بـالتوتر الشديد ، فـى صراعهـم مـع جهاز المخابرات البريطانى ، المعروف بالمكتب السادس ..

فمنذ حمى وطيس المعركة ، وأبرز الرايخ الثالث أنيابه ومخالبه ، نشطت المخابرات البريطانية ، على نحو غير مسبوق ، لـزرع جواسيسها وعيونها ، فى المجتمع النازى ، ومطـاردة واصطيـاد كل جواسيس النازية ، فى قلب (بريطانيا) ..

ومع نجاحات القوات العسكرية النازية ، فى شق طريقها عبر (أوروبا) ، ذاق جهاز مخابرات (هتلر) الهزيمة تلو الأخـرى ، على يد رجـال المكتب السـادس البريطـانى ، وتسـاقط جواسيس النازى ، فى قبضة رجال المكتب الخامس ، المسئول عن مكافحة الجاسوسية ، فى قلب (بريطانيا) ..

ولما كانت الخسائر متواليـة وسريعة .. وعنيفـة أيضًـا ، كـان

من الضرورى أن تتخذ المخابرات النازية إجراءً حاسمًا ، لإيقاف انهيار شبكات جاسوسيتها ، ولمنع نزيف المعلومات الرهيب مـن داخلها ..

لذا ، فقد اجتمـع مسئولو المخابرات النازيـة ، وعلـى رأسـهم الجنرال (هملر) شخصيًا ؛ لمناقشة الأمر ، والبحث عن الحلـول المناسبة ..

وبكل التوتر والصرامة ، قال (هملر) :

- لن يمكننا احتمال هذه الضربات طويلاً ؛ فسقوط (بريطانيا) فى قبضتنا ، يحتاج إلى حصولنـا على كل المعلومـات اللازمـة ، عن قياداتها العسكرية والسياسية ، ومع ما يحدث ، سيصبح ذلك أمرًا عسيرًا للغاية .

وهنا ، انبرى الماجور (شرودر) ، أحد أقوى ضباط جهاز المخابرات النازى ، يقول فى حزم :

- اسمح لى يا جنرال .. كل ما حققه المكتب السادس البريطانى ، كان بفضل براعة وخبرة ومهارة نائب مديره (جون كارنبتر) .. ذلـك الرجل وحده ، أسقط دستـة مـن جواسيسنا ، خلال الأشـهر الثلاثة الماضية وحدها .

انعقد حاجبا (هملر) فى غضب هادر ، وهو يقول :

ـ إنه مجرَّد رجل واحد يا ماجور (شرودر) ، ومـن العار أن ننسب هزائمنا كلها لرجل واحد .

وعلى الرغم من أن باقى الرجال قد انكمشوا فى مقاعدهم ، مع غضبـة (هملر) ، إلا أن المـاجور (شرودر) ظل هادئًا متماسـكًا ، وكأنما لا تعنيه هذه الغضبة ، من قريب أو بعيد ، وهو يقول :

ـ ومن الخطأ أيضًا أن نتجاهل هذه الحقيقة يا جنرال ؛ فـالفوز فى أية معركة ، لا يأتى من تجاهل الحقائق ، بل من مواجهتهـا ، بمنتهى الوضوح والحزم .

ثم نهض من مقعده ، أمام العيون الذاهلة ، وهو يواصل :

ـ (جون كارنبتر) رجل مخابرات قديم محنك ، ولديه خبرة طويلة فى كشف الجواسيس واصطيادهم ، وهو ينتقى رجالـه دومًا بمنتهى الدقة والعناية ، ويمنحهم الكثير من معارفـه وخبراتـه ، كما يقودهم فى برامج تدريب عمليـة ، فى كل مـرة يلقون فيهـا القبض على أحد جواسيسنا ، وكل هذا يعنى أن (جـون كارنبتر) ليس مجـرَّد رجل واحد ، وإنمـا هو بذرة لطاقم ضـخم من مكافحى الجاسوسية ، ولو أننا تركناه الآن ، فسيكون علينا ، بعد عام واحد ، أن نواجـه مائة (جون كارنبتر) .. وربما أكثر .

انتهى من كلماته ، فران على قاعة الاجتماعات صمت مطبق رهيب ، وتـراجع (هملر) فى مقعده ، وهو يتطلَّـع إليـه طويـلاً ، قبل أن يتساءل فى اهتمام :

ـ وماذا تقترح يا ماجور (شرودر) ؟!

توقف (شرودر) ، وعقد كفيه خلف ظهره فى حزم ، وهو يقول :

ـ عملية اغتيال يا جنرال .

اعتدل (هملر) ، وهو يردِّد فى حماس :

ـ اغتيال ؟!

أجابه (شرودر) فى حزم أكبر :

ـ نعم يـا جنرال .. اغتيـال (جـون كـارنبتر) ، علـى يد قـاتل محترف من أفضل رجالنا ، بحيث نوقف خطره ، وننهـى خبراتـه ونجاحاته ، ونبلغ رسالة إلى البريطانيين ، فى الوقت ذاته ، بأننـا لن نسمح لهم بالتفوق أبدًا ... فى أى مجال .

مـرة أخـرى ، ران علـى القاعـة صمت مهيب طويل ، قطعـه (هملر) ، وهو ينهض ، ويقول بمنتهى الحزم والصرامة :

ـ ابدأ التنفيذ فورًا ، يا ماجور (شرودر) .

ووفقًا لنظم المخـابرات ، كـانت العبارة تعنـى إسـناد المهمـة للماجور (شرودر) ..

مهمة الاغتيال ..

* * *

لأن (جون كارنيتر) رجل مخابرات قديم ومحترف ، فقد كان يدرك جيدًا أن أسوأ ما يفعله رجل مثله ، فى ظروف الحرب ، هو أن يتخذ نمطًا معيشيًا ثابتًا ، بأى حال من الأحوال ..

فالنمط الثابت أمر يسهل رصده ، وتسجيله ، وتعقبه ، وبناء خطط دقيقة ومضمونة لمواجهته ، والتعامل معه ..

لذا ، كان (كارنيتر) يتبع دومًا نظامًا متغيرًا ، فلا مواعيد ثابتة ليقظته ، أو صحوه ، أو خروجه أو عودته ..

إنه يعمل فى أية لحظة ، من الليل أو النهار ، ويتخذ مسارات مختلفة فى كل مرة ، ويستقل وسائل مواصلات متغيرة دومًا ..

باختصار ، كان وضع خطة واضحة لاصطياده ، أمر غاية فى الصعوبة .. بل هو أمر مستحيل عمليًا ..

وهذا أول ما رصده ، وأدركه الماجور (شرودر) ، وما قضى ليالى طوالاً ، فى دراسته وبحثه ..

كان يؤمن تمامًا بأن هناك حتمًا نقطة ما ، أو لمحة ما ، تتضمن نوعًا من الثبات أو النمطية ، فى حياة (جون كارنيتر) ..

فكل بشرىٍ ، مهما بلغت براعته ، أو بلغ إصراره وحرصه على التنوع ، يحتفظ دومًا بنمط ما ، يرتبط بشخصيته الرئيسة ، ويصعب التخلص منه أو تفاديه ، بأى حال من الأحوال ..

وكان عليه أن يعثر على ذلك النمط ..

وبأى ثمن ..

ومن أجل هذا الهدف ، ظل (شرودر) يبحث .. ويبحث .. ويبحث ..

وطوال الوقت ، كان الجنرال (هملر) يستحثه على الإسراع ، ويثير توتره وقلقه ، وهو يطالبه بالنتائج ، التى يريد تقديمها إلى الفوهلر ؛ لنيل رضاه وثقته ، و ...

وفجأة ، وعلى الرغم من أن الظروف كلها كفيلة بإفساد الموقف ، قفز ذلك النمط الثابت إلى ذهن الماجور (شرودر) ، الذى أسرع يستدعى ذلك القاتل المحترف ، السويسرى الجنسية إلى مكتبه ، ويغلق بابه عليهما ، وهو يقول فى حماس :

- ما الشىء الوحيد الذى يحرص عليه (جون كارنيتر) ، ولا يتنازل عنه أبدًا ؟

حدَّق القاتل السويسرى فى وجهه بدهشة ، قبل أن يجيب فى حذر حائر :

- لست أدرى هذا فى الواقع يا ماجور ، فكل مهمتى تقتصر على ..

ولم يمهله (شرودر) ليتم عبارته ، وإنما قاطعه ، قائلاً :

- تواجده أثناء الإيقاع بالجواسيس .

مرة أخرى ، حدَّق فيه القاتل السويسرى ، فتابع فى حماس ، وكأنما يتحدث إلى نفسه فقط :

ـ ففى كل عملية إلقاء قبض ، على أحد جواسيسنا ، كان (كارنبتر) حاضرًا ، مما يعنى أنه لا يميل إلى تفويت هذه الفرصة أبدًا .

ثم لوَّح بسبَّابته ، مضيفًا فى جذل :

ـ وهنا تكمن نقطة ضعفه .

ولأن السويسرى قاتل محترف ، وخبير فى مضماره ، فقد استوعب الموقف على الفور .. وابتسم ..

ابتسم ابتسامة قاتل .... محترف ..

* * *

« كشفنا أمر جاسوس نازى جديد .. »

نطق أحد أفراد فريق (جون كارنبتر) بالعبارة ، فى أول لحظات الاجتماع اليومى ، مما جذب انتباه الجميع ، وعلى رأسهم (كارنبتر) نفسه ، الذى تساءل فى اهتمام :

ـ من هو ؟!

دفع الشاب أمامه ملفًا صغيرًا ، وهو يجيب :

ـ (إدوارد . ب. جيمس) .. سكرتير عسكرى ، فى وزارة الدفاع .

ارتفع حاجبا (كارنبتر) ، وهو يقول :

ـ سكرتير فى وزارة الدفاع ؟!.. لقد تطوَّرت المخابرات النازية كثيرًا .. كيف أمكنهم تجنيد رجل فى موقع كهذا؟!

أجابه الشاب فى سرعة :

ـ لم نتوصَّل إلى الوسيلة بعد ، ولكننا رصدنا الاتصالات اللاسلكية ، التى يتم بثها من منزله .. إنه يستخدم موجة سبق لنا كشفها ، منذ عدة أشهر .

انعقد حاجبا (كارنبتر) ، وهو يتراجع فى مقعده ببطء ، وداعب نقنه بسبَّابته وإبهامه ، شأنه كلما واجه لغزًا ما ، وتساءل فى اهتمام :

ـ وهل يعلم النازيون أننا قد كشفنا تلك الموجة ؟!

هزَّ الشاب رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ لسنا نظن هذا .

اعتدل (كارنبتر) بحركة حادة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لا تظنون ، أم أنكم واثقون ؟!

بدت الحيرة على وجه الشاب ، وهو يجيب :

ـ لا أحد يمكنه الجزم ، فى مثل هذه الأحوال يا سيّدى .

ازداد انعقاد حاجبى (كارنبتر) ، واستغرق فى التفكير بضع لحظات ، لاذ أفراد فريقه خلالها بالصمت التام ؛ ليفسحوا له مجال التفكير ، حتى اعتدل فجأة ، وقال بمنتهى الحزم :

ـ السؤال الآن هو : هل ننهى هذه العملية فورًا ، أم نحاول استغلالها ، إلى أقصى درجة ممكنة ؟!

راحوا يناقشون الأمر لما يقرب من ساعة كاملة ، قبل أن يستقر قرارهم على حتمية إنهاء العملية ؛ نظرًا لأن الموقع الذى يحتله الرجل شديد الحساسية ، وسيكون من العسير إحكام السيطرة التامة عليه ، ومنع تسريب المعلومات العسكرية من خلاله ..

وفى نهاية الاجتماع ، حدد الفريق موعد وأسلوب إنهاء العملية ، وتقرَّر اقتحام منزل (إدوارد جيمس) ، فى الخامسة والنصف ، من فجر اليوم التالى مباشرة ..

وفى الموعد المحدَّد بالضبط ، جرت الترتيبات فى هدوء ودقة مدهشين ، فتحركت فرقة من القوات الخاصة ، لتحاصر منزل (إدوارد) تمامًا ، وتغلق كل الشوارع المحيطة به ، وهبطت مجموعة أخرى على سقف المنزل ، المكوَّن من ثلاثة طوابق فحسب ، فى حين تسلَّلت مجموعة المخابرات إلى المدخل ،

وصعد أفرادها على أطراف أصابعهم ، إلى الطابق الثالث ، الذى يقيم فيه (إدوارد) ، وبدأ الكل العد التنازلى ، حتى أشارت عقارب الساعة إلى الخامسة والنصف تمامًا ..

ثم حدث الاقتحام ..

مجموعة المخابرات حطمت الباب ، واندفعت داخل المنزل ، فهبَّ (إدوارد) وزوجته من فراشهما فزعين ، ليجدا فوهات أسلحة الرجال فى وجهيهما مباشرة .. وبكل رعب الدنيا ، هتف (إدوارد) :

ـ ما ... ماذا يحدث ؟!.. من أنتم ؟!

أجابه أحد أفراد الفريق فى صرامة ، وهو يلوح بمسدسه فى وجهه :

ـ (إدوارد. ب. جيمس) .. إننا نلقى القبض عليك ؛ بتهمة التجسُّس ، لحساب جهاز المخابرات النازى .

اتسعت عينا (إدوارد) عن آخرهما ، فى ذهول حقيقى ، فى حين أطلقت زوجته شهقة قوية ، هاتفة :

ـ تجسُّس ؟!

أما هو ، فهتف فى ارتياع :

ـ ولكن هذا غير صحيح .. أنا مواطن صالح .. لا يمكننى أن أخون (بريطانيا) أبدًا .

فى نفس اللحظة ، التى انتهى فيها هتافه ، برز أحد رجال المخابرات البريطانية ، وهو يقول فى توتر :

ـ لم نعثر على أية أجهزة اتصال لاسلكية .

انتقل توتره إلى ذلك الذى يصوب مسدسه إلى (إدوارد) ، وهو يقول فى عصبية شديدة :

ـ ولكن كيف ؟؟

قبل أن يتم عبارته ، كان ذلك القاتل السويسرى ، المستقر على سطح المبنى المواجه عبر الشارع ، يضغط جهاز التفجير البدائى ، الذى يمتد منه سلك رفيع ، أخفاه بمهارة حول أسلاك الهاتف ، المتصل بمنزل (إدوارد) ..

ومع ضغطته ، دوى الانفجار ..

انفجار رهيب عنيف ، أطاح بشقة (إدوارد) ، بكل ما فيها ، ومن فيها ، وهزّ المبنى كله فى قوة ، حتى إن رجال القوات الخاصة على سطحه ، قد فقدوا توازنهم ، وسقطوا جميعهم أرضًا ..

وعندما نهضوا ، كان الموقف مأساويًا بحق ..

فالنيران كانت تندفع من كل نوافذ شقة (إدوارد) ، مع سحب كثيفة من الدخان ، والشظايا تملأ الشارع ، والمنطقة المحيطة كلها ، مع أشلاء محترقة ، متناثرة على مساحة واسعة ..

وفى خفة فهد جبلى ، غادر القاتل السويسرى المحترف موقعه ، وهو يتمتم فى سخرية ظافرة :

ـ أعتقد أن هذا يعنى أن المهمة قد تمت بنجاح .

وكان هذا بالضبط ما سجلته أوراق جهاز المخابرات النازى ..

أن عملية اغتيال (جون كارنبتر) قد تمت بنجاح ، حتى إن الفوهلر شخصيًا قابل القاتل السويسرى ، ومنحه مكافأة ضخمة ، مع وسام خاص ، يعتبر ثانى أرفع وسام عسكرى ، فى (ألمانيا) النازية ..

وتنفس الماجور (شرودر) الصعداء ، وتصوَّر أنه قد حقق أعظم انتصار ، فى حياته العملية كلها ..

إلا أن نشاط المكتب الخامس البريطانى ، لمكافحة الجاسوسية ، لم يتوقف قط .. لقط تواصل على نحو مدهش ، وراح يوقع بجواسيس النازية ، بنفس أسلوب ومهارة (جون كارنبتر) ..

وبدأ الرايخ الثالث مرحلة التراجع والانحسار ، وراح ينسحب من (أوروبا) ، وصار كل همه هو الحفاظ على (ألمانيا) ، التى لم تلبث أن سقطت فى يد الحلفاء ، الذين أسرعوا بتقسيمها ، والاستيلاء على كل خيراتها وأوراقها ، ووثائقها ..

ومن بين الوثائق السرية ، كانت خطة (شرودر) ، لاغتيال (كارنبتر) ..

ولقد قرأها البريطانيون ، وهم يبتسمون فى سخرية ..

فالواقع أنه ، وعلى الرغم من الخسائر الفادحة ، التى نجمت عن انفجار شقة (إدوارد) ، لم يمس (جون كارنبتر) بخدش واحد ..

هذا لأنه ، وبكل بساطة ، لم يرافق فريقه ، فى مهمة إلقاء القبض على (إدوارد) .. وكانت المرة الأولى ، التى يتنازل فيها عن هذا ..

وفى الوثائق البريطانية ، التى نشرت بعد نصف قرن من الواقعة ، لم نجد إشارة واحدة إلى سبب عدم ذهابه ، فى تلك المرة بالتحديد ، فربما يكون السبب هو فراسته الشديدة ، أو هى حاسة خاصة ، تتكون لدى رجال المخابرات ، مع تقدمهم فى العمر والخبرة ..

المهم أن (كارنبتر) ظل حيًا ، حتى مات فى فراشه ، فى نوفمبر 1961م ، ليعلن أنه قد نجا من تلك المحاولة الغادرة ، وظل يعمل فى الخفاء لسنوات ، حتى لا يتعرض لمحاولة جديدة .

محاولة اغتيال ..

نازية ..

* * *

الأسـيـر ..

على الرغم من البداية المبهرة ، والانتصارات المدهشة ، للجيوش النازية الألمانية فى أوائل الحرب العالمية الثانية (1939 ـ 1945م) ، ومن اجتياحها التام لنصف (أوروبا) ، خلال عام واحد ، إلا أن تطوّر الأمور أدّى إلى مجموعة من الأخطاء النازية ؛ بسبب ديكتاتورية (هتلر) المطلقة ، وسيطرته التامة على كل المقاليد فى (ألمانيا) ، على الصعيدين السياسى والعسكرى ، على الرغم من انعدام ، أو ضعف خبراته العسكرية ، مما أدّى بالتالى إلى عدة خسائر ، فى أكثر من جبهة ، ففى (أفريقيا) ، انهزم (روميل) ، ثعلب الصحراء الشهير ، بعد أن تقدَّم بقواته عبر الصحراء الليبية ، وعبر الحدود المصرية ، وبلغ بها منطقة العلمين ، مكتسحًا أمامه القوات البريطانية ، التى لم تلبث أن أعادت تنظيم صفوفها ، وعلاج نقاط ضعفها ، على يد (مونتجمرى) ، الذى حاصر قوات (روميل) ، وأجبرها على التراجع ، وكبدها خسائر جسيمة ، فى الأرواح والمعدات ..

وفى (موسكو) ، وفى الوقت الذى أيقن فيه السوفيت من الهزيمة ، وأخلوا عاصمتهم بالفعل ، أصدر (أدولف هتلر) قرارًا مفاجئًا ، بإيقاف الزحف على (موسكو) ، وانتقال التركيز كله إلى الجبهة البريطانية ..

وعلى الرغم من توسلات قادته ، ومحاولاتهم المستميتة ، لإقناع الفوهلر بدخول (موسكو) ، التى لم تكن تبعد سوى ثلاثين كيلو مترًا فحسب ، والتمركز فيها ، بدلاً من البقاء فى العراء ، مع مدخل الشتاء ، أصرّ (هتلر) على قراره ، واعتبر أن كل من يعارضه خائن أثيم ، يستحق حكم الإعدام فورًا ..

لذا فقد اضطر القادة إلى التمركز خارج (موسكو) ..

وجاء الشتاء .. أعنف وأقسى شتاء ، شهده الاتحاد السوفيتى ، منذ أكثر من قرنين من الزمان ، حيث انخفضت درجات الحرارة إلى الخمسين تحت الصفر ، وحاصرت الثلوج القوات النازية ، التى لم تعتد قط مثل هذه البرودة القاسية ، وانهارت المعنويات ، مع تجمد الأطراف ، وسقوط الضحايا اليومى ، بالإضافة إلى قوات الكوماندوز السوفيتية ، المعروفة باسم القوات البيضاء ، أو الجيش الأبيض ، والتى يتسلّل أفرادها ، بأزيائهم البيضاء تمامًا ، وسط الجليد فى الغابات ، لاصطياد الجنود والضباط النازيين يوميًا ..

وتحطّم الجيش النازى ، على بعد ثلاثين كيلومترًا من (موسكو) ، واضطر إلى التراجع ، لتطارده القوات السوفيتية ، فى عنف وشراسة ، صنعهما انقلاب الأوضاع ، وبدأت أعنف ملحمة قاتلة ، بالنسبة للرايخ الثالث ..

وهكذا لم يعد هناك أمل ، للجيوش النازية ، سوى فى سيطرتها على قلب (أوروبا) ، وشواطئها ، وسواحلها ..

وبوساطة المخابرات الألمانية (إس دى) ، أدرك النازيون أن البريطانيين والأمريكيين يخططون لعملية إنزال بحرية ، تستهدف تحرير (فرنسا) ، والانطلاق منها إلى (أوروبا) ، لمحاصرة الجيوش النازية ، بينها وبين السوفيت ، الذين يزحفون من الشرق ..

ولأن حماية الساحل الفرنسى بأكمله كان أمرًا مستحيلاً ، من الناحية العملية الفعلية ، بدأ الألمان يدرسون الموقف كله ، لتحديد الأماكن المحتملة ، لذلك الغزو الأنجلو أمريكى المنتظر ..

وبعد دراسة مستفيضة ، تمت الاستعانة فيها بأفضل الخبراء ، توقع الألمان أن يتم الغزو فى إحدى منطقتين ، إما (نورماندى) ، أو (كاليه) ..

وكان من المستحيل حسم الأمر ، بين المنطقتين ، دون معلومة مؤكّدة حاسمة ، لا تقبل الشك ..

وهنا ، راح الألمان يدرسون كيفية الحصول على تلك المعلومة ، بأى ثمن ..

ولأن أعمال المخابرات سجال ، فقد أدرك البريطانيون أيضًا ،

من خلال أحد أهم عملائهم فى (برلين) ، بحيرة الألمان ، وبحتمية معرفتهم لموضع الهبوط ، حتى يمكن تركيز كل الدفاعات القوية عنده ، ومنع نجاح الغزو ..

وأدرك البريطانيون ، والأمريكيون أيضًا ، أن نجاح عملية الغزو المنتظر ، بل والانتصار فى الحرب كلها ، أصبح يعتمد على حسم هذه النقطة بالغة الخطورة والأهمية ..

أهى (نورماندى) ، أم (كاليه) ؟!..

ولأن الغزو قد تقرَّر له ، فى سرية بالغة مطلقة ، أن يتم فى منطقة (نورماندى) ، كان من الضرورى القيام بعملية دقيقة للغاية ، لإقناع الألمان بأن الغزو سيتم فى (كاليه) ..

وأيضًا بأى ثمن ..

وفى واحدة من المرات القليلة النادرة ، اجتمعت المخابرات البريطانية مع مجموعة من العسكريين الأمريكيين ، حيث لم تكن المخابرات الأمريكية قد تكوَّنت بعد ، وبدأ البحث عن الوسيلة ..

أية وسيلة ..

فى ذلك الوقت ، كان البريطانيون قد أعدُّوا بالفعل عملية مدهشة ، تعتبر واحدة من أكثر العمليات عبقرية ، فى تاريخ المخابرات كله ،

وهى عبارة عن إرسال جثة لشخص ما ، بحيث تطفو عند سواحل (إسبانيا) ، مع حقيبة تحوى بعض الوثائق الرسمية الزائفة ، التى توحى بأن الغزو سيتم فى (كاليه) ، وليس فى (نورماندى) ..

ولكن عمل المخابرات لا يمكن أن يعتمد على اتجاه واحد ، خشية أن يحاط بالشك ، مهما بلغت براعته ، فتفشل اللعبة كلها ..

لذا كان من المحتم أن تكون هناك عملية ثانية ؛ لتدعيم وتأكيد عملية الجاسوس الميت ، ودفع النازيين إلى التيقن من أن الغزو سيتم من (كاليه) ..

ولقد اقترح العسكريون الأمريكيون عدة اقتراحات ، تصوَّروا أنها عبقرية ، إلا أن رجال المخابرات البريطانية المحنكين كانوا يعترضون ، فى كل مرة ، ويناقشون الاقتراح ، الذى يثبت خطأ الفكرة من أساسها ، حتى أصيب العسكريون الأمريكيون بالغضب والإحباط ، فهتف أحدهم فى حدة :

ـ إنكم ترفضون كل فكرة نقترحها ، وتتعاملون معنا كما لو كنا مجرد أسرى ، لا جنرالات من جيش حليف .

اعتدل أحد رجال المخابرات البريطانية ، عند هذه النقطة ، وهتف فى اهتمام بالغ :

ـ ماذا قلت يا جنرال ؟!

انعقد حاجبا الجنرال الأمريكى فى غضب ، دون أن يجيب ، وقد تصوَّر أن البريطانى يوجِّه إليه اللوم ، فانبرى آخر يقول ، محاولاً تهدئة الأمور ، وتلطيف الموقف :

- الواقع أن الجنرال كان يقصد ..

اندفع رجل المخابرات البريطانى ، يقول :

- لا يعنينى ما كان يقصده .

تفجَّرت دهشة مستنكرة ، فى وجوه الجنرالات الأمريكيين ، وبدا وكأن الموقف سيتطوَّر إلى نوع من عنف الحوار ، لولا أن استدرك رجل المخابرات البريطانى فى لهفة :

- كل ما يعنينى هو الإشارة إلى الأسرى ، فالواقع أن هذا ما نحتاج إليه تمامًا أيها السادة .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، ليضيف فى حماس :

- أسير .

ملأت الدهشة وجوههم هذه المرة ، وانتقلت إلى وجوه رجال المخابرات البريطانية أنفسهم ، ولكن الرجل بدأ يشرح فكرته ، فأرهف الجميع أسماعهم لمتابعته ، وبدأ الحماس يجرفهم أيضًا ، حتى إنه لم يكد ينتهى ، حتى كان الأمر قد تغيَّر تمامًا ..

فلقد وافق الجميع على اقتراحه ... ولا استثناء ..

وبعد ثلاثة أيام بالضبط ، قامت القوات الجوية ، الأنجلو أمريكية المشتركة ، بشن غارة عنيفة على (برلين) ..

وفى رد فعل طبيعى ، راحت المدفعية النازية المضادة للطيران ، ترد الهجوم ، وتدافع عن سماء (برلين) ، عاصمة الرايخ الثالث ، ومقر الفوهلر العظيم (أدولف هتلر) ، فى استماتة ما لها مثيل ..

وكأمر طبيعى أيضًا ، أصابت تلك المدفعية بعض الطائرات ، وأسقطتها ، أو نسفتها فى السماء ..

وبين تلك الطائرات ، كانت هناك طائرة بريطانية سليمة ..

طائرة لم تصب بدانات المدافع المضادة ، ولكن قائدها جذب ذراعًا إضافية داخلها ، فانبعث دخان أسود من مؤخرتها ، ثم تخلَّى عن عجلة قيادتها ، وتركها تهوى وسط (برلين) ، وهو يجذب ذراع قذف المقعد ، ليثب معه خارج الطائرة ، ويبدأ فى الهبوط بمظلة الطوارئ ..

ولأن العديدين قد رصدوا ما حدث ، وتصوَّروا أن طائرته قد أصيبت وسقطت فقد اندفع رجال الشرطة و(الجستابو) ، يحاصرون المنطقة ، التى سقط فيها ذلك الطيَّار البريطانى ، ويضيقون الخناق عليه ، وهو يستميت فى محاولة الفرار منهم ، حتى أطبقوا عليه تمامًا ، وسقط فى قبضتهم ، بعد مقاومة عنيفة ، وقتال ضارٍ ..

وكما يحدث دومًا ، تم نقل ذلك الأسير إلى مقر (الجستابو) ، الذى يطلق عليه اسم (بيت الثعالب) ؛ لاستجوابه بمنتهى الدقة والقسوة ، وانتزاع كل المعلومات الممكنة منه ، قبل نقله إلى معسكرات الاعتقال المعتادة ، خارج (برلين) ..

وفى مقر (الجستابو) ، تم تجريد الطيار البريطانى من كل ما يحمله ، وإرساله إلى قسم مكافحة الجاسوسية ، وتمحيصه ، ومعرفة إذا ما كان يخفى شيئًا ما فى أعماقه أم لا ..

أما الطيار نفسه ، فقد بدأ استجوابه بمنتهى العنف ، ومنتهى القسوة ، ومنتهى الشراسة ..

ولقد احتمل الطيار البريطانى ذلك التعذيب ببسالة حقيقية ، وأصرَّ لفترة طويلة على ألا يدلى بأكثر من اسمه ، ورتبته ، وفرقته العسكرية ..

ولكن النازيين لا يرحمون ... وبالذات رجال (الجستابو) ..

لذا فقد تطوَّر التعذيب أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

وانهار الطيَّار البريطانى أخيرًا ..

انهار ، وراح يدلى باعتراف ، بدا صادقًا ، منطقيًا ، معقولاً ، حتى إن أحدهم لم يتصوَّر لحظة واحدة أن كل ما يسمعه مجرد

قصة مدروسة ملفقة ، صاغها رجال المخابرات البريطانية بمنتهى الدقة والبراعة ..

والعبقرية هنا تكمن فى أن القصة ، التى رواها الطيار البريطانى لم تشر قط إلى (كاليه) صراحة ..

لقد ذكر فيها الطيار شيئًا عن التدريبات ، التى تتلقاها فرقته ، حول الانطلاق من على متن حاملات طائرات ، لحماية عملية إنزال بحرية ، وراح يدلى ببعض التفاصيل ، التى ستقود الخبراء الألمان حتمًا ، إلى أن كل التدريبات تتم لغزو (كاليه) ..

وفى الوقت ذاته ، عثر رجال مكافحة التجسُّس على خريطة دقيقة ، مخفاة بمهارة فائقة ، فى بطانة سترة الطيار ، على نحو يوحى بأن واضعها لم يشأ أن ينكشف أمرها أبدًا ..

ولم تكن تلك الخريطة تحوى أية بيانات ، أو حتى إشارات اتجاهات ، وإنما حوت بعض الخطوط بقلم أحمر ، على نحو يوحى بأنها مسارات طيران ، تبدأ من حاملات طائرات وهمية ، وتمر فوق (كاليه) ..

وعندئذ ، لم يعد هناك مجال للشك ..

وعاد رجال (الجستابو) يضغطون على الطيَّار البريطانى أكثر وأكثر ، حتى اعترف فى النهاية بأنه وفرقته تدرَّبوا على حماية عملية إنزال مرتقبة ، عند شاطئ (كاليه) الفرنسى ..

وقبل أن تمضى نصف الساعة ، كان (هملر) ، قائد (الجستابو) ، ينقل هذا الخبر إلى الفوهلر شخصيًا ، وهو يهتف بكل الحماس :

ـ إنها (كاليه) .

هبَّ الفوهلر من مقعده ، على نحو يتعارض مع رصانته المعتادة ، وصرامته المعهودة ، وهو يهتف :

ـ أأنت واثق ؟!

هتف (هملر) :

ـ كل الثقة أيها الزعيم ..

ولساعة كاملة ، راح يروى للفوهلر العظيم قصة ذلك الجاسوس الميت ، وما كان يحمله من وثائق ، عند الساحل الإسبانى ، وما أيَّده من أقوال ذلك الطيَّار الأسير ، الذى لم يُدْلِ بما لديه ، إلا بعد تعذيب رهيب ، لا يمكن أن يحتمله بشر ..

وهزَّ (أدولف هتلر) رأسه ، كعادته كلما اقتنع بشىء ما ، ثم تنهَّد فى عمق وهو يتراجع فى مقعده ، مغمغمًا :

ـ عظيم .. عظيم .

وعلى الفور ، ودون أن يضيع ثانية واحدة كعادته ، أصدر قراره بتركيز كل الدفاعات الأساسية فى (كاليه) ، على أن يحاط هذا الأمر بمنتهى الحذر ، ومنتهى السرية ..

كانت هذه أوامر (هتلر) ، التى تم تنفيذها بمنتهى الحذر والدقة ، ولكن أمرًا كهذا لا يمكن إخفاؤه أبدًا ، مهما اتخذت أسباب الحيطة ..

لقد التقط جواسيس (بريطانيا) وعيونها ما يحدث ، وأدركته المقاومة الفرنسية الباسلة ، ونقلته بأساليبها المبتكرة المدهشة إلى قوات الحلفاء ، التى اطمأنت إلى أن (نورماندى) قد صارت بعيدة تمامًا عن فكر وذهن النازيين ..

وأن موعد الهجوم قد حان ..

وفى السادس من يونيو ، عام 1944م ، وبقيادة الجنرال (أيزنهاور) ، انقض الحلفاء على (نورماندى) ..

ولم تكن (نورماندى) خالية تمامًا من الدفاعات ، إلا أن ما بها لم يكن يكفى لصد غزو ساحق كهذا ..

لذا فقد سقطت الدفاعات الألمانية ، وانسحقت انسحاقًا ، فى غرب (فرنسا) ، فى نفس الوقت الذى أُنزلت فيه قوات ضخمة فى جنوبها ، لتدك الدفاعات النازية هناك دكًّا ..

وهبط الحلفاء فى (فرنسا) ، وأدرك الألمان أنها بداية النهاية ، فبدءوا فى التراجع والفرار ، على الرغم من مقاومتهم الشرسة العنيفة ..

وبدأت قوات الحلفاء تزحف ، من الغرب والجنوب ، فى نفس الوقت الذى راحت فيه القوات السوفيتية تكتسح من الشرق ، بعد انتصارها الساحق فى (بولندا) ، و(هنغاريا) و(البلقان) ..

وفى نهاية عام 1944م ، تحرّرت (فرنسا) و(بلجيكا) من الاحتلال النازى ، واتجه القتال إلى (هولندا) وقلب (ألمانيا) التى أبيدت مراكزها الصناعية والعسكرية تمامًا ، لتنهار فى إبريل 1945م ، وتعلن استسلامها دون قيد أو شرط ، فى السابع من مايو ، عام 1945م ..

ومع سقوط (ألمانيا) النازية وانهيارها ، تم إطلاق سراح جميع الأسرى ، من الأمريكيين والبريطانيين والسوفيت ، واستقبلهم رفاق السلاح بالفرح والسعادة ومظاهر الانتصار ..

أما ذلك الطيّار البريطانى ، فقد استقبله أحد رجال المخابرات البريطانية بابتسامة كبيرة ، وصافحه فى حرارة ، قائلاً :

ـ مرحبًا بعودتك يا بطل ... فلتعلم أنك واحد من الفرسان ، الذين اعتمد عليهم انتصارنا هذا .

ابتسم الطيّار ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ لقد أديت واجبى فحسب يا سيدى .

هتف رجل المخابرات البريطانى ، وهو يربّت على كتفه فى حرارة :

ـ بل أكثر من واجبك أيها الفارس .

ولم يكن رجل المخابرات البريطانى يستخدم اللقب عفويًا ، فقد أنعمت الملكة على ذلك الطيار بلقب (فارس) بالفعل ، ومنحته وسام الشجاعة ، إلا أن ما تعرّض له ، على يد (الجستابو) ، لم يمنحه فرصة العودة مرة أخرى إلى صفوف القوات الجوية الملكية ، وإنما صار وسامًا آخر على صدره ، وهو يروى مذكراته ، التى منحها عنوانًا مختصرًا معبرًا ..

عنوان (الأسير) .

* * *

الجاسوس الخفى ..

اشتعلت الأمور كلها ، على نحو لم يعهده العالم من قبل ، فى تلك الفترة من بدايات أربعينات القرن العشرين .. (ألمانيا) النازية انطلقت كالنار فى الهشيم ، تلتهم دول (أوروبا) المجاورة بلا رحمة أو هوادة ، وتحقق انتصارات مدهشة مبهرة ، على كل الجبهات ، وتخترق الجيوش ، والأسوار ، والخطوط الدفاعية كسكين حاد ، يعبر قالبًا من الزبد الطازج ، وهى تحلم بالانتصار الكبير على الجبهة البريطانية ..

وفى (برلين) ، انتفخت أوداج قادة النازية فى ثقة ظافرة ، وهم لا يتلقون سوى أخبار الانتصارات والفتوحات من كل الجبهات وباتوا يحلمون بالضربة القادمة التى ستخضع (بريطانيا) العظمى ، التى توشك على الانهيار والخضوع ، و ...

وفجأة ، أصدر الفوهلر قرارًا أدهش الجميع بلا استثناء بوضع خطة محكمة لغزو الاتحاد السوفيتى .. وفى حيرة مذعورة ، تساءل القادة عن سر هذا القرار العجيب ، فى هذا التوقيت بالتحديد ، وأعلنوا خشيتهم من أن يؤدى تحول القتال من الجبهة البريطانية إلى السوفيتية إلى أن يلتقط البريطانيون أنفاسهم ، ويستعيدوا قوتهم ، وينهضوا من كبوتهم ..

ولكن (أدولف هتلر) لم يتراجع أبدًا ..

لقد أصر أكثر على موقفه ، وأمر بالبدء فى خط الغزو ، التى أطلق عليها اسم (بارباروسيا) ..

ولم يكن أمام القادة والجنرالات إلا الإذعان ، وهم يضربون كفًا بكف ، فى صمت بالطبع ، ويتساءلون عن سر هذا التحول العجيب المفاجئ ..

(هملر) قائد فرق (الجستابو) وحده كان يعلم السبب أو يتصور أنه يعلمه على الأقل ..

فمن ناحيته ، كان (هملر) واثقًا إلى حد كبير ، من أن هذا القرار يرتبط بذلك الضيف المهول ، الذى التقى به الزعيم النازى (أدولف هتلر) ، فى سرية تامة ، وتحت غطاء من الغموض الشديد ، قبيل إصدار قراره بيوم واحد .. اللقاء الذى كان يغضبه ويستفزه إلى أقصى حد ، فبحكم منصبه ، كان من الطبيعى أن يطلع على كل ما يخص الفوهلر ، وعلى هوية كل من يلتقى به ، أو حتى يتصل به.

ولكن أوامر (هتلر) كانت صارمة واضحة فى ذلك الأمر ..

لقد استدعى (هملر) إلى مكتبه ، فى السابعة صباحًا ، وقال فى صرامة ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ..

إننى أنتظر زائرًا ، سيأتى فى تمام التاسعة ، وحول عنقه وشاح أبيض ، لا أريد أن يعترضه أحد ، أو يوقفه أو يطالبه إبراز أية أوراق ، أريده أن يأتى من الباب الأمامى إلى مكتبى مباشرة .. هل تفهم ؟!

لم يرق هذا لقائد (الجستابو) الشرس ، وحاول أن يعترض ، وظل نصف ساعة كاملة ، فى محاولة لإقناع الفوهلر بالتراجع ، وبالسماح للحراس بإيقاف القادم والتيقن من هويته ، قبل أن يدخل إلى المستشارية ، ولكن الزعيم النازى رفض بشدة وحزم وصرامة وإصرار ..

وغادر قائد (الجستابو) حجرة الزعيم ، وهو يغلى غضبًا ، بكل معنى الكلمة ، وتشعر كل خلية من جسده بمهانة ما بعدها مهانة ..

كيف يمكن أن يعامله الزعيم بهذا الأسلوب ؟!.. كيف يحجب عنه معلومات هامة ومباشرة كهذه ؟!..

ولأنه لم يستطع هضم الموقف بأكمله ، ولم يستطع كتمان غضبه وفضوله ، فقد طلب من رجال فرقته الخاصة الانتشار حول المستشارية ، وإبلاغه فورًا عن أى غريب يظهر ، وحول عنقه وشاح أبيض ..

وحتى التاسعة إلا خمس دقائق كان كل رجاله يؤكدون عدم ظهور أى شخص بهذه المواصفات فى المنطقة ، وعلى الرغم من هذا ، فلم تكد عقارب الساعة تشير إلى تمام التاسعة ، حتى ظهر ذلك الشخص بغتة ، وكأنما برز من عدم ، وهو يرتدى معطفًا أسود طويلاً ، يصل حتى منتصف ساقيه ، وقبعة سوداء ، تغطى رأسه كله ، فى حين اختفى نصف وجهه خلف ذلك الوشاح الأبيض الأنيق ، والنصف الآخر خلف منظار داكن ، من طراز سويسرى الصنع .

وفى ثبات تام ، وبثقة رجل يؤمن بأنه ليس من حق أى مخلوق اعتراضه ، عبر ذلك الغامض مدخل المبنى ، وقطع دهاليزه الطويلة ، واتجه نحو حجرة مكتب الفوهلر شخصيًّا ، وتجاوز حارسيها ، اللذين لم يحاولا الاعتراض ، طبقًا لما لديهما من أوامر ، ثم دفع باب المكتب دون حتى أن يطرقه ، ودلف إليه فى ثقة ..

وفى اللحظة التى استغرقها دخوله ، لمح (هملر) من خلفه (أدولف هتلر) ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، فى لهفة واهتمام غير عاديين ، لاستقبال الزائر ..

ولقد استغرق اللقاء سبعًا وعشرين دقيقة ، غادر الزائر بعدها المكتب بنفس الثقة والحزم ، وهو يحمل تحت إبطه كتابًا صغيرًا ، له غلاف من الجلد الأحمر ، كان يحمله أيضًا عند وصوله .

ودون أن يضيع (هملر) لحظة واحدة ، أمر رجاله بمراقبة ذلك الزائر وتعقبه ، ومحاولة كشف هويته بأى ثمن .. ولقد أطاع الرجال أوامر قائدهم ، وكانت فى انتظارهم مفاجأة مذهلة ، فعلى الرغم من دقتهم وبراعتهم ، نجح ذلك المجهول فى مراوغتهم ، واختفى وسط (برلين) دون أن يترك خلفه أى أثر ..

وجن جنون (هملر) ، وعقله البوليسى يطرح عليه ألف سؤال .. ما هوية ذلك الجاسوس بالضبط ؟!.. وكيف بلغت براعته هذا الحد ؟!.. بل وكيف وجد سبيله للاتصال بالفوهلر شخصيًا دون المرور به كالمعتاد ؟!

مجموعة من الغوامض والتحديات كان من المستحيل على رجل مثله أن يتجاهلها أو يغمض عينيه عنها ، خاصة وأنها تستفزه استفزازًا لم يعهده من قبل ..

ثم أعلن (هتلر) عن رغبته فى شن الحرب على (روسيا) ، فى اليوم التالى مباشرة ..

وهنا ربط (هملر) ما بين زيارة ذلك الجاسوس الغامض ، والقرار النزق ، الذى اتخذه (هتلر) ، فى مثل هذه الظروف ..

ولأنه يتميز بإصرار لا يقبل التراجع ، تجاهل (هملر) كل الفرق التابعة له ، واستدعى واحدًا من أبرع رجال المخابرات الألمانية عبر التاريخ .. (إيريك فون كلايست) ..

ومنذ تلك اللحظة ، أصبح الأمر كله مسئولية (فون كلايست) ، الذى كتب عن هذه المهمة فى مذكراته ، يصفها بأنها كانت أصعب وأخطر مهمة أسندت إليه ، فى حياته كله .. على الإطلاق ..

البداية كانت عند ذلك المنزل المهجور نصف المتهدم ، الذى اختفى عنده ذلك الرجل الغامض منذ أيام قليلة ، فقد كان (فون كلايست) يؤيد تمامًا نظرية (هملر) قائد (الجستابو) ، فى حتمية وجود نفق أو سرداب سرى ، فى ذلك المنزل ، يبرر اختفاء الرجل على هذا النحو العجيب ، لذا فقد انتحل رجل المخابرات الألمانى شخصية مقاول هدم ، وابتاع أنقاض ذلك المنزل من الحكومة ، بمعاونة (هملر) بالطبع ، وأحضر عرباته فى اليوم التالى ، لرفع الحطام والأنقاض .. باختصار ، كان قد اتخذ قراره بفحص ذلك المنزل حتى القاع ..

ولقد استغرقت عملية إزالة الأنقاض هذه ثلاثة أيام كاملة ، عمل فيها (فون كلايست) ورجاله ليلاً ونهارًا ، للانتهاء من المهمة ، قبل أن يبلغ الأمر (الفوهلر) ، فيتدخل لمنع استمرار المهمة ، وحماية ذلك الشخص ، الذى لا يدرى أحد هويته بالضبط ..

ولكن (هتلر) كان مشغولاً تمامًا فى تلك الفترة ، فى الإعداد لخطة (باياروسيا) ، لغزو (روسيا) ، لذا فقد نبش (فون كلايست) بقايا ذلك المنزل ، ورفع أطلاله ، وفجأة عثر على ذلك السرداب ..

سرداب خفى ، مصنوع بإتقان مدهش ، حتى إن مدخله لم ينكشف إلا مع هدم آخر الجدران المتبقية وكان السرداب بطول ثلاثين مترًا ، وينتهى عند منزل صغير على الجانب الآخر من الطريق .. وبسرعة نقل (فون كلايست) الخبر إلى (هملر) ، الذى أصابته دهشة عارمة ، على الرغم من أنه صاحب نظرية وجود السرداب ، وطلب ملف ذلك المنزل الصغير ، فى محاولة لجمع كل المعلومات الممكنة ، ومعرفة كيف يمكن حفر سرداب بهذا الطول يمر أسفل طريق حيوى ، دون أن تشعر جهات الأمن بهذا ..

والواقع أنه ـ وكما تقول يوميات (فون كلايست) ـ لم يتمكن من كشف ذلك السر أبدًا .

أما (فون كلايست) نفسه ، فكان كل ما يعنيه من هذا الأمر ، هو التيقن من أنه يواجه شخصًا بارعًا فحسب وليس شبحًا يتلاشى مع ضوء النهار ، ومن هذا المنطلق ، بدأ يضع خطة البحث ..

ومع التسهيلات والصلاحيات التى منحه إياها (هملر) راح (فون كلايست) يمشط (برلين) شارعًا بشارع ، ومنزلاً بمنزل ، ومقهى بمقهى ، بحثًا عن أى شخص يشتبه فى أمره ، وقد أدت حملته المكثفة هذه إلى إلقاء القبض على عدد من الجواسيس البريطانيين ، أرضى رؤساءه ، ومنحه المبرر الكافى لمواصلة مهمته السرية ، وعندما انتابه اليأس ، من التوصل إلى

هوية ذلك الغامض ، وثبت إلى ذهنه فجأة فكرة لم تخطر بباله مطلقًا ، فذاك الجاسوس الخفى التقى بالفوهلر ، ليقنعه بشن الحرب على الجبهة الروسية ، ولقد حمل إليه حتمًا معلومات بالغة الخطورة والأهمية ، تبرر إقدام (ألمانيا) النازية على تحول خطير كهذا ، على الرغم من أن الجبهة البريطانية توشك على الانهيار ، وهناك معاهدة دفاع مشترك ، سبق توقيعها مع الروس ، وهذا يعنى أن ذلك الغامض أحد اثنين ، لا ثالث لهما ، إما أنه جاسوس ألمانى رفيع المستوى ، إلى الحد الذى دفع الفوهلر إلى الاحتفاظ بسر هويته لنفسه ، لينقل إليه كل ما خفى من أسرار ، حتى أسرار جنرالاته أنفسهم ، أو أنه جاسوس أجنبى ، نجح بخطة شيطانية فى اكتساب ثقة الفوهلر ، بحيث تكفى معلومة زائفة منه لتغيير مسار الحرب كلها ..

وفى الحالتين هناك خطر داهم ، على (ألمانيا) كلها ، بوجود مثل هذا الجاسوس الخفى .. خطر التورط فى حروب سابقة لتوقيتها ، مما قد يحمل معه رياح الهزائم أو الهزيمة الكبرى ، التى يخشاها الجميع ..

ولأنه رجل مخابرات محنك ، يعرف جيدًا قدرات أجهزة الأمن النازية ، رجح (فون كلايست) الاحتمال الثانى ، على الرغم من صعوبته وخطورته ، أو على الأقل ، قرر أن يبدأ مهمته ، انطلاقًا

من الاحتمال الأكثر خطورة ، حتى يثبت العكس .. ولكن مهمة (فون كلايست) لم تكن سهلة أبدًا ، فقد راجع ملفات كل المشتبه فيهم ، فى (ألمانيا) كلها ، وليس فى (برلين) وحدها ، ونبش كل شبر توصل إليه ، دون أن يحظى بمعلومة واحدة .

ولقد جن جنون (هملر) ، عندما أخبره (فون كلايست) بهذا ، وثار فى وجهه ، وطالبه ببذل مزيد من الجهد ، وإلا .. ولكن (فون كلايست) لم يكن من ذلك الطراز ، الذى يمكن أن يهتز أمام التهديد والوعيد ، لذا فقد واجه قائد (الجستابو) فى حزم ، وأخبره أنه ، وبعد بحث طويل شاق ، لا يجد أمامه سوى سبيل واحد ..

أن يظهر ذلك الجاسوس الخفى مرة أخرى ، وأن يتعقبه هو بنفسه هذه المرة ..

ولقد غضب (هملر) لهذا الرأى ، واعترض بأنه ليس هناك منطق أن يظهر ذلك الغامض مرة أخرى .. ولكن (فون كلايست) كان له رأى مختلف .. لقد كان واثقًا من أن الرجل الغامض سيعاود الظهور حتمًا ، مع تطور الأمور .. وعلى الرغم من أنه لم يصارح (هملر) بوجهة نظره وتفاصيلها ، إلا أن ما دونه فى يومياته كان يشف عن عبقرية مدهشة ، فى التنبؤ بالتطورات العسكرية والسياسية ..

لقد كتب (فون كلايست) أن عودة ذلك الغامض ستكشف حتمًا هويته وسترجح أحد الاحتمالين ، اللذين وضعهما لشخصيته .. (ألمانيا) كانت تحقق انتصارات كبرى على الجبهة الروسية حتى إن جيوشها أصبحت على مسافة خمسة وسبعين كيلومترًا فحسب من (موسكو) ، وحكومة (ستالين) فرت من العاصمة ، واختفت في قلب البلاد ، وكل شىء يوحى بأن السقوط الروسى صار وشيكًا .. ولكن هذا كان مفيدًا ، فى الوقت ذاته للجبهة البريطانية ، إذ إن التركيز على الجبهة الروسية منحها الوقت لالتقاط أنفاسها ، وإعادة تنظيم صفوفها وتسليحها ، حتى بات من الوشيك أن تهدد أمن وسلامة (ألمانيا) بعد حين ..

ومن وجهة نظر (فون كلايست) ، كانت كل مهمة ذلك الجاسوس الخفى هى أن ينقل الحرب إلى الجبهة الروسية ، قبل أن تنهار الجبهة البريطانية أمام الضغط الألمانى القوى .. ولو أن نظريته هذه صحيحة ، فالبريطانيون لن يسمحوا بانهيار حليفهم (روسيا) أيضًا ، لذا فسيسعون إلى إيقاف الحرب الروسية فى الوقت المناسب الذى يضمن هزيمة (ألمانيا) وسط الثلوج ، وتحطيم جيشها هناك لإضعاف العملاق النازى كله ..

ولأن (فون كلايست) كان يخشى رد الفعل ، لم يصارح (هملر) عما يعتمل فى أعماقه ، بل طلب منه أن يمنحه سلطات

أوسع ، للإيقاع بذلك الجاسوس الخفى ، فى الوقت المناسب ، ولقد كان عبقريًا فى استنتاجاته إلى أقصى حد .. فذات يوم ، وبينما كان (هملر) يعرض بعض الأوراق على (هتلر) ، عقد هذا الأخير حاجبيه فى صرامة قائلاً :

الرجل سيأتى فى تمام التاسعة من صباح الغد ، كالمرة السابقة .

سرت قشعريرة فى جسد (هملر) عندما سمع عبارة زعيمه ، وراح قلبه يدق فى عنف ، وهو يغمغم :

سنتخذ كل الإجراءات أيها الفوهلر .

وعندما عاد إلى مكتبه ، كان أول ما فعله هو الاتصال برجله (فون كلايست) ..

ومنذ الثامنة والربع ، راح (فون كلايست) يحوم حول مبنى المستشارية ، ويفحص كل شخص يقترب منها بعينى خبير ، ثم راح يوزع رجاله فى كل الشوارع المحيطة بها ، على نحو عبقرى مدروس ، و ...

وفى تمام التاسعة ، ظهر الجاسوس الخفى .. ظهر مرتديًا ذلك المعطف الطويل ، والوشاح الأبيض ، الذى يشترك مع القبعة فى إخفاء وجهه كله تقريبًا .. وبمنتهى الثقة والثبات والهدوء ، عبر

الرجل الغامض ، رجال الحراسة ، واتجه نحو حجرة الزعيم النازى مباشرة ، واستقبله (هتلر) بنفسه فى مكتبه ، فى التاسعة تمامًا .

وقضى معه ساعة كاملة هذه المرة ، اتخذ بعدها ، وعلى نحو منفرد ، ودون استشارة قادته ، قرارًا بإيقاف الحرب على الجبهة الروسية فورًا ..

وبنفس الهدوء الواثق ، غادر الجاسوس الغامض مكتب (الفوهلر) ، دون أن يعترضه أحد .. ولكن (فون كلايست) انطلق خلفه ، فور خروجه .

كان الجاسوس بارعًا بحق ، يتخذ طرقًا شديدة التعقيد ، توحى بأنه يحفظ خريطة (برلين) عن ظهر قلب ، حتى الشوارع التى تهدمت فى الغارة الأخيرة ، فمن الواضح أنه يتلقى معلوماته من مصادر بالغة القدرة والدقة. ولكن كل حيله لم تخدع (فون كلايست) .

لقد واصل مطاردته بنفس البراعة والمهارة ، وضيق عليه الخناق ، حتى توقف الجاسوس الغامض عند هاتف عمومى ، ليجرى اتصالاً أدرك (فون كلايست) طبيعته على الفور فلقد شعر الجاسوس الخفى بالمطاردة ، وقرر الاتصال بالفوهلر شخصيًا ليصدر أوامره بمنع وإيقاف التعقب فورًا ..

وكان من المحتم أن يمنع (فون كلايست) هذا الاتصال . وبأى ثمن .. لذا فقد تجاوز الخطة التى وضعها هو بنفسه ، وأصدر أوامره المباشرة بالهجوم وانقض رجاله على كابينة الهاتف العمومى ، قبل أن يدير الجاسوس القرص برقمٍ واحد.

ولأن الجاسوس رجل محنك ، كما توحى كل تحركاته وتصرفاته ، فقد أدرك ما يحدث على الفور ، وانطلق خارج كابينة الهاتف العمومى كالصاروخ .. وانطلق (فون كلايست) ورجاله خلفه ..

وهنا ظهرت موهبة جديدة ، من مواهب الجاسوس الخفى ، لقد كان يعدو ويناور ويحاور كرياضى من الطراز الأول ، أو كأحد أبطال الألعاب الأوليمبية ، فى رياضة تخطى الحواجز .. ففى مهارة مدهشة ، ومرونة لا وصف لها ، كان يتفادى انقضاضة رجال (فون كلايست) ، ويقفز فوق عقبة اعترضت طريقه ، ثم يدور حول أخرى ، ويعبر أسفل ثالثة .. باختصار ، شعر رجال (فون كلايست) بأنهم يطاردون شيطانًا ، وليس بشرًا عاديًا .. ولكن رجل المخابرات الألمانى كان مصرًا على الانتصار فى هذا السباق .. مهما كان الثمن .. ثم فجأة ، وثب الجاسوس داخل منزل قديم ، من منازل (برلين) الخالية ، واختفى داخله ..

وهنا توقف (فون لايست) ، فلقد كان واثقًا من أن الجاسوس ليس غبيًا ، ليختفى فى منزل صغير ، يمكن محاصرته والسيطرة

عليه ، وأن هناك سردابًا آخر حتمًا .. سرداب يقود إلى مبنى آخر .. مبنى قريب .. أو بعيد .. لذا فقد انتشر مع رجاله فى المنطقة كلها ، وراحوا يفتشون ويفحصون كل مكان ، وكل شخص فى الطرقات ..

وفجأة توقف (فون كلايست) وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحدق فى شيخ أشيب الشعر متغضن الوجه ، غادر أحد المنازل وهو يتكئ على عصا خشبية غليظة ، يسير بها على نحو يوحى بأنه مصاب بالشلل الرعاش ، ولم يكن من الطبيعى أو المنطقى ، أن يلفت شخص كهذا انتباه أحد ، ولكن (فون كلايست) كان رجلاً يتميز بمهارة لا تقارن ، فى قوة الملاحظة ، لذا فقد جذب الحذاء انتباهه .. حذاء الرجل ، الذى يسير فى صعوبة ، متكئًا على عصاه السميكة ، كان متربًا بشدة ، كحذاء شخص ظَلَّ يركض طويلاً ، وسط الأحياء القديمة .

وبكل انفعاله ، أشار (فون كلايست) إلى رجاله ، ثم اندفع معهم نحو ذلك الشيخ ، وبعنف شديد وانقض الرجال على الشيخ ، وأمسكوا به ، وهنا تحول الشيخ المريض إلى وحش كاسر ، فانطلقت قبضته تحطم أنف أحد الرجال ، وارتفعت قدمه تضرب ركبة آخر ، ثم دار حول نفسه ، ولكم ثالثًا فى معدته ..

ولكن (فون كلايست) لم يكن مستعدًا للتراجع أو الهزيمة ..

أبدًا .. وبصيحة هادرة منه ، ترك كل رجاله مكامنهم ، وانقضوا على ذلك الجاسوس الخفى ، وهو يصرخ فيهم :

لا تسمحوا له بالفرار .. أريده حيًا ..

بذل الرجال جهدًا لا مثيل له على الرغم من الركلات واللكمات التى تنهال عليهم كالمطر للسيطرة على الرجل ، الذى أدهش (فون كلايست) بقتاله الشرس والعنيف ، على الرغم من المناورات الطويلة ، التى قام بها أثناء المطاردة .. ولكن كما يقولون .. الكثرة تغلب الشجاعة لذا فقد نجح الرجال أخيرًا ، فى السيطرة على الجاسوس الخفى ، ومال (فون كلايست) لينزع تنكره قائلاً :

أخيرًا ، يمكننا رؤية وجهك الحقيقى.

تجمد فى مكانه ، عندما انطلقت ضحكة ساخرة عالية من الجاسوس قبل أن يفتح كفه ، فتبدو داخله قنبلة يدوية منزوعة الفتيل ، وبكل ما يملك من قوة ، وبأقصى سرعته ، انطلق (فون كلايست) يعدو مبتعدًا وهو يصرخ برجاله:

تراجعوا .. بسرعة.

لم تكد صرخته تكتمل .. حتى دوى الانفجار من خلفه ، انفجار قوى دفع جسده دفعة عنيفة ، جعلته يطير لأربعة أمتار كاملة ،

وهو يشعر بلفح النار فى ظهره ، قبل أن يسقط على وجهه ولثوان ، بدا له كل شىء مشوشًا ، ثم لم يلبث أن استعاد صفاء ذهنه ، فنهض فى سرعة وأسرع يلقى نظرة على ما حدث .

لقد حافظ الجاسوس الخفى على غموض هويته ، حتى اللحظة الأخيرة ..

فالقنبلة اليدوية مزقت جسده تمامًا ، وحولت وجهه وجمجمته إلى أشلاء وقتلت فى الوقت ذاته ثلاثة من رجال (فون كلايست) وأصابت اثنين آخرين بإصابات خطيرة.

وعندما أبلغ (فون كلايست) (هملر) بالأمر ، لم يستقبله هذا الأخير بالدرجة التى تتناسب مع الموقف فصحيح أن الجاسوس الخفى لقد لقى مصرعه ، ولكن بعد أن أنجز الجزء الأخير من مهمته بنجاح منقطع النظير إذ أصدر (هتلر) بالفعل قراره بإيقاف القتال فورًا على الجبهة الروسية ، ورفض بإصرار كل محاولات جنرالاته ، لإقناعه بالمضى فى القتال حتى يتم سقوط (موسكو) على الأقل .. وتوقف الجيش الألمانى ، على مسافة كيلومترات قليلة من (موسكو) ..

وجاء الشتاء .. أعنف شتاء شهدته (روسيا) منذ نصف قرن ..

وانهزم الجيش الألمانى ، وسط ثلوج (موسكو) ، وتغير مصير الحرب كلها ، منذ ذلك الحين ..

ولولا مذكرات (إيريك فون كلايست) التى عثر عليها المؤرخون فى منتصف الستينات ، لما أدرك أحد أن شخصًا واحدًا ، كان له الفضل فى تغيير المسار ، جاسوس واحد اخترق كل نظم الألمان الصارمة ، حتى وصل إلى (هتلر) نفسه ..

جاسوس لم يعترف جهاز مخابرات واحد بانتمائه إليه ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ، لذا فقد حمل حتى يومنا هذا ، لقبًا فريدًا ، فى عالم المخابرات ..

لقب الجاسوس الخفى ..

* * *

الجليد الدامى ..

فجأة ، ودون مقدمات منطقية ، وعلى الرغم من معاهدة عدم الاعتداء بينهما ، شن (هتلر) هجومه الضارى على الاتحاد السوفيتى ، فى الحرب العالمية الثانية .

أسباب ومبررات عديدة ساقها التاريخ ، وقدمتها وثائق سرية ، نشرتها كل الأطراف التى شاركت فى الحرب ، فيما عدا الاتحاد السوفيتى بالطبع ، فى محاولة لتحديد سر إقدام (أدولف هتلر) وقوات الرايخ الثالث ، على تلك الخطوة العجيبة ، فى وقت كانت ألمانيا النازية فى أشد الحاجة فيه ، لحشد كل جندى فى جيوشها ، على الجبهة البريطانية التى أوشكت بالفعل على الانهيار .

ولكن أيًا من هذه الأسباب والمبررات لم يكن يعنى الشعب السوفيتى ، أو الجيش الأحمر ، الذى بوغت بالهجوم النازى ، وراح ينسحب ويندحر أمامه ، غير قادر على الصمود أو المقاومة أو صد الهجمات العنيفة الشرسة .

وبسرعة أذهلت وأفزعت (أوروبا) كلها ، راح الجيش النازى يتقدم ويتقدم ، فى الأراضى السوفيتية ، ويسحق أمامه كل مقاومة ، بمنتهى القسوة والوحشية ، حتى صار على مشارف العاصمة (موسكو) مما دفع القيادة السياسية والعسكرية السوفيتية إلى ترك المدينة ، والفرار إلى مدن أخرى ، وكأنها تعلن هزيمتها المريرة .

وانتظر العالم كله فى قلق ، دخول قوات النازى إلى (موسكو) وسقوط العاصمة العريقة ، وارتفاع علم الصليب المعقوف على الكرملين ..

ولكن (هتلر) فاجأ العالم مرة أخرى ، بتوقفه بغتة عن القتال ، وكمون قواته وسط الغابات المحيطة بالعاصمة السوفيتية ، وعلى بعد خمسة وأربعين كيلو مترًا منها فحسب ..

وكان أول من باغتهم هذا هو قادته أنفسهم ، والذين لم يفهموا قط سبب التوقف المباغت ، على هذه المسافة القليلة ، من عاصمة أعلنت استسلامها بالفعل ، وسلمت مفاتيحها معنويًا ، ولم يعد باقيًا سوى استسلامها ، وفتح أبواب المدينة على مصاريعها .

كل شىء كان يؤكد أن قرار الفوهلر خاطئ بكل المقاييس ..

كل شىء بلا استثناء ..

ولكن من يجرؤ على معارضة أعظم ديكتاتور ، عرفته (أوروبا) ، فى العصور الحديثة ؟!

وأطاع الكل ..

الجيش والضباط والجنرالات ..

وعلى الرغم من اقتراب الشتاء ، وبرودة الطقس ، توقف الجيش النازى على مشارف موسكو ، ولم يحاول دخولها ، لينعم فيها بالدفء ، والجدران وحياة المدن ..

ولسوء حظ النازيين ، وحسن حظ السوفيت ، جاء الشتاء قاسيًا للغاية ، على نحو لم تعرفه تلك المنطقة ، منذ ما يزيد على نصف القرن .

وكانت فرصة مدهشة للسوفيت ، لا يمكن إضاعتها أبدًا ..

مهما كان الثمن ..

وتحت الجليد المنهمر ، حملت سيارة قديمة ضابطًا سوفيتيًا شابًا ، لتشق به شوارع (لينينجراد) ، التى خلت تمامًا من المارة ، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، دون أن يتبادل ركابها حرفًا واحدًا مع الضابط الشاب ، الذى أطبق شفتيه فى تماسك ، على الرغم من أن عقله يكاد يلتهب بالتساؤل ، عن سبب إيقاظه بعد منتصف الليل ، وحمله فى سيارة مدنية إلى جهة مجهولة ، بأمر يحمل توقيع مدير المخابرات السوفيتية شخصيًا .

وفى ذهنه ، وضع الضابط الشاب عشرات الاحتمالات ..

ولكنه لم يستقر على أحدها أبدًا ..

كل احتمال يبدو منطقيًا فى البداية ، ثم لا يلبث عقله أن يرفضه أو يلفظه ، لوجود خلل ما هنا ، أو قصور ما هناك .

لذا فقد ألقى كل محاولاته جانبًا ، وقرر أخيرًا أن يسترخى فى مجلسه ، وأن يترك الجواب للوقت ..

ولكن حتى الاسترخاء بـدا أشبه بحلم صعب المنـال ، فى تلك اللحظات ..

ولأخيرًا ، وبعد نصف ساعة من الانطلاق ، تحت الجليد المنهمر ، توقفت السيارة عند مبنى عريق ، ودعاه قائدها للهبوط ، حيث استقبلتهما خلف أبوابه موجة من الدفء ، سرت فى عروق الضابط السوفيتى الشاب ، فانتعش ، وملأ صدره بالهواء ، وشعر بشـىء من الهدوء ، وهو يسير عبر ممرات المبنى ، خلف ذلك المدنى ، الذى قاده إلى حجرة كبيرة ، ثم التفت إليه ، قائلاً فى حزن :

ـ اخلع معطفك ، وعدل هندامك .

أطاعه الضابط الشاب فى سرعة ، فطرق الرجل الباب ، وتنحنح ، ثم دفعه ، قائلاً وهو يفسح الطريق أمام الضابط :

ـ الملازم (إيزاك ميلا نوفيتش) يا جنرال .

ومع عبارته ، أدرك الشاب ، وهو يخطو داخل الحجرة ، أنـه سيلتقى لسبب ما بأحد جنرالات الجيش السوفيتى ..

ولكنه لم يكد يلف إلى المكان فعليًا ، حتى شعر بكل ذرة فى كيانـه ترتجف .. وبمنتهى العنف .. فالحجرة لم تكن تضم جنرالاً واحدًا ..

بل خمسة جنرالات دفعة واحدة ..

ولكن ذلك الجنرال فى المنتصف ، والذى حدجه بنظرة نارية ، كان هو السبب الرئيس لانتفاضته ..

هذا لأنه كان مدير المخابرات السوفيتية شخصيًا ..

وبمنتهى القوة والحزم ، شد (إيزاك) قامتـه ، وأدى التحيـة العسكرية بمنتهى القوة ، وهو يقول :

الملازم (إيزاك ميلانوفيتش) يا سادة ..

تطلـع إليه الجنرالات الخمسـة فى صمت ، ثم تهامسوا مـع بعضهم لدقيقـة كاملـة تقريبًا ، قبل أن يقـول مديـر المخـابرات السوفيتية فى هدوء :

تقدم أيها الملازم ..

تقدم (إيزاك) نحوه بخطوة عسكرية ، فتراجع الرجل فـى مقعده ، وسأله فى اهتمام شديد :

ما جنسية أمك أيها الملازم ؟!

لم يكن السؤال متوقعًا على الإطلاق ، لذا فقد اتسعت عينـا الملازم الشاب ، وسرت فى جسده قشعريرة باردة ، وهـو يجيب بمنتهى الحذر :

ـ ألمانية يا سيدى الجنرال .

كان ينوى الاكتفاء بهذا القول ، إلا أنه وجد نفسه يندفع مستطردًا:

- ولكنها كانت شيوعية مخلصة ، وعضوًا بارزًا فى الحزب ...

قاطعه الجنرال بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول :

- لا بأس أيها الملازم .. لا بأس ..

أطبق (إيزاك) شفتيه ، وإن لم يستطع منع تلك الارتجافة ، التى سرت فى جسده ، والجنرال يسأله :

- هل علمتك أمك اللغة الألمانية ؟!

نطقها الجنرال بالألمانية ، فأومأ الشاب برأسه ، وأجاب باللغة نفسها :

- هذا ما نصحها به خبراء الحزب يا سيدى .

سأله جنرال آخر:

- هل تحفظ شيئًا من الشعر الألمانى؟!

راحت الأسئلة تنهال على الضابط الشاب بالألمانية ، وهو يجيب بمنتهى السرعة والطلاقة ، وبثقافة واسعة ، جعلت أحد الجنرالات يتوقف ، ويقول بالروسية :

- إنه مناسب تمامًا .

غمغم مدير المخابرات السوفيتية :

- بالتأكيد .

ثم أشار إلى (إيزاك) ، مستطردًا فى حزم :

- اجلس أيها الملازم .

تنحنح (إيزاك) ، مغمغمًا فى حرج :

- عفوًا يا سيدى الجنرال .

انعقد حاجبا الجنرال الكثين ، وهو يقول فى صرامة :

- اجلس .. هذا أمر .. الحديث سيطول ، وأريدك أن تسترخى تمامًا ، لتستوعب كل حرف منه .

وجلس (إيزاك ميلانوفيتش) ..

وبدأت العملية ..

الجليد انهمر بكثافة ليس لها مثيل ، فى ذلك الموسم بالذات ..

اللون الأبيض غطى كل شىء ، وسيطر على كل ما يقع عليه البصر .

الأرض ، والجبال ، والأشجار ، والأنهار ...

كل شيء بلا استثناء ..

ومع انهمار الجليد ، انخفضت درجات الحرارة على نحو مخيف ، حتى بالنسبة للسوفيت أنفسهم ..

ولأن السوفيت قد اعتادوا ذلك الطقس البارد جدًا ، والذى تضاعفت برودته مرتين على الأقل ، فقد كانت ثيابهم ، المدنية والعسكرية ، مؤهلة للتعامل معه على نحو ما ..

صحيح أنها تفتقر إلى الأناقة ، وتجعلهم أشبه بالدببة البرية ، أو برجال الكهوف القدامى ، إلا أنها كانت تمنحهم الدفء اللازم .

هذا بالإضافة إلى أنهم يقيمون فى العاصمة ، داخل بيوت مغلقة ، وجدران محكمة ، ونظم تدفئة عريقة متقنة .

على عكس الألمان تمامًا ..

فالنازيون كانوا يقيمون فى العراء تقريبًا ، والجليد يحيط بهم من كل صوب ، والنيران التى يشعلونها ، على الرغم من شدتها ، لا تكفى لبعث الدفء فى عروقهم .

ثم إن ثيابهم كانت أنيقة أكثر مما ينبغى ..

أنيقة حتى إنها لا يمكن أن تقيهم ذلك البرد القارص ، الذى بلغ فى ذلك العام ما يقل عن على الخمسين تحت الصفر .

وراحت أقدام الألمان تتجمد فى أحذيتهم الأنيقة ، وبولهم أخذ يتجمد ، فور خروجه من أجسادهم ، وآذانهم تساقطت على نحو مخيف ..

وانهارت الروح المعنوية الألمانية ..

وعلى نحو لم يحدث قط منذ بدأت الحرب العالمية الثانية ..

وسط كل هذا ، جاء دور (إيزاك ميلا نوفيتش) ..

فوسط صفوف الجيش النازى ، الذى يلتهمه الجليد بلا رحمة ، ظهر ضابط شاب ، يرتدى معطفًا سميكًا ، فوق حلته النازية العسكرية ، وراح يتجول بين الصفوف ، ويلقى أوامره الحازمة هنا وهناك ..

ولأنه كان ألمانى الملامح واللغة ، ولأن الظروف لم تكن توحى باحتمال تسلل أى جاسوس سوفيتى إلى الصفوف النازية ، فقد تقبل الكل وجوده فى استسلام تام ، حتى أصبح مرآه معتادًا ..

وفى كل مرة ، يتوقف فيها ذلك الضابط الشاب ، وسط جنود الجيش النازى ، كان يتحدث إلى الرجال بأحاديث تبدو بريئة ، ولكنها كانت تكفى لتحطيم الروح المعنوية لهم أكثر وأكثر ..

فمرة يذكر عدد الضباط والجنود ، الذين بترت أقدامهم ، بعد أن تجمدت داخل أحذيتهم طويلة الأعناق ..

ومرة أخرى يتحدث عن القوات السوفيتية ، التى انتهزت فرصة انهيار الجليد ، وراحت تعيد تنظيم صفوفها ، وتطلق رجالها لمحاصرة الجيش النازى ، استعدادًا لتصفيته وسحقه ، فور ذوبان الجليد ..

ومرة ثالثة يتحدث عن هزائم مزعومة للجيش النازى فى قلب (أوروبا) ..

باختصار ، كان (إيزاك ميلانوفيتش) يعمل كإذاعة موجهة متنقلة ، تبث إرسالها فى قلب الجيش النازى مباشرة ..

وعلى الرغم من أن عمله هذا كان يحقق نتائج مبهرة ، ويحطم بلا رحمة كل ذرة من الأمل والمقاومة ، فى أعماق ضباط وجنود الجيش النازى ، إلا أن (إيزاك) ـ الذى أطلقوا عليه فيما بعد اسم (ثعلب الجليد الأبيض) ـ لم يكتفِ بهذا الدور المهم ، والبالغ الخطورة إلى حد كبير ..

لقد قام أيضًا بدور آخر ، لا يقل عنه أهمية وخطورة ..

كان يحدد مواقع القوات الألمانية ، وأماكن أسلحتها وذخائرها ..

ثم يترك الباقى لما أطلقوا عليه اسم (الجيش الأبيض) ..

والجيش الأبيض هذا كان فرقة من رجال الكوماندوز السوفيت ، حملت هذا الاسم لأن رجالها يرتدون زيًا أبيض ، وقبعات رأس بيضاء ، ويستخدمون الزلاجات فى تحركاتهم وسط الجليد الأبيض ، بحيث يصبحون أشبه بجيش من الأشباح ..

وعندما يتحرك أفراد الجيش الأبيض فى الليل ، كان من المستحيل تمييزهم عما يحيط بهم من جليد ..

ولكن رصاصاتهم كانت تميِّز النازيين بمنتهى السهولة ..

ومنتهى الدقة ..

وعبر مجموعة من الهجمات ، بأسلوب حروب العصابات ، تساقط ضباط وجنود الجيش النازى على الجليد السوفيتى ..

وأريقت دماؤهم أنهارًا ..

وحتى تلك الدماء ، تجمدت على الجليد ..

وأصبح ذلك الجليد الدامى نفسه سلاحًا رهيبًا ، لتحطيم الروح المعنوية النازية ..

وبمنتهى العنف ..

وخلال شهرين فحسب ، فى شتاء الاتحاد السوفيتى الرهيب ، فقد الجيش النازى ما يزيد على ثلاثين من المائة من قواته ..

وأكثر من سبعين من المائة من معنوياته ..

وصلت الأنباء إلى القيادة النازية فى (برلين) ، وإلى الفوهلر شخصيًا ..

وكانت أسوأ أنباء بلَغَتْه ، منذ أن أعلن الحرب على (أوربا) كلها ، خاصة وأن الجبهة البريطانية ، التى انضمت إليها القوات الأمريكية ، كانت قد بدأت فى تحقيق انتصارات واضحة ، على الجبهة الأوربية ، مستغلة انشغال وإرهاق القوات النازية ، على الجبهة السوفيتية ..

وكان على (هتلر) أن يتخذ أصعب قرار فى حياته ..

قرار الانسحاب من الجبهة السوفيتية ..

ولقد جاء هذا القرار متأخرًا للغاية ..

ومع بدء الانسحاب ، تلقى (إيزاك ميلا نوفيتش) أوامر جديدة ، بتحديد مواقع قيادات الجيش النازية المنسحبة ..

ومرة أخرى قام السوفيتى الشاب بواجبه خير قيام ..

ومع المعلومات الغزيرة ، التى راح يرسلها إلى القيادات السوفيتية ، من قلب الجيش النازى ، راح السوفيت يوجهون ضرباتهم إلى الألمان ..

وتساقطت قوات النازى أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

ومع أخبار تساقطها ، وزحف السوفيت خلفها ، عبر شرق (أوربا) ، انهارت الروح المعنوية الألمانية فى عنف ، وانحسرت إلى حد كبير روح الحماسة ، تجاه حكومة الرايخ الثالث ، وقائدها الأسطورى ..

وعلى الجبهة الأوربية الغربية ، حقق الحلفاء انتصارًا ساحقًا ، بالهبوط فى (نورماندى) ، وتحرير (فرنسا) ، والزحف نحو (برلين) ..

والعجيب أن (إيزاك) ظل يقوم بدوره ، داخل صفوف الجيش النازى ، دون أن تثار حوله الشكوك ، أو ينكشف أمره مرة واحدة ، مما يعكس حالة الاضطراب والفوضى ، التى سادت القوات النازية ، مع الهزيمة ، والاندحار ، والانسحاب ..

وعندما بلغ مشارف (برلين) ، تلقى (إيزاك) أوامر صارمة من القيادة فى (موسكو) ، بنزع الثوب النازى ، والعودة إلى زيه العسكرى السوفيتى ، لقيادة فرقة خاصة ، مهمتها اعتقال الجنرالات والضباط النازيين .

وهنا .. هنا فقط انكشفت هوية السوفيتى الشاب ..

ولأنه عايشهم شخصيًا ، كان من السهل على (إيزاك) أن

يوقع بعدد هائل من جنرالات وضباط الجيش النازى ، وتقديمهم للمحاكمة باعتبارهم مجرمى حرب ..

ووضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها أخيرًا ، فى (أوربا) ، ليصبح (إيزاك ميلانوفيتش) أسطورة مبهرة ، لكل من عرف بأمره أيامها ، وخاصة أنه لم يصب بخدش واحد ، طوال عملية تُعد من أطول العمليات الاستخباراتية المباشرة ، فى تاريخ الحرب العالمية كلها ..

ولم ينكشف أمره أبدًا ، على الرغم من قضائه ما يزيد على عامين وسط صفوف أعدائه فى قلب الجليد ..

الجليد السوفيتى ..

الدامى .

* * *

الخبيرة ..

على الرغم من اندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939م ، وامتداد لهيبها إلى أماكن شتى فى (أوروبا) و(آسيا) و(أفريقيا) ، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية ظلت تكتفى بدور المشاهد والمراقب ، وتبدى تعاطفها مع (بريطانيا) وباقى دول (أوروبا) ، عن طريق إمدادها بالأسلحة والذخائر فحسب ، وربما ببعض خبرائها العسكريين والسريين ، الذين اكتسبوا من (أوروبا) وحربها خبرات واسعة ، كان من المستحيل اكتسابها ، دون احتكاك مباشر ، وباستماتة قاتلت (أوروبا) وناضلت لإقناع الأمريكيين بدخول الحرب العالمية ، لترجيح كفة (بريطانيا) ، وتزويدها بحليف قوى ، وممول عسكرى بعيد عن ميدان القتال الفعلى ، ولكن الأمريكيين استبعدوا الفكرة تمامًا ، باعتبار أنهم على الجانب الآخر من المحيط وليس من المنطقى أن يمتد إليها القتال بأى حال من الأحوال ..

ولكن (اليابان) كان لها رأى آخر .

ففجأة ، ودون مقدمات أو مبررات أو أسباب منطقية واضحة ، خرج الأسطول اليابانى إلى المحيط الهادى ، حاملاً عدة أسراب من الطائرات المقاتلة ، ليشن غارة مباغتة على الأسطول الأمريكى فى (بيرل هاربور) ..

وكانت صدمة عنيفة للغاية ، بالنسبة للأمريكيين ..

لقد انسحق أسطولهم فى (بيرل هاربور) تمامًا ، وانتهى أمره فى دقائق معدودة ، وغاصت معظم قطعه فى أعماق المحيط ، مع عدد هائل من القتلى والضحايا ، الذين صبغت دماؤهم مياه المحيط بذلك اللون الدموى القانى المخيف ..

وهنا لم يعد هناك مفر .

وأعلنت (أمريكا) دخولها الحرب العالمية الثانية .

وبدأ الأمريكيون مرحلة جديدة ، تنفس معها البريطانيون الصعداء ، وشعروا بالارتياح لأن حليفًا قويًا قد انضم إليهم ، وضاعف من قوتهم ثلاث مرات على الأقل .

وعلى الرغم من قوة الأمريكيين وعظمة تسليحهم ، إلا أنهم بدوا كالتلاميذ الصغار ، وهم يتلقون نصائح ، وخبرات حلفائهم البريطانيين ، أصحاب الباع الطويل فى الحروب الاستعمارية ، على مدى عدة قرون .

وعلى يد البريطانيين تعلم الأمريكيين عشرات الخبرات الحربية ، والعسكرية والقتالية ، وعلى رأس كل هذا ، تعلموا أن الحروب لا تنحسم بالقتال المباشر وحده ، ولكنها تحتاج أيضًا إلى حروب غير مباشرة ، يكون لها دومًا أكبر الأثر ، فى تحديد مصائر الشعوب ، فى الحرب والسلم أيضًا .

ورويدًا رويدًا بدأ الأمريكيون يدركون أهمية عمليات التجسس والمخابرات خاصة وهم يسعون لتوجه ضربة ثأرية مضادة لليابانيين .

ولكن التجسس على اليابانيين لم يكن قط بالأمر السهل ، السبب جينى بحت ، ألا وهو أن ملامحهم مميزة للغاية ، ومن المستحيل دس أى غرباء وسطهم ، دون أن ينكشف أمرهم ، كما لو كانوا بقعة سوداء ، فوق أرضية ناصعة البياض .

الروس أمكنهم تجاوز هذه العقبة ، بتجنيد أحد العاملين فى السفارة الألمانية فى (طوكيو) ، أما الأمريكيون ، فقد لجئوا إلى وسيلة مختلفة تمامًا ..

إلى البحث عن طبعة أمريكية من الملامح اليابانية الخالصة .

فى تلك الفترة ، كانت السلطات الأمريكية قد احتجزت كل من يقيم على أرضها من أصحاب الأصول اليابانية ، كإجراء وقائى ، لاتقاء نمو طابور خامس وسط أراضيها ، لذا كان من السهل ، أن تبحث إدارات الأمن الأمريكية عن هدفها وسط المحتجزين .

وأثناء انهماك الكل فى مراجعة آلاف الملفات فاجأهم الكولونيل (جون إدواردز) فى إدارة الشرطة الحربية بعثوره على العميلة المثالية لهذه المهمة .

(سومانيانى) ..

و(سو) هذه حالة خاصة للغاية ، التقى بها الكولونيل (إدواردز) بالمصادفة البحتة ، أثناء زيارته لشقيقته المتزوجة من إيطالى ثرى ، فى أحد أحياء (واشنطن) الراقية .

فهناك ، عند شقيقته ، التقى (إدواردز) بتاجر اللحوم الإيطالى (ألبرتو مانياز) ، وابنته (سو) ، التى تتحدث وتتفاعل بروح إيطالية صرفة ، على الرغم من أنها تحمل ملامح يابانية لا يتطرق إليها أدنى شك .

ولأن هذا يدخل فى نطاق عمله ومهمته ، راح (إدواردز) يتجاذب أطراف الحديث مع تاجر اللحوم الإيطالى ، فى محاولة لمعرفة تاريخ ابنته (سو) .

وكانت قصة بسيطة للغاية فى الواقع .

فقد هاجر والد (ألبرتو) إلى (أمريكا) مع مطلع القرن ، وبدأ تجارة صغيرة محدودة فى اللحوم ، ورثها ابنه بعد هذا بربع قرن ، ليحولها إلى إمبراطورية ضخمة ، فى نفس الوقت الذى وصل فيه اليابانى (أساشى) إلى (أمريكا) ، ليبدأ مع عائلته تجارة محدودة فى أدوات المطابخ وموائد الطعام .

وعن طريق عالم التجارة ، التقى الطرفان ، وسقط الإيطالى (ألبرتو) فى غرام ابنة اليابانى (أساهى) من النظرة الأولى ،

وقرر أن تصبح زوجته .. ومهما كان الثمن ، لم يكن الأمر سهلاً أبدًا ، ولقد عارضت الأسرتان هذا الزواج بمنتهى العنف ، ولأن الإيطاليين واليابانيين يتميزون بالعناد والإصرار ، لذا فقد قاتل (ألبرتو) ، وقاتل .. وقاتل ..

ثم فاز بالغنيمة فى النهاية ..

وعلى الرغم من غضب الأسرتين ، إلا أن كل أفرادهما قد حضروا حفل الزفاف الأنيق ، الذى بدا فيه العروسان فى أوج أناقتهما وسعادتهما ..

وبعد أقل من عام واحد ، جاءت (سو) إلى الوجود ..

جاءت لتسعد أهل أمها بملامحها اليابانية الصرفة ، ولتعيد السخط إلى عائلة (ألبرتو) ، وخاصة عندما توسلت أمها إلى والدها ، ليمنحها اسم (سو) وهو اسم يابانى شائع .

ونمت (سو) بين عائلتين ، واحدة إيطالية ، والأخرى يابانية ، فى مجتمع أمريكى متحرر ، لتبلغ الثامنة عشرة ، وهى تتعايش مع المجتمعات الثلاثة بمهارة وذكاء مدهشين ، إذ لم تكن تتحدث سوى الإيطالية مع عائلة والدها واليابانية مع عائلة أمها ، والأمريكية الصرفة مع زملاء شارعها ومدرستها ، دون أن تخطئ بحرف واحد ، ولا مرة واحدة ..

وبالنسبة للكولونيل (إدواردز) كانت الفتاة مدهشة ، ومثالية للعمل المنشود ، خاصة أن العائلات الثلاثة قد نشأتها على الشعور بالانتماء لوطنها الجديد (أمريكا) ..

ولم يصارح (إدواردز) الفتاة بالأمر بالطبع ، وإنما طرح الفكرة أولاً على رؤسائه ، الذين استقبلوا الأمر بنوع من التحفظ ، خاصة وأن عمر الفتاة لم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة بعد ، والمهمة التى ستوكل إليها بالغة الأهمية والخطورة إلى حد كبير ، ولكن الكولونيل (إدواردز) دافع عن وجهة نظره باستماتة ، وأكد أن الفتاة بالغة الذكاء ، وأنها ستتعلم كل ما يمكن تلقينها أياه بسرعة كبيرة ..

ولقد استغرقت مناقشة الفكرة أسبوعين كاملين ، قبل أن يصدر القرار بالموافقة ، ويتم إسناد العملية كلها إلى الكولونيل (آلان راسيل) ، الوحيد الذى عمل يومًا مع المخابرات البريطانية ، واكتسب منها لمحة فى الخبرة فى هذا المضمار ..

وبعد أسبوعين آخرين من المراقبة والمتابعة ، التقى الكولونيل (راسيل) باليابانية الإيطالية الأمريكية (سومانيانى) ، وجلس يتحدث معها ثلاث ساعات كاملة ..

ولقد كانت الفتاة ناضجة للغاية بالفعل ، وعقلها يفوق عمرها

بعدة سنوات ، لذا فقد استوعبت الموقف كله ، وألقت عددًا محدودًا من الأسئلة يؤكد ذكاءها وتفتحها ، قبل أن تعلن موافقتها على القيام بالمهمة ، ولكن بشرط واحد ..

أن يتم نقل أسرة أمها كلها ، من معسكرات الاحتجاز العامة ، إلى مكان آخر ، يلقون فيه أفضل معاملة ممكنة .

ولقد وافق الكولونيل (راسيل) على شرطها فورًا ، وبلا تردد ..

وبدأت العملية ..

الأمر الوحيد ، الذى لم تتضمنه الوثائق الأمريكية التى نشرت مؤخرًا حول عملية (سومانيانى) ، هو كيفية إقناع والدها الإيطالى القح ، بأن تقوم ابنته بمهمة على درجة عالية من الخطورة كهذه ..

ولكن المهم أن (سو) ، قد سافرت بعد ثلاثة أشهر فحسب إلى (أوروبا) ، وهى تحمل مجموعة من الأوراق والوثائق ، التى تؤكد يابانيتها ، وانتماءها إلى الجزر اليابانية ..

أما تلك الأشهر الثلاثة ، فقد خضعت (سو) خلالها لدورات تدريبية مكثفة ، درست خلالها كل شىء عن (اليابان) ، وكيفية التعايش هناك ، وأساليب إرسال المعلومات ، عن طريق البريد ، والبث اللاسلكى ، واستخدام الشفرة ، وغير ذلك ..

وحتى لا يثير أمرها الشكوك أو الشبهات ، قضت (سو) فى (أوروبا) ، أربعة أشهر أخرى ، منها ثلاثة أسابيع فى (برلين) نفسها ، قبل أن تتجه إلى (طوكيو) ، التى وصلتها فى أواخر عام 1942م ، لتبدأ عملية تثبيت أقدامها هناك .

ولأن تثبيت الأقدام هو أهم وأخطر مرحلة ، فى عمليات الزرع المخابراتية ، فقد تلقت (سو) أوامر مشددة ، بألا تحاول القيام بأية عمليات تجسسية ، خلال تلك الفترة ، مهما تكن الأسباب ..

ولقد التزمت الفتاة بالأوامر تمامًا ، وراحت تعمل على تأكيد وضعها فى المجتمع اليابانى ، باعتبارها من أبناء إحدى الجزر اليابانية الصغيرة ، الساعية للوقوف مع حكومتها ، خلال مرحلة الحرب والمواجهة ..

ولأن ملامحها رقيقة بريئة ، وابتسامتها العذبة لا تفارق شفتيها أبدًا ، فقد نجحت (سو) فى اكتساب عشرات المتعاطفين ، والمتعاونين ، والأصدقاء الذين تبنوا أمرها ، وتحمسوا لحمايتها ، وراحوا يسعون لتوفير عمل لها ، تستغل فيه إجادتها للغة الإنجليزية ، التى لقنتها إياها خادمة هندية قديمًا ، على حد روايتها المصطنعة المتقنة .

وبعد خمسة أشهر كاملة ، استقرت (سو) فى العمل مترجمة

فى إدارة مسئولة عن تقديم تقارير شهرية عما تنشر الصحف البريطانية والأمريكية ، التى يتم تهريبها إلى (طوكيو) .

ولأنها أبدت تفوقًا ملحوظًا ، على الرغم من صغر سنها ، فقد تم نقلها إلى قسم خاص باعتراض الإشارات اللاسلكية ، التى بدأت تتزايد على نحو ملحوظ خلال النصف الثانى فى الحرب العالمية الثانية ..

ولقد قامت (سو) بعملها على خير وجه ، وراحت تترجم كل ما تسمعه ، على الرغم من أنه يبدو أحيانًا وكأنما لا معنى له ، وخاصة مع استخدام أنواع الشفرة الجديدة ، التى ابتكرها البريطانيون ..

وطوال كل هذا ، وعلى الرغم من وجودها فى قلب الأحداث كما يقولون ، لم تحاول (سو) القيام بأى عمل ، يمكن أن يثير حولها الشبهات ، بل لقد بدت أكثر التزامًا وحسمًا من اليابانيين الأصليين أنفسهم وهى تقدم تقاريرها بمنتهى الدقة والانتظام ، إلى الحد الذى جذب إليها انتباه القيادة العسكرية اليابانية ، التى رأت ضرورة الاستفادة من براعتها فى عمل أكثر أهمية وخطورة ..

أما (سو) نفسها ، فقد بدأ التوتر يتصاعد فى أعماقها ، مع

مرور الوقت وبدأ الوقت يمضى بالنسبة لها فى بطء شديد ، وهى تتساءل ، ترى متى ستبدأ عملها الحقيقى ، الذى تركت من أجله أسرتها ، وقبلت عملية زرعها فى قلب عدو ، لن يتردد لحظة فى قطع عنقها ، وتقطيعها إربًا ، إذا ما انكشف أمرها ..

وقبل أن يبلغ توترها منتهاه ، صدر قرار بتعيينها فى قسم الشفرة السرى مسئولة عن بث البرقيات الشفرية ، التى ترسل إلى عملاء (اليابان) السريين ، فى قلب (بريطانيا) و(أمريكا) .

وكان هذا القرار مفاجأة مذهلة لها ، ودليلاً قويًا على نجاح عملية زرعها فى قلب المجتمع اليابانى إلى أقصى حد ، خاصة أن اليابانيين قد تحروا أمرها حتمًا ، قبل وضعها فى منصب شديد الحساسية كهذا ، ومن الواضح أنهم قد اقتنعوا بالتاريخ الزائف ، الذى صنعه لها الأمريكيون ، والذين اعتمدوا فيه على وقائع حقيقية ، فى قلب مجتمع الجزر اليابانية الصغيرة العديدة ..

وفى موقعها هذا ، أصبحت (سو) قادرة على الاطلاع على كل ما يبث إلى عملاء المخابرات اليابانية فى (أوروبا) و(أمريكا) ، وقادرة على معرفة الأسماء الكودية لكل هؤلاء العملاء .. وإن ظلت عاجزة عن تحديد هويتهم الحقيقية بالطبع .. كل هذا ، وإشارة البدء لم تصل بعد ..

وعاد التوتر يتصاعد فى أعماقها أكثر وأكثر ، وبدا لها أنها تعمل ، فعليًا .. لصالح المخابرات اليابانية ، وليس لصالح الأمريكيين ، الذين لم يكن لديهم جهاز مخابرات فِعلىٍّ ، حتى تلك اللحظة ..

ومع منتصف عام 1943م ، شارفت (سو) على الانهيار ، وتصورت أن الأمريكيين قد أرسلوها إلى (اليابان) ثم نسوا أمرها تمامًا ، وحكموا عليها بالعمل لحساب جهة تبغضها إلى الأبد ..

ولكن فجأة ، وفى أوائل أكتوبر 1943م ، وبعد أن بلغ منها اليأس مبلغه ، وصلتها الإشارة المتفق عليها ..

برقية لاسلكية شفرية ، وصلتها للقيام بترجمتها ، وبدت عادية للغاية ، ككل البرقيات الشفرية التى يتم اعتراضها ، ولكن قلب (سو) انتفض بين ضلوعها ، وهى تترجم كلماتها القليلة ، التى حوت العبارة السرية الخاصة ..

وبعدها توالت البرقيات الشفرية ، التى تحمل لها أخبار وأوامر الأمريكيين ..

وكم كانت دهشتها ، عندما اكتشفت أنهم على دراية تامة بكل تطوراتها ، وبالمنصب الذى استقرت فيه أخيرًا ، فى قلب القيادة

اليابانية !! مما يعنى أن هناك من يتابعها ، ويرصد تحركاتها وتطوراتها منذ البداية ، وحتى هذه اللحظة ..

ولم يغضبها هذا ، وإنما على العكس ، بث فى نفسها شعورًا بالارتياح والاطمئنان والثقة ، لأنها ليست وحدها فى قلب الأحداث ..

وبدأت (سو) العمل ، الذى تدربت على القيام به منذ البداية ..

ومن موقعها هذا ، فى القيادة اليابانية ، كان الأمر أسهل مما يمكن تصوره ، فبين أيديها حفنة من المعلومات والأسرار لا حصر لها ، وهى تملك نظم البث والاستقبال ، دون الحاجة إلى التمويه أو التورية أو التخفى ..

كلمات قليلة تضاف هنا أو هناك ، أو تبث خارج الجدول ، يكفيان لإرسال كل المعلومات المنشودة للأمريكيين ، الذين رتبوا دوريات خاصة لبعض سفنهم الاستطلاعية ، مع غواصتين ، لاستقبال البث وإعادة إرساله إلى (واشنطن) ، من قلب المحيط الهادى ..

وعبر خبيرة الاتصالات التى تجاوزت بالكاد العشرين ربيعًا ، راحت المعلومات تنهال على الأمريكيين كالسيل ، لتدير دفة الحرب تمامًا ، بحيث راحت الهزائم تتوالى على اليابانيين ، فى جنوب شرق آسيا ، و(ميدواى) حيث سحق البريطانيون والأمريكيون

الأسطول اليابانى ، ودحروا جيوش الإمبراطورية ، وجعلوها تفر من أمامهم كالأرانب المذعورة .

ثم سقطت (ألمانيا) النازية ، وأدرك الكل أن الحرب قد وضعت أوزارها فعليًا ..

وعلى الرغم من هذا ، لم تستسلم (اليابان) ..

وعبر بثها المشفر ، أكدت (سو) للقيادة الأمريكية أن حالة الجيش الإمبراطورى سيئة للغاية ، وأن الهزائم المتوالية قد قصمت ظهره ، ولكن بقايا الكرامة فقط هى ما يدفع (اليابان) لمواصلة القتال .

ولكن القيادة الأمريكية لم تجب رسائلها هذه قط .

لقد تجاهلتها تمامًا ، على نحو لم تفهمه أو تستوعبه (سو) التى راحت تواصل البث ، وتعلن انهيار الإمبراطورية اليابانية الوشيك ، و ...

وفجأة ، وصلتها أخبار ما حدث فى (هيروشيما) ..

قنبلة ذرية ، سقطت على المدينة ومحتها من الوجود فى لحظات ، مخلفة وراءها أبشع مذبحة عرفها التاريخ ..

فى البداية لم يفهم اليابانيون أو تفهو (سو) ما حدث ،

وتصور الكل أن الأمريكيين والبريطانيين قد شنوا غارة مفاجئة بآلاف الطائرات ، التى ألقت حمولتها كلها فى لحظة واحدة ..

ثم أعلنت (أمريكا) خبر قنبلتها الذرية ، ليسود الرعب العالم كله ، ولتتسع عينا (سو) ويهوى قلبها بين قدميها ، بكل هلع الدنيا ..

ولو أن البث اللاسلكى يحمل مشاعر مرسلة ، لتلقى الأمريكيون فيضًا من الدموع ، مع برقيتها التالية ، التى ناشدتهم فيها عدم تكرار ما حدث ، لأن (اليابان) ستركع حتمًا فى غضون أيام قليلة .

ولكن الأمريكيين تجاهلوا برقيتها هذه المرة أيضًا ، وألقوا قنبلتهم الثانية ، فى قلب (ناجازاكى) ..

وانتهت الحرب بالفعل ، باستسلام (اليابان) غير المشروط ، إلا بما يحفظ ما تبقى من كرامتها وماء وجهها ..

وبعد ثلاثة أشهر من الاستسلام عادت (سو) إلى أسرتها فى (أمريكا) ..

كان الأمريكيون قد بروا بوعدهم فقد أكدت أسرة أمها أنها قد عوملت أحسن معاملة ، فى مزرعة خاصة فى (كنتاكى) ، طوال فترة الحرب ، وأنهم يعلمون أن الفضل فى هذا يرجع إليها كما استقبلتها أسرة والدها استقبال الأبطال .

ولكن (سو) وحدها لم تشعر بالفخر قط ، فعلى الرغم من أن تجربتها قد صنعت منها خبيرة فى مضمار لم تتوغل فيه (أمريكا) فى المخابرات الأمريكية ، عندما أنشئت رسميًا بعد الحرب ، كما رفضت وسام الشجاعة ، الذى قدمه لها الرئيس الأمريكى حينذاك ، بل وظلت حتى آخر أيامها تؤكد أنها تشعر بالانتماء إلى (أمريكا) ، ولكنها لا تستطيع أن تغفر لنفسها ما حدث فى (هيروشيما) و(ناجازاكى) ..

أبدًا ..

* * *

الخيط السميك ..

« (رودلف) سقط .. »

انطلقت العبارة القصيرة ، من بين شفتى أحد رجال المخابرات البريطانية ، الذى اقتحم حجرة الاجتماعات الكبرى ، فى ذلك اليوم فى بدايات عام 1941م أوج الحرب العالمية الثانية فَتَفَجَّر قوله كقنبلة من الدهشة والتوتر والانزعاج ، وسط رجال المخابرات ، الذين اجتمعوا لمناقشة تطورات المواقف الأخيرة ، بعد سقوط (فرنسا) فى قبضة الجيوش النازية ، التى اجتاحت (أوروبا) وحققت انتصارات ساحقة ، أوحت بأن الرايخ الثالث قد يصبح ، فى غضون أشهر قليلة ، المالك الأوحد للقارة ، وربما القارات المجاورة أيضًا ..

والعبارة التى ألقاها رجل المخابرات ، على حين غرة ، كادت تنسف ، ودون أدنى مبالغة ، أحد الآمال العريضة ، فى استعادة السيطرة على مجريات الأمور ، والتصدى للغزو النازى ، الذى كاد يثب على الجزيرة البريطانية نفسها ، عبر بحر (المانش) فى عملية أطلق عليها اسم « أسد البحر» ..

هذا لأن (رودلف) هو الاسم السرى والكودى ، لأهم وأخطر

عملاء المخابرات البريطانية فى قلب (برلين) والذى يعرف الآن ، بعد كشف الأوراق ، باسم (هانز ديتريتش) ، الألمانى الجنسية ، والبريطانى المولد ، والديمقراطى النزعة ، على نحو يتعارض تمامًا مع المبادئ والنظم النازية .. تمامًا ..

ولقد ولد ونشأ (هانز) فى قلب (لندن) فى العقد الثانى من القرن العشرين ، من أب ألمانى ، يعمل فى السلك الدبلوماسى ، فى منصب رفيع ، وأم بريطانية ، كانت تعمل آنذاك مترجمة أولى ، فى السفارة الألمانية هناك ..

وعلى الرغم من أن الأب كان شديد التعصب لألمانيته ، مما جعله يصر على منح ابنه اسمًا ألمانيًا صرفًا ، إلا أن الأم كانت أكثر حكمة وذكاء ، عندما راحت تلقن ابنها اللغة البريطانية ، ومبادئ الديمقراطية ، إلى جوار اللغة الألمانية ، التى لا يقبل الأب لها بديلاً ولا يرضى عن غيرها لغة للتخاطب والمحادثة .

وهكذا نشأ الصبى على نحو يتوافق تمامًا مع عالم الجاسوسية ، منذ أيام حداثته الأولى ، إذ كان عليه أن يتقمص دور الألمانى الصرف ، فى وجود والده ، فلا يتحدث أو يتخاطب إلا بالألمانية ، بل ولا يفكر إلا بأساليبها ، مما يَسُرُّ والده ويسعده ، ثم يتحول فجأة ، بلغته وأفكاره ، إلى صبى بريطانى من الطراز الأول ، عندما يختلى بوالدته ، فيتحدثان الإنجليزية

ويتضاحكان ويتبادلان الدعابات بها ، أو يطالعان معًا رواية لأحد الأدباء البريطانيين ..

ولأنهما يعيشان فى (لندن) كان من الطبيعى أن تصحب الأم ابنها ، بين حين وآخر ، لمشاهدة أحد الأفلام البريطانية ، أو زيارة بعض الأقارب ، أو السفر إلى الريف البريطانى ، وقضاء بضعة أيام فى مناخ إنجليزى جميل ، راق كثيرًا للصبى وانبهر به ، وأحبه حتى النخاع ، خاصة أنه يتعارض تمامًا مع النظام الصارم شديد التحفظ الذى يميز مجتمع والده وأسرته .

وفى عام 1925م ، وعندما كان الصبى فى الرابعة عشرة من عمره ، أصيبت أمه بورم خبيث فى صدرها ، عانت منه لأشهر قليلة ، قبل أن تسلم الروح ذات صباح كئيب اختفت شمسه خلف سحب رمادية كثيفة كعادة العاصمة البريطانية العريقة .

ومع موت الأم ، أصيب (هانز) بصدمة قاسية ، لنصفه البريطانى السرى والمحبوب ، وشعر وكأن نصف كيانه قد تحطم بغتة ، ودون مقدمات ، فانزوى منطويًا فى حجرته لشهر أو يزيد ، دون أن يشعر الدبلوماسى الألمانى المتحفظ والنشيط بما يعانيه ابنه ، أو يبالى بمحاولة إخراجه منه ، أو تخفيف وقع غياب الأم عن حياته .

ولكن الصبى كان قويًا بحق ، لذا فقد تجاوز محنته وحده ، وغادر حجرته ذات صباح ، وقد اتخذ فى أعماقه قرارين حاسمين ، لم يتراجع عنهما أبدًا ، حتى آخر يوم فى حياته .

لقد قرر أن يواصل الاحتفاظ بنصفه البريطانى سرًا ..

وأن يعتبر نفسه بريطانيًا فقط .

وفى عام 1930م ، وبعد أن بلغ (هانز) مرحلة الشباب ، بكل رونقها وجمالها ، وتمردها أيضًا ، صدر قرار بنقل الوالد إلى وظيفة إدارية رفيعة ، فى قلب (برلين) فحزم متاعه ومتاع ابنه الوحيد ، وغادر (لندن) ، والشاب يخفى دموعه خلف عينين باردتين صارمتين ، كما كان يخفى انتماءه الذى حفرته أمه فى أعمق أعماقه ..

وفى (برلين) وجد الشاب نفسه فى مجتمع يختلف تمامًا الاختلاف ، عن المجتمع الذى نشأ وترعرع فيه ، وشعر بالانزعاج والتوتر منه ، وشمله حذر عجيب ، جعله يتحاشى الاندماج فيمن حوله وما حوله ، ويخفى أفكاره وعقليته أكثر وأكثر ، حتى لقد اشتهر بين أقرانه بأنه منطو ، قليل الكلام والحديث ، عزوف حتى عن إقامة أية علاقات مع الشبان والشابات ، فى مثل سنه ، على الرغم من تهذيبه الجم ، وأدبه المثير للاهتمام والإعجاب ،

وشجاعته فى الوقت ذاته ، فى مواجهة أية محاولة للسخرية منه ، أو العبث به ..

وكم من مرة جرت محاولة للتحرش به ، أو اختلاق المشكلات معه !! ولكنه أثبت فى كل مرة أنه قوى الشكيمة ، شديد الحزم والعزم ، ومقاتل لا يشق له غبار فى الوقت ذاته ، بفضل إصرار أمه الراحلة ، على تلقينه سبل ورياضات الدفاع عن النفس منذ تعلمت عضلاته أن تنقبض .

وبسبب كل هذا ، حظى (هانز) بمزيج من الرهبة والاحترام ، فى أوساط الدراسة الجامعية ، فى جامعة (برلين) التى درس فيها التاريخ ، وأثبت تميزًا وتفوقًا فى مادة التاريخ البريطانى بالتحديد .

ثم بدأ الحزب النازى يظهر على نحو سريع ومخيف ، وتألق نجم (أدولف هتلر) وراحت خطبه الملتهبة تذهب العقول وتلهب المشاعر وتدعو الشعب الألمانى إلى التخلى عن كل مبادئه ، والانطلاق لتعويض هزيمته فى الحرب العالمية الأولى ، وإثبات قوته وتفوقه ، فى قلب (أوروبا) تمهيدًا لانطلاقه إلى العالم كله بلا استثناء .

وشعر قلب الشاب بالخطر القادم وامتلأ نفسه بالقلق ، وراح

عقله يرسم صورة سوداء مخيفة للمرحلة القادمة ، فى ظل الحكم النازى الرهيب ، وتحت قيادة دكتاتور مثل (هتلر) .

وفى الوقت الذى اكتسح فيه النازيون النظام الألمانى كله ، وارتفع فيه علمهم الأحمر والأبيض ، والأسود ، ذو الصليب المعقوف ، على مبنى المستشارية . معلنًا بدء الرايخ الثالث ، فى تاريخ (ألمانيا) العظمى ، كان الشاب يستقل القطار إلى (سويسرا) ويتجه مباشرة إلى السفارة البريطانية ، ليعلن رغبته فى التعاون مع البريطانيين ، لصد الغزو القادم .

وكما يحدث دومًا فى عالم المخابرات ، استقبل البريطانيون الأمر بمنتهى الشك والحذر ، وتعاملوا مع الشاب بأسلوب مهذب رصين ، وطلبوا منه تقديم كل بياناته ، وتحديد وسيلة الاتصال المناسبة ، فى حالة الموافقة على عرضه ..

وبمنتهى الهدوء والرصانة ، اللذين ورثهما عن أمه ، نفذ (هانز) ما طلبوه منه ، ثم غادر مبنى السفارة ، وعاد فى أول قطار إلى (برلين) .

وقبل حتى أن يستقل الشاب قطاره ، كان عرضه يطير إلى (لندن) مع كل بياناته ..

وفى (لندن) استقبل رجال المخابرات العرض بمنتهى الدهشة

ومنتهى الحذر أيضًا واجتمعوا حول مائدتهم لدراسة الأمر ، وتبادل الآراء بشأنه ، على أعلى مستوى من الدقة والاهتمام .

وبعد أقل من ساعة ، كان ملف (هانز ديتريتش) كله بين أيديهم ..

وهنا كانت أكبر مفاجأة فى القصة كلها ..

فدون أن يدرى كانت علاقة (هانز) بالمخابرات البريطانية تمتد إلى فترة لا يمكنه هو نفسه أن يستوعبها .

هذا لأنها بدأت قبل مولده شخصيًا ، عندما كانت أمه تعمل لحساب المخابرات البريطانية أثناء عملها مترجمة فى السفارة الألمانية فى (لندن) .

ومن المؤكد أن هذا كان له كبير الأثر ، فى الموقف كله ، فبعد أسبوع واحد ، (وهذه مدة قياسية فى عالم المخابرات) أصبح (هانز) يعمل بالفعل لحساب المخابرات البريطانية ، ويسافر مرة أخرى إلى (سويسرا) ليلتقى برجال المخابرات هناك .

ولم يُضِع البريطانيون دقيقة واحدة ، وهم يبدءون فى تدريب (هانز) على الفور على قواعد عالم المخابرات ودقائقها ..

وكان الشاب موهوبًا بحق ، وعلى نحو مدهش ، إذ راح يستوعب

كل القواعد والتدريبات بسرعة هائلة ، كما لو أنه أرض جافة ، تستقبل الماء بكل شراهة الدنيا ..

وفى الوقت الذى بدأ فيه (هتلر) استفزازاته للعالم أجمع ، كان (هانز ديتريتش) ، الذى أصبح أستاذًا للتاريخ فى جامعة (برلين) أحد أهم وأخطر جواسيس المخابرات البريطانية فى (ألمانيا) كلها ..

وبحكم منصبه وعلاقاته برجال الأدب والسياسة ، وبراعته التى صنعتها التدريبات البريطانية فى اكتساب الصداقات الجديدة ، راح (هانز) ينهل من المعلومات ويرسل عشرات البرقيات والرسائل اللاسلكية إلى (لندن) على نحو أدهش البريطانيين وأصابهم بانبهار لا محدود تجاهه .

وتغيرت طبيعة (هانز) على نحو مدهش ، خلال الأشهر القليلة التالية ، إذ صار منفتحًا ، اجتماعيًا ، شديد الرقة والوسامة ، عذب الحديث ، كثير المجاملة ، وثيق الصلة بعشرات من جنرالات الجيش بمن فيهم (هملر) قائد (الجستابو) نفسه ..

وبدأت رائحة الحرب تفوح ، فى (أوروبا) كلها ، وازدادت خطب (هتلر) التهابًا وحماسًا ، وأصبحت تحمل تهديدات واضحة صريحة ..

وبدأت المخابرات البريطانية تنقل (هانز) إلى مستوى جديد من العمل ، ومنحته الاسم الكودى (رودلف) فى اتصالاتها ومخاطباتها ..

وفى كل يوم ، كان (هانز) يتلقى طلبات وأوامر جديدة ، ويرسل معلومات ووثائق جديدة ..

وفى تلك المرحلة ، وقبيل اندلاع الحرب مباشرة ، التقط رجال المخابرات النازية ، ذلك الفيض من الاتصالات اللاسلكية ، وأدركوا أن هناك جاسوسًا بريطانيًا خطيرًا فى قلب (برلين) ، يحمل الاسم الكودى (رودلف) ، ولكنهم عجزوا تمامًا عن معرفة حقيقته ، أو تحديد هويته ، على الرغم من جهودهم المستميتة فى هذا الشأن .

والطريف ، وفقًا لما جاء فى الوثائق البريطانية ، أن (هملر) قد شكا يومًا لصديقه الصدوق (هانز ديتريتش) ، من وجود ذلك الجاسوس المجهول ، المتوغل فى المجتمع النازى على نحو مخيف ..

واندلعت الحرب فى (أوروبا) عام 1939م ، واشتعلت فى سرعة مخيفة ، وراحت تتطور على نحو مفزع ، و (هانز) أو (رودلف) يعمل بنشاط جم ، وبراعة متناهية ، امتزجا بغضب شديد من النظام

النازى ، وكراهية بلا حدود لذلك النسق العدوانى ، والأسلوب الحربى الوحشى ، الذى اتسمت به سياسته ..

وعندما بلغ الثلاثين من عمره ، كان (هانز ديتريتش) أهم جاسوس للمخابرات البريطانية ، فى (أوروبا) كلها ، وأكبر مصدر للمعلومات ، على أى مقياس ، من مقاييس عالم المخابرات ..

كان هناك خيط سميك يربطه بالبريطانيين ، الذين نشأ وترعرع بينهم والتهم حبهم مع طعامه ، منذ أن رضع لبن أمه ..

ولكن النازيين كانوا يشعرون بغضب لا محدود ،مما يفعله بهم (رودلف) هذا ، مما جعلهم يتتبعون الاتصالات اللاسلكية ، ويحصرون منطقة البث رويدًا رويدًا ، وانطلق جواسيسهم يعملون بأقصى طاقتهم وراح خبراء (الجستابو) والمخابرات يدرسون كل كلمة وكل حرف ، و ...

وأحاطت الشبهات أخيرًا بأستاذ التاريخ ، ورجل المجتمع الأول (هانز ديتريتش) ، وإن خشى الكل اتخاذ أى موقف أو قرار فى هذا الشأن ، دون الرجوع إلى صديقه الصدوق ورفيق سهراته رقم واحد (هنريش هملر) ..

ولقد أصيب (هملر) بالذهول ، عندما وضعوا أمامه ملف (هانز) ، وكل الدلائل التى تثبت أنه (رودلف) ، الذى يبحثون

عنه منذ زمن طويل ، ثم ما لبث الذهول أن تحول إلى فزع ، ثم غضب هادر جعل قائد (الجستابو) يأمر بإلقاء القبض على (هانز) فورًا ، ودون إبطاء ..

وبعد ساعة واحدة من أوامره ، اقتحم رجال (الجستابو) منزل (هانز) أشهر عازب فى (ألمانيا) كلها ، وتم إلقاء القبض عليه ، ونقله فورًا إلى مقر (الجستابو) المعروف باسم (بيت الثعالب) ..

وعن طريق جاسوس آخر ، أقل شأنًا ، طار الخبر إلى البريطانيين ، قبل حتى أن يُودَع (هانز) زنزانته الرطبة الصغيرة خافتة الضوء ، فى قبو (بيت الثعالب) ، الذى بدا ليلتها أشبه بالجحيم ..

أو أشد هولاً ..

وبأمر (هملر) ، بدأت عملية انتزاع المعلومات ، من (هانز) ، بأشرس الوسائل النازية المعروفة ، فى عالم (الجستابو) الرهيب .

وعلى الرغم من أن (هانز) يبدو وسيمًا هادئًا رقيق المشاعر ، إلا أن النازيين قد كشفوا أنه أكثر صلابة من الفولاذ نفسه ، عندما احتمل تعذيبًا رهيبًا ، وصل إلى حد إحراق أصابع قدميه ، وتهشيم عظام يده اليسرى ، بأسلوب وحشى ، دون أن يبوح بحرف واحد ..

بل على العكس تمامًا ، لقد أصر باستماتة على أنه ليس جاسوسًا للبريطانيين أو لأية جهة أخرى ..

وجن جنون رجال (الجستابو) ، وعلى رأسهم (هملر) وأصروا على مواصلة تعذيب (هانز) ، بناء على أوامر (هملر) ، الذى قرر أنه يفضل أن يموت (هانز) من فرط التعذيب ، على أن يعلن أنه قد أخطأ بشأنه ..

ولكن فجأة ، حدث ما قلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

لقد التقطت أجهزة الاعتراض اللاسلكى النازية بثًّا مباشرًا ، من داخل (برلين) ، يحمل أسلوب وتوقيع (رودلف) ..

وهنا تجمد الموقف كله ..

وأصيب (هملر) بصدمة قاسية ..

وقبل أن يفيق زعيم (الجستابو) من صدمته ، التقط أجهزته رسالة لاسلكية ثانية . وثالثة .. ورابعة ..

وكان هذا يعنى أمرًا واحدًا ..

أن كل ما توصل إليه رجال (الجستابو) خاطئ تمامًا ، وأنهم قد اتهموا وأوقعوا الرجل الخطأ ..

وبسرعة ، اتجهت الشبهات كلها نحو رجل آخر ، أصدر (هملر) قرار إلقاء القبض عليه على الفور ..

ولكن الرجل الآخر اختفى تمامًا ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ، وإن ترك فى منزله كل ما يكفى ، لتأكيد أنه هو (رودلف) المنشود ، وليس (هانز ديتريتش) ، بأى حال من الأحوال . ..

لقد ترك خلفه جهاز اتصال لاسلكى ، بريطانى الصنع ، وكتاب شفرة ، يتوافق تمامًا مع كل الرسائل الملتقطة سابقًا وحاليًا ، ومسودات لبعض البرقيات التى أرسلها من قبل ، والتى تحمل توقيع (رودلف) ..

وشعر (هملر) بأنه قد تلقى أكبر صفعة فى حياته كلها ، وراوده شعور قاس ، بأنه قد ارتكب أكبر خطأ مهنى فى تاريخه كله ، وشعر لأول مرة بالارتياح ، لأنه لم يبلغ (هتلر) بالأمر ، انتظارًا لإضافة اعتراف (هانز) ..

وبالطبع ، تم إطلاق سراح (هانز ديتريتش) دون تقديم أية توضيحات أو اعتذارات ، وتم نقله إلى أكبر مستشفى عسكرى فى (برلين) ، لعلاج حروق قدميه وتحطم كفه اليسرى ..

واستسلم (هانز) للأمر تمامًا ، حتى تماثل للشفاء ، ثم قرر أن يسافر إلى (سويسرا) ، ليقضى فترة النقاهة هناك ..

وفى (سويسرا) ، استقبله رجال المخابرات البريطانية بمنتهى اللهفة ، واتخذوا كل الإجراءات والاحتياطات اللازمة لنقله فورًا

إلى (لندن) ، التى استقبلته استقبال الأبطال ، ونقلته فورًا إلى مستشفى سرى فى الريف ، ليشرح له رجال المخابرات البريطانية كيف قاموا بالتخلص من أحد أتباع (همـلر) ، بعد أن نقلوا كل أدوات التجسس إلى منزله ، وصنعوا كل ما يلزم ، للإيحاء بأنه (رودلف) ، بل أكدوا له أن هذه كانت خطتهم الاحتياطية ، منذ عدة سنوات ، وأنهم قد أعدوا كل شىء لتنفيذها بأقصى سرعة ، فى حالة الطوارئ القصوى ..

ولأول مرة ، منذ زمن طويل ، نام (هانز) ملء جفنيه ، ليحلم بأمه ، وبابتسامتها الساحرة ، وهى تلقى نحوه بخيط ، التقطت أحد طرفيه ، وأشارت إليه أن يلتقط طرفه الآخر ..

طرفه البريطانى .. السميك ..

وابتسم (هانز) فى نومه وقد أدرك أنه قد أدى واجبه أخيرًا نحو الوطن الحقيقى ، الذى ينتمى إليه فى أعماقه ، على الرغم من جنسيته الرسمية .. الوطن الأم .

* * *

الزورق ..

بدا الطقس صحوًا منعشًا ، فى صباح ذلك اليوم ، من أبريل عام 1944م ، على غير العادة ، على الساحل الفرنسى ، الذى اعتاد الغيوم الكثيفة ، والبرودة الشديدة ، فى هذا الوقت من العام ..

وعلى الرغم من القوات النازية ، التى تحتل (فرنسا) كلها ، وتضع استحكامات شديدة على السواحل ، بعد أن وصلت الحرب العالمية الثانية إلى مرحلة شديدة الحرج ، بالنسبة لكل الأطراف ، استقل الصيادون الفرنسيون زوارقهم البسيطة ، وهم يحملون تصاريح الصيد الخاصة ، التى حصلوا عليها من السلطات النازية ، وخروجًا للبحث عن أرزاقهم ، من صيد البحر وأعماقه ..

كانت ملامحهم تحمل منتهى المقت والكراهية ، لجنود الاحتلال النازى ، شأن أى شعب ، يحكمه شعب آخر بالقوة والقهر ، ولكنهم أشاحوا بوجوههم ، وراحوا يعدون شباكهم ، من منطلق أن أسماك وكائنات البحار لا شأن لها بالاحتلال ومشكلاته وتعقيداته ، وأنها مجردً رزق ، أتاحه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكل من سعى إليه ..

ومن بعيد ، ومن خلف تحصيناتهم ، راح الجنود النازيون يتابعون حركة الصيادين فى حذر متحفز ، وأصابعهم تستعد لإطلاق النار ، ونسف كل شىء بلا رحمة ، عند أول بادرة للشك ..

كان هذا يحدث يوميًا ، منذ وقعت (فرنسا) فريسة للاحتلال النازى ، وحيث تسير الأمور على نمط واحد متصل ، و ...

ولكن فجأة ، وفى ذلك الصباح بالتحديد ، اختلفت الأمور كلها ، دون سابق إنذار ..

فبغتة ، انتبه الصيادون ، وانتبه معهم جنود النازية ، إلى زورق غريب ، يسير فى عكس اتجاه الزوارق الأخرى ..

زورق ظهر من عرض البحر ، والتيارات مع الأمواج تدفعانه نحو الشاطئ .. وعلى الفور ، وعلى الرغم من أن أحدًا لم يتبيَّن ما يحويه ذلك الزورق ، الذى بدا من بعيد خاليًا تمامًا ، انطلقت صفارات الإنذار الألمانية ، مع نداءات صارمة للصيادين ، بالعودة فورًا إلى الشاطئ ، فى نفس الوقت الذى اتجهت فيه كل فوهات البنادق والمدافع نحو الزورق .

الزورق المتواضع الصغير ..

وقبل أن تمر دقيقة واحدة ، كان زورق مطاطى ألمانى ، مزوَّد

بمحرك آلى ، يشق طريقه فى البحر ، نحوَّ الزورق الصغير ، الذى تتلاعب به الأمواج بلا هوادة ، والذى ظلّ يبدو خاليًا ، حتى بعد أن أصبح الزورق المطاطى الألمانى ، الذى يحمل خمسة ، من الجنود النازيين المسلحين ، على مسافة متر واحد منه ..

ثم فجأة ، اتضح لهم ذلك الجسم الراقد داخله ..

وما إن لمحته عيونهم ، حتى سرت فى أجسادهم رجفة عصبية ، وارتفعت فوهات مدافعهم الآلية بحركة غريزية صارمة ، نحو ذلك الشخص ، الفاقد الوعى فى قلب الزورق ..

كل هذا لأن ذلك الشخص كان يرتدى زيًا عسكريًا ..

أمريكيًا !!..

كان الموقف عجيبًا وغريبًا ، وغير متوقَّع على الإطلاق ، فى فترة شديدة الحساسية كهذه ، إلا أن جنود النازية اتخذوا الإجراءات المحددة ، فى الأمور المماثلة ، فتحفَّظوا على الزورق والجندى الفاقد الوعى ، وتم إرسال الجندى إلى أحد المستشفيات الفرنسية القريبة ؛ ليتلقَّى العلاج ، تحت حراسة مشدَّدة ، فى نفس الوقت الذى تم فيه إبلاغ وحدة (الجستابو) المحلية ، التى أبلغت بدورها مركز (الجستابو) الرئيس فى (باريس) ، والذى أبرق الأمر فورًا إلى مقر (الجستابو) فى (برلين) مباشرة ..

ولم يمض نصف الساعة ، على تلقى البرقية المشفَّرة العاجلة ، حتى كان رئيس (الجستابو) (هملر) ، يلتقى بالفوهلر (أدولف هتلر) شخصيًا ، ويطرح أمامه الأمر ، وهو يقول فى حزم ، يشفّ عن مدى أهمية الأمر وخطورته الشديدة :

ـ السؤال الآن هو : كيف وصل جندى أمريكى إلى سواحل (فرنسا) ، أيًا كان أسلوب وصوله ، فى حين لم ترصد طائراتنا وغواصاتنا أية سفن أو مدمرات أمريكية ، على مسافة مئات الأميال البحرية عن هناك؟!

انعقد حاجبا الفوهلر بدوره ، وهو يدرس الأمر فى ذهنه ، ثم لم يلبث أن عقد كفيه خلف ظهره ، وراح يتجوّل فى حجرة مكتبه لدقيقة أو يزيد ، قبل أن يلتفت إلى (هملر) ، متسائلاً :

ـ أين رسا ذلك الزورق الأمريكى بالضبط ؟!

اعتدل (هملر) ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ، وقد بدا له أنه قد انتبه إلى ما يرمى إليه الزعيم النازى ، وهو يجيب :

ـ فى منتصف المسافة تقريبًا ، بين (نورماندى) و(كاليه) .

وازداد انعقاد حاجبى الفوهلر فى شدة ..

ففى تلك المرحلة من الحرب العالمية الثانية ، كانت (ألمانيا) النازية قد اجتاحت معظم (أوروبا) ، واتجهت نحو (روسيا) ،

وكادت تكتسحها بدورها ، لولا أن منيت بهزيمة ساحقة فى (ستالينجراد) ، عام 1943م ، قامت (روسيا) بعدها بهجوم مضاد عنيف ، على طول الجبهة ، لطرد الألمان ، ومطاردتهم ، ووصلت جيوشها بالفعل إلى (بولندا) و(المجر) ، وطردت القوات النازية من (البلقان) ، فى نفس الوقت الذى انتهت فيه معركة الأطلنطى بطرد الغواصات الألمانية ، وهزيمة الأسطول البحرى النازى ، ولم يعد أمام الحلفاء ، بعد انتصارهم فى (إيطاليا) ، سوى الانقضاض على الألمان فى (فرنسا) ، وتحريرها ، واتخاذها ركيزة انطلاق ، نحو تحرير (أوروبا) كلها ..

وكان النازيون يدركون هذا جيدًا ، ويثقون تمامًا فى أن القوات المتحالفة ستسعى للغزو عن قريب ، ولكن نقطة التساؤل الوحيدة ، والمهمة جدًا كانت حول موقع الغزو ..

ومن حيث الدراسة الإستراتيجية العسكرية ، كان الطرفان يدركان أن هناك احتمالين فحسب لموقع الهبوط والغزو ..

إما (كاليه) ، فى شمال (فرنسا) ، أو (نورماندى) ، بالقرب من جنوبها ..

الحلفاء كانوا يدركون هذا ..

وكذلك الألمان ..

وكان من الضرورى أن يتحدّد موقع الغزو ، بالنسبة للنازيين ، لأن معلوماتهم تؤكّد أن الحلفاء سيجمعون كل قوتهم ، لتوجيه ضربة بالغة الشدة ، والقوة ، والعنف ..

وفى موقع واحد ..

والوسيلة الوحيدة ، لصد غزو شامل كهذا ، هى أن يتم تركيز كل القوات ، فى منطقة الغزو ..

إما فى (نورماندى) ..

أو فى (كاليه) ..

لذا كان من المحتم معرفة الجواب ، وتحديد موقع الغزو بمنتهى الدقة ، حتى لا يهاجم الحلفاء منطقة ، ضعفت فيها الاستحكامات الدفاعية؛ لأن القوة تركّزت فى منطقة أخرى ..

ولأن الفكرة نفسها جالت فى عقلى (هتلر) و(هملر) معًا ، فقد التفت الأوّل إلى الثانى ، وقال بمنتهى الصرامة :

- لابد من استجواب ذلك الجندى الأمريكى ، وانتزاع المعلومات منه .. بأى ثمن .

واعتدل (هملر) ، بحركة صارمة قوية ، ومد يده أمامه فى حزم ، وهو يهتف بالتحية النازية الديكتاتورية الشهيرة :

ـ هايل (هتلر) .

ألقاها ، ثم انطلق على الفور لتنفيذ الأمر ، وهو يدرك جيدًا ـ بمفهوم جهاز (الجستابو) الرهيب ، الذى يتولى قيادته ـ ما الذى تعنيه كلمة ، الفوهلر (بأى ثمن) ..

وعبر أجهزة الاتصال اللاسلكية ، طارت أوامر (همـلر) إلى مقر (الجستابو) فى (باريس) ، فى نفس الوقت الذى طار فيه (هملر) شخصيًا إلى هناك ..

ووفقًا لأوامره ، تم سحب ذلك الزورق ، الذى وصل به الجندى الأمريكى الفاقد الوعى ، وقام فريق من المتخصصين بفحص كل سنتيمتر فيه ..

وفى الوقت ذاته ، كان فريق من الأطباء الألمان ، على أرفع مستوى ، يقوم بفحص الجندى الأمريكى نفسه ..

وبمنتهى الدقة ..

وعندما وصل (هملر) إلى (باريس) ، كانت التقارير كلها فى انتظاره ، فى مقر (الجستابو) هناك ، مع تقرير يؤكِّد أن كل

الإجراءات يتم اتخاذها؛ لنقل الجندى الأمريكى إلى (باريس) ، حتى ولو لم يستعد وعيه .

وقرأ (هملر) التقارير ..

قرأ كل كلمة منها ..

بل كل حرف ..

كانت كلها تؤكِّد أن ذلك الجندى قد ظلَّ معرَّضًا للشمس ومياه البحر ، لأكثر من سبعة أيام ، وأنه قد تناول بعض مياه البحر المالحة ، فى فترة من الفترات ، فى محاولة يائسة لإرواء ظمئه ، إلا أن هذا تسبَّب فى إصابته بنزلة معوية ، تركت آثارها الواضحة فى ذلك الزورق ، الذى يحمل على جانبه اسم مدمرة أمريكية ، أغرقتها الغواصات الألمانية ، منذ ما يزيد عن تسعة أيام كاملة ..

ثم أن الجندى نفسه يعانى من جفاف شديد ، وتسلخات عنيفة ، وأنه قد فقد وعيه ، من شدة الألم والجوع والعطش ..

وبشىء من الذكاء ، كان من السهل استنتاج أن ذلك الجندى ، الذى تحمل السلسلة المعدنية المعلَّقة فى عنقه ، اسم (جون سميث) ، ورقم وحدة بحرية أمريكية معروفة ، كان أحد أفراد طاقم المدمرة ، التى قصفتها وأغرقتها الغواصات الألمانية ، وأنه أحد

الناجين من الغرق ، فى أحد زوارق النجاة الخاصة بالمدمرة ، وأن طول بقائه فى البحر ، هو السبب فى كل ما أصابه ، حتى دفعته التيارات البحرية إلى شاطئ (فرنسا) ..

ولأن (هملر) رجل شديد الشكوك بطبعه ، فقد راجع شخصيًا كل البيانات ، الواردة فى التقارير ، ودفع المخابرات الألمانية إلى الاتصال بأحد أهم جواسيسها ، فى صفوف الجيش الأمريكى ، لمراجعة بيانات الهوية المعدنية للجندى (جون سميث) ، وبالتأكُّد من أنه بالفعل أحد أفراد طاقم تلك المدمرة الأمريكية الغارقة ..

وأيَّد الجاسوس الألمانى كل البيانات ..

وكل المعلومات ..

بل ولقد استعان (هملر) بطاقم من خبراء الملاحة البحرية ، لدراسة مسار التيارات المعتادة ، فى منطقة غرق المدمرة الأمريكية ، والتأكُّد من أنه من المحتمل أن تدفع زورق الجندى الأمريكى إلى شاطئ (فرنسا) أم لا ..

ولم يستطع خبراء الملاحة أبدًا أن يجزموا بإمكانية حدوث هذا ، كما لم يمكنهم استبعاد حدوثه فى الوقت ذاته ، نظرًا لأنهم يجهلون تمامًا المسار ، الذى اتخذه الجندى الأمريكى بزورق

النجاة ، قبل أن يفقد وعيه ، ويترك زورقه للتيارات البحرية ، تعبث به كيفما تشاء ..

باختصار ، كانت نقطة الشك الوحيدة فى الأمر كله ، ممكنة ومحتملة ، إلى حد ما ..

لذا فقد اقتنع (هملر) وثعالبه بالفكرة كلها ، وأصبح عليهم انتظار وصول ذلك الجندى فى (باريس) ، لاستجوابه بوسائلهم الخاصة ، حتى لو اضطرهم الأمر إلى بتر أطرافه ، واحدًا بعد الآخر ، للوصول إلى الحقيقة فى أمره ..

لقد بدا لهم هذا مسألة حياة أو موت ، و ...

ووصلت إشارة لاسلكية مشفَّرة فجأة ، تقول أن الجندى الأمريكى قد استعاد وعيه فى المستشفى ، وأن أحد ضباط (الجستابو) يقوم باستجوابه هناك ، على الرغم من اعتراض الأطباء ، وتأكيدهم بأن حالته لم تسمح بعد بالاستجواب ..

وعلى الفور ، أبرق (هملر) إلى ضابط (الجستابو) هناك ، بكل الأسئلة التى ينبغى أن يطرحها على الجندى الأمريكى ، ثم أمره بألا يؤخر هذا إرسال الجندى إلى (باريس) ، حتى لو اضطره الأمر لاستجوابه فى القطار ، الذى سيحمله إلى هناك ..

ولم يمض نصف الساعة ، حتى وصلت برقية عاجلة ، من ضابط (الجستابو) إلى المقر الرئيس فى (باريس) ..

برقية تحمل عبارة واحدة ، قالها الجندى الأمريكى ، ورأى ضابط (الجستابو) النازى أنها تحوى كل ما ينشدون معرفته ، وأنها لا تحتمل الانتظار ، حتى يصل الأمريكى إلى (باريس) ..

فأثناء سؤاله عن سبب وجوده داخل زورق صغير ، فى بحر (المانش) ، بدت كلمات الجندى الأمريكى مضطربة ، وأفكاره غير واضحة ، ولكنه أشار إلى قصف مدمرته ، بواسطة غواصة ألمانية ، عندما كان هو ورفاقه يتلقون بعض التعليمات والتدريبات ، استعدادًا للهبوط ، بعد شهر واحد ، فى (كاليه) ..

والكلمة الأخيرة كانت أخطر كلمة ، ينتظرها النازيون ..

(كاليه) ..

وعندما قرأ (هملر) تلك الكلمة ، فى برقية ضابط (الجستابو) الفرعى ، تألقت عيناه ، وقال فى حزم وحماس :

ـ أرسلوا نسخة من هذه البرقية إلى الفوهلر فى (برلين) فورًا ..

ونفذ ضباط (الجستابو) تعليماته على الفور...

ووصلت البرقية الشفرية العاجلة إلى (أدولف هتلر) ، قبل حتى إن يتحرك القطار ، الذى يحمل ذلك الجندى الأمريكى ، فى طريقه إلى (باريس) ..

وقرأ الفوهلر البرقية ، وتألقت عيناه بدوره ، وهو يقول فى صرامة ، وسط قادته وجنرالاته :

ـ كنت أتوقع هذا ..

ودون أن يضيع دقيقة واحدة ، بدأ يلقى تعليماته الصارمة ، بتركيز الدفاعات الألمانية كلها فى (كاليه) ، استعدادًا لصد الغزو ..

ولم يدر (هتلر) لحظتها ، أن تعليماته بحذافيرها ، قد وصلت إلى المخابرات البريطانية ، بعد ساعة واحدة من إلقائه إياها ..

وفى مقر المخابرات البريطانية فى (لندن) ، ارتسمت ابتسامة ظافرة ، على شفتى رجل المخابرات المخضرم سير (سنكلير) ، وهو يطالع أوامر (هتلر) ، وقال برصانته المعهودة :

ـ عظيم .. لقد فعلوا ما توقعناه منهم بالضبط .. سيركزون دفاعاتهم فى (كاليه) ..

ثم التفت إلى أحد الرجال ، مستطردًا فى ارتياح :

ـ من الواضح أن جلسات الأشعة فوق البنفسجية قد تركت

أثرها ، على جسد المتطوِّع الأمريكى ، بحيث اقتنع أطباؤهم تمامًا ، أنه هناك منذ غرق المدمرة ..

غمغم أحد رجال المخابرات البريطانية :

ـ الواقع أنها كانت خطة جريئة أكثر مما ينبغى ، يا سير (سنكلير) .

وافقه (سنكلير) بإيماءة من رأسه ، ثم قال بنفس الهدوء والرصانة :

ـ هذه هى قواعد النجاح ، فى عالم المخابرات .. أفعل دومًا ما لا يتوقعونه ، أو ما يبدو لهم جنونيًا ، فلا يشكون فيما أمامهم أبدًا .

ثم لوَّح بالبرقية ، الواردة من (برلين) ، مستطردًا :

ـ وهذا هو الدليل .

ولم ينطق الرجال بحرف واحد ، فخطة سير (سنكلير) ، التى بدت لهم جنونية قبل عدة أيام ، حققت نجاحًا منقطع النظير ، عندما تم تطبيقها عمليًا ، مع المتطوِّع الأمريكى (جون سميث) ، الذى تم تعريضه للأشعة بشكل مكثف ، مع حقنه بعدد من العقاقير ، القادرة على خداع الأطباء الألمان ، وحتى الفرنسيين ، ثم نقله

بغوَّاصة بريطانية بعدها ، إلى حيث هبط مع زورقه ، متظاهرًا بفقدان الوعى .

ولكن أبرع لحظات (جون سميث) ، الممثل المسرحى المغمور ، كانت عندما تظاهر باستعادته الوعى ، وبارتباك أفكاره وكلماته ، وهو يروى تلك القصة الزائفة ، التى يحفظها عن ظهر قلب ، من تدريبات غزو (كاليه) ، وغرق المدمرة ، وضياعه مع زورق الإنقاذ ..

حتى الزورق نفسه ، قام فريق من الخبراء البريطانيين بإعداده ، بحيث يتوافق تمامًا مع رواية (جون سميث) الملفقة ..

ولقد تم نقل (سميث) بالفعل إلى (باريس) ، حيث استجوبه (هملر) بنفسه ، وسمع منه الرواية نفسها ، التى توافقت مع معلومات واردة من عدة جهات أخرى ..

وعاد (هملر) إلى (برلين) ، دون أن تكون لديه ذرة واحدة من الشك ، فى أن الغزو سيتم فى (كاليه) ، وليس فى (نورماندى) ..

أما (جون سميث) ، فقد قضى بعض الوقت فى مستشفى صغير فى (باريس) ، ثم تم نقله بعد ذلك إلى أحد المعتقلات النازية ، فى أطراف (فرنسا) ..

وفى ثقة وارتياح ، أغلق النازيون ذلك الملف ، الذى أطلقوا عليه اسم (عملية رجل الزورق) ، وتصوَّروا أن الأمر قد انتهى ..

ولكن الواقع أنه قد بدأ ..

ففى يونيو 1944م ، وبعد أقل من شهرين ، هبطت قوات الحلفاء فى (نورماندى) ، وخاضت معركة طاحنة رهيبة ، انتهت بتحرير (فرنسا) ، واتخاذها ركيزة بعدها ، للانطلاق إلى (أوروبا) كلها ، ومطاردة القوات الألمانية النازية ، حتى قلب (برلين) نفسها ..

واندحر الرايخ الثالث ، وانهزمت (ألمانيا) النازية ، وانتحر (هتلر) و(هملر) ، وابتسم (جون سميث) ابتسامة كبيرة ، وهو يشاهد احتفالات النصر ، فى منزله فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وذهنه يستعيد بكل فخر تفاصيل تلك العملية ، التى جعلته أحد صناع النصر ..

عملية الزورق ..

زورق الخداع .. الناجح .

* * *

الضربة الكبرى ..

سرت نيران الحرب العالمية الثانية فى (أوروبا) ، سريان النار فى الهشيم ، وراح الجيش النازى يجتاح كل ما أمامه ، ويلتهم الدول التى تواجهه التهامًا ، وعينه على الهدف الأول ، الذى وضعه (أدولف هتلر) نصب عينيه منذ البداية ..

(إنجلترا) .. بل الإمبراطورية البريطانية بأكملها ..

ولقد بذل الإنجليز جهدًا مضنيًا ، لحماية أراضيهم من الغزو النازى ، واحتملوا أهوالاً رهيبة ، والطائرات الألمانية تقصف مدنهم ليلاً ونهارًا ، وأخبار انتصارات الرايخ الثالث ملء الأسماع والأبصار ، والبلدان تتساقط واحدة بعد الأخرى ، ويرتفع فوقها علم النازية بصليبه المعقوف ، الذى صار رمزًا للقهر والغطرسة والشراسة والظلم .

وكوسيلة لتخفيف الضغط عن جبهتها ، وكسب بعض الوقت لالتقاط الأنفاس ، دبرت (بريطانيا) ، من خلال مخابراتها العريقة ، خطة شيطانية متقنة ، كان من نتاجها أن انزرعت بذور الشك فى قلب وعقل فوهلر النازية ، تجاه الجبهة الروسية ، فاتخذ قراره المفاجئ المذهل بإعلان الحرب على (روسيا) ، وشن ذلك الهجوم الشامل الرهيب ، الذى عرف باسم عملية (بارباروسا)

أو (ذو اللحية الحمراء) التى اجتاحت (روسيا) ، وكادت تلتهمها ، على نحو أثار ذعر وذهول العالم كله ..

وفى (دوانتج ستريت) ، مقر الحكم البريطانى ، وقف مدير المخابرات يبتسم فى ظفر ، أمام رئيس الوزراء قائلاً :

ـ خطتنا نجحت يا سيادة رئيس الوزراء .. النازيون انشغلوا بحق فى الجبهة الروسية ، وخففوا الضغط العنيف على جبهتنا ، ونحن نعمل بقصارى جهدنا الآن ، لاستعادة قوتنا ، وإعادة بناء قواتنا ، و ...

قاطعه رئيس الوزراء البريطانى فى صرامة باردة ، وهو ينفث دخان سيجاره فى قوة :

ـ هذا لا يكفى .

اتسعت عينا مدير المخابرات فى دهشة ، وهو يكرر :

ـ لا يكفى ؟! لقد أشعلنا حربًا فى الجبهة الروسية ؟!

قال رئيس الوزراء ، فى صرامة أكثر :

ـ لا يكفى يا رجل .. لا يكفى ..

التقط مدير المخابرات نفسًا عميقًا ، قبل أن يسأله فى حزم :

ـ فيم تفكر بالضبط يا سيادة رئيس الوزراء ؟!

برقت عينا رئيس الوزراء البريطانى ، بذلك الذكاء الذى اشتهر به ، وهو يجيب بكلمة حازمة ، حاسمة ، صارمة ، مقتضبة :

ـ (أمريكا) .

تردد مدير المخابرات لحظة ، ربما ليتأكد من أنه قد فهم ما يقصده رئيس الوزراء بكلمته هذه ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ (أمريكا) مازالت ترفض توريط نفسها فى حرب مباشرة ، والأمريكيون يرون أن كل ما يمكنهم أن يلعبوه هو دور الممول بالعتاد والسلاح ، ولقد أرسلوا إلينا أخيرًا بعض طياريهم ، لمشاركة قواتنا ، فى مواجهاتها الجوية مع سلاح الطيران النازى ، و ...

قاطعه رئيس الوزراء فى صرامة :

ـ هراء .. الأمريكيون أرسلوا طياريهم لاكتساب خبرة ومهارة طيارينا ، فى الاشتباك الجوى المباشر ، وليس لمساعدتنا كما تتصور .

التقط مدير المخابرات نفسًا عميقًا آخر ، قبل أن يقول :

ـ الجهود الدبلوماسية ، التى استخدمتم فيها أقصى طاقاتكم ، لم تنجح قط فى إقناع الأمريكيين بخوض الحرب ، ومن الناحية المنطقية ، لا يمكنها إقناع أية دولة فى العالم بدفع رجالها وشبابها إلى حرب طاحنة ، دون مبررات غاية فى القوة ، تجعل هذا حتميًا .

انعقد حاجبا رئيس الوزراء البريطانى وراح ينفث دخان سيجاره فى قوة ، وبدت عليه علامات تفكير عميق ، وتراجع فى مقعده ببطء ، على نحو جعل مدير المخابرات يلتزم الصمت التام ، ويكتفى بالتطلع إليه ، فى انتظار ما سيسفر عنه عمل ذلك العقل الجبار ، الذى اشتهر بأنه لا يرتبط ، ولو بشعرة واحدة ، بالقلب الذى يمده بالدماء ، دون العواطف أو المشاعر ..

ولقد استغرق صمت رئيس الوزراء البريطانى ربع ساعة كاملة ، قبل أن يرفع عينيه بغتة لمدير المخابرات ، قائلاً فى حزم :

ـ فنجعل هذا حتميًا إذن .

اندفع كل ترقب مدير المخابرات عبر شفتيه ، على هيئة هتاف قوى ، وهو يقول فى لهفة :

ـ كيف ؟!

اعتدل رئيس الوزراء وهو يقول فى صرامة حاسمة ، ودخان سيجاره يصنع فوق رأسه سحابة تكاد من فرط كثافتها تطلق برقًا فى سماء الحجرة :

ـ سنوقف الجهود الدبلوماسية تمامًا ، وسنلجأ إلى أسلوب آخر ، كفيل بإقناع الأمريكيين بشن حرب شعواء ، ليس على النازيين فحسب ، ولكن على دول المحور كلها .

استعاد مدير المخابرات حذره ، وهو يتساءل :

ـ وكيف يمكننا الوصول إلى نتيجة كهذه ؟!

ـ هذه مهمتك .

ثم نهض من خلف مكتبه ، وتابع بنفس الصرامة ، التى امتزج بها حزمه الشهير :

ـ القاعدة الوحيدة ، التى سنلتزم بها ، هى أن نفكر فى مصلحة (بريطانيا) وحدها ، دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى ..

ووضع يده على كتف مدير المخابرات ، مستطردًا :

ـ الحروب لا قلب لها ولا مشاعر .. ولست أبالى بأن يفقد الأمريكيون نصف شعبهم ، وربع قواتهم ، لو أن هذا سيدفع من تبقى منهم لخوض الحرب إلى جوارنا .

شعر مدير المخابرات بالقلق الشديد ، وهو يسأله :

ـ سيادة رئيس الوزراء .. ما الذى يدور فى ذهنك بالضبط ؟!

وثب شبح ابتسامة إلى شفتى رئيس الوزراء البريطانى ، وهو يرفع يده عن كتف مدير المخابرات ، ويشير بكفيه ، مجيبًا :

ـ ضربة يا رجل .. ضربة كبرى ، ضربة تكون من القوة والفداحة ، بحيث لا تملك (أمريكا) أمامها سوى إعلان الحرب .

اتسعت عينا مدير المخابرات ، وهو يهتف :

ـ رباه! هل تعتقد أننا ..

قاطعه رئيس الوزراء البريطانى فى صرامة حازمة :

ـ إننا لسنا أغبياء لنمس أصدقاءنا الأمريكيين .

ثم غمز بعينه ، مستطردًا بخبث :

ـ ولكننا من الذكاء ، بحيث ندفع الآخرين للقيام بما نريد تألقت عينا مدير المخابرات ، وهو يقول فى اقتضاب يفوح بالإعجاب والانبهار :

ـ فهمت .

ولأسبوع كامل بعدها ، ومن خلال اجتماعات بلغت فى مجموعها ستًا وعشرين ساعة ، بين مدير المخابرات ورئيس الوزراء البريطانى ، بدأ تنفيذ أكبر وأخطر خطة قامت بها المخابرات البريطانية ، فى تاريخ الحرب العالمية الثانية كله ..

خطة الضربة الكبرى ..

وكانت البداية عبر جاسوس يعمل لحساب (اليابان) ، فى قلب الولايات المتحدة الأمريكية .

جاسوس علم البريطانيون بأمره منذ زمن ، ولكنهم لم يبلغوا الأمريكيين ، وإنما احتفظوا بالسر ، للاستفادة منه فى الوقت المناسب ..

وهاهو ذا الوقت المناسب قد حان ..

وبلعبة عبقرية ، تم تسريب شفرة خاصة إلى ذلك الجاسوس اليابانى ، باعتبارها الشفرة السرية الجديدة ، التى تستخدمها القيادة الأمريكية للتراسل مع القوات البحرية ..

وخلال ثلاثة أيام فحسب ، تأكد البريطانيون من أن تلك الشفرة قد بلغت المخابرات اليابانية فى (طوكيو) التى ستستخدمها حتمًا ، من خلال عمليات التنصت على الاتصالات اللاسلكية الأمريكية والبريطانية ..

وهنا حان دور الجزء الأكثر أهمية وخطورة فى الخطة ..

فى البداية ، راح البريطانيون يبثون رسائل وهمية ، باستخدام تلك الشفرة الخاصة ، باعتبارها مراسلات تقليدية ، بين سفن وغواصات الأسطول الأمريكى ، وقيادته العامة .

وكإجراء تقليدى ، راح اليابانيون يترجمون كل تلك الاتصالات ويصنعون منها تقارير وملفات ضخمة ، وضعت بكل تفاصيلها أمام القيادة العسكرية والحربية ، التى راحت تتابع كل هذا باهتمام محدود ، باعتبار أن (أمريكا) ترفض بشدة التورط فى حرب مباشرة .

ثم فجأة ، بدأت تلك الاتصالات اللاسلكية المشفرة تتخذ طابعًا آخر غريبًا ومخيفًا ..

فالاتصالات بدأت توحى بأن (أمريكا) قد قررت التخلى عن فكرة الحياد هذه وقررت أن تخوض الحرب ..

وكان من الطبيعى أن يوضع هذا التطور المخيف أمام القيادة العسكرية والسياسية فى (طوكيو) ..

بل وأمام الإمبراطور اليابانى نفسه .

واجتمع اليابانيون لدراسة هذا التطور الرهيب .

فى البداية تساءل الإمبراطور :

ـ هل تعتقدون أن الأمريكيين سيشنون الحرب بالفعل ؟!

أجابه وزير الحرب فى حزم :

ـ البريطانيون يبذلون جهودًا مضنية ، منذ فترة طويلة لإقناع الأمريكيين بخوض الحرب ، باعتبارهم قوة لا يستهان بها ، بإمكانها أن تميل بكفة القتال إلى جانبهم .

قال رئيس الوزراء فى سرعة :

ـ ولكن الأمريكيين يرفضون هذا بإصرار .

قال وزير الحرب فى صرامة :

ـ لن يواصلوا الرفض للأبد .. واتصالاتهم هذه توحى بهذا .

تدخل الإمبراطور ، قائلاً :

ـ الاتصالات لا تحسم الأمر تمامًا ، ولا تحدد الهدف .

شد وزير الحرب قامته ، وهو يقول فى حزم :

ـ لن يضيرنا أن نستعد .. احتياطيًا على الأقل .

غمغم الإمبراطور :

ـ أمر معقول .. ما رأيك يا رئيس الوزراء ؟!

تردد رئيس الوزراء اليابانى لحظة ، قبل أن يجيب فى حذر :

ـ لن يضيرنا هذا يا مولاى .

وهكذا بدأت (اليابان) استعدادها للحرب فى صمت وهدوء ، وخبراؤها مازالوا يتابعون تلك الاتصالات اللاسلكية الوهمية ، التى يواصل البريطانيون بثها ، باعتبارها أمريكية صرفة ، وباستخدام الشفرة الزائفة ذاتها .

ووفقًا لخطتهم ، راح البريطانيون يرفعون فى حرارة الاتصالات ، ثم انتقلوا إلى مرحلة تحديد الأهداف المباشرة .

وفى هذه المرة كان من المستحيل أن تصبر (اليابان) على الأمر ، فالاتصالات كانت تشير ، فى وضوح تام ، إلى أن الأسطول الأمريكى يستعد لتوجيه ضربة كبرى قوية للأسطول اليابانى ، والجزر اليابانية .

وجن جنون القيادة اليابانية ، وبدأت على الفور اجتماعات مكثفة ، لوضع خطة عاجلة متقنة ، لتوجيه ضربة مسبقة للأسطول الأمريكى ، قبل أن يتحرك لتوجيه ضربته المزعومة (لليابان) .

فى تلك الفترة كانت (أمريكا) تعيش حالة استقرار واسترخاء ، متصورة أن شبح الحرب بعيد عنها ، بعد السماء عن الأرض ، وبالذات هناك ، فى أرخبيل (هاواى) ..

فهناك فى ميناء (بيرل هاربور) فى يوم الأحد السابع من ديسمبر 1941م ، كان الكل يستمتع بالشمس الدافئة ، والهدوء يسود المكان باعتباره يوم إجازة رسمية ، حتى إن قائد الأسطول الأمريكى هناك ذهب للعب الجولف ، فى حين انشغل بحارة سفن الأسطول وبالذات السفينة (أريزونا) ، والعملاقة (وست فرجينيا) ، و(بنسلفانيا) ، و(الكاسين) فى طهى الطعام ، وتنظيف السطح والقمرات .

كل شىء كان يوحى بأنه يوم عادى من أيام أسطول قوى ، لم يلمح شبح الحرب ، أو يتصور قدومه يومًا ..

ولكن ذلك الهدوء كان يخفى خلفه كارثة ..

ففى السماء ، كان هناك جيش طائر ، بقيادة اليابانى (ميتسوو فوشيدا) يحلق باتجاه الميناء ..

جيش يتكون من (143) طائرة منها (43) مقاتلة من طراز (زيكى) و(51) قاذفة انقضاضية من طراز (فال) و(49) طائرة من طراز (كاتى) مزودة بطوربيدات بحرية حديثة .

وبالنسبة لليابانيين فقد كانوا يتصورون أن معلوماتهم صحيحة ، وأن الأسطول الأمريكى مستعد للقتال ، لذا فقد توقعوا خسارة حاملتى طائرات ، وخمسين من المائة من الطائرات فى الهجوم ، واعتبروا أن هذا ليس بالثمن الباهظ ، فى سبيل نجاح ضربة كهذه .

وفى السابعة والنصف صباحًا ، وبينما يسترخى الأمريكيون تمامًا ، بدأ الهجوم اليابانى العنيف .

انقضَّت الطائرات اليابانية بغتة على الأسطول الأمريكى ، وانهالت قنابلها وصواريخها على سفن الأسطول وجنوده الذاهلين ، دون رحمة أو شفقة ، لتنسف وتسحق ، وتقتل ، وتغرق كل شىء ..

وأصيب الكل بذهول مذعور ، مع أمر غير متوقع على الإطلاق كهذا ، ومع عنف ووحشية وشراسة الضربة ..

وانطلقت صفارات الإنذار فى الميناء وفى (فورت أيلاند) كلها ، واشتعلت النيران فى كل مكان ، وراحت الطائرات اليابانية تدك كل ما أمامها دون تمييز ، لكنها انتقت بالطبع كل الأهداف العسكرية ..

وبالذات المطارات ..

وشقت الطوربيدات اليابانية السفينة (وست فيرجينيا) وأشعلت النيران فى (نيفادا) ، وأغرقت (كاليفورنيا) ودمرت الطائرات وقاذفات القنابل اليابانية المطار الحربى الأمريكى ، والمبانى العسكرية ، وأحد مبانى المستشفى العسكرى .

وبلغ عدد القتلى والمصابين حدًا رهيبًا مخيفًا ، فاق كل التوقعات ، بحر من الدماء أغرق الميناء كله ..

ولم يكتف اليابانيون بهذا ، ففى الثامنة وأربعين دقيقة ، جاءت موجة الهجوم الثانية ، المكون من 171 طائرة بقيادة (شيمازاكى) ..

وكانت مهمتها أكثر صعوبة ، لأن الدخان كان يغطى كل شىء ، ويحجب الرؤية تمامًا ، ثم إنها لم تجد ما تدمره بمعنى الكلمة ..

ومع انهيار وانسحاق الأسطول الأمريكى ، عادت الطائرات اليابانية إلى حاملاتها ، وحاول (فوشيدا) إقناع الجنرال (ناجومى) قائد العملية ، بالقيام بموجة هجوم ثالثة ، وخاصة أنه لم يفقد سوى ثلاثين طائرة فحسب ، أى أقل من خمس الخسائر المتوقعة ، ولكن (ناجومى) رأى أن الانتصار كان ساحقًا بالفعل ، وليس هناك ما يبرر القيام بمخاطرة جديدة ، لذا فقد أصدر أوامره بالعودة فورًا إلى (اليابان) .

فى الوقت ذاته كانت المدمرات اليابانية تقصف (ميداوى) و(هونج كونج) وتقوم بعمليات إنزال ناجحة فى (سيام) و(ماليزيا) و(الفلبين) ..

وعندما بلغت أخبار الهجوم مسامع رئيس الوزراء البريطانى ، من خلال مدير المخابرات تألقت عينا هذا الأخير بشدة وابتسم ابتسامة ظافرة واسعة هاتفًا :

ـ الآن ضَمِنًا أن تعلن (أمريكا) الحرب ..

وكان على حق ففى (أمريكا) سادت موجة عمياء من الغضب انتهت بإعلان الحرب ..

ولم يدرك الأمريكيون ، ولم يتصوروا أيضًا ، وهم يدفعون أبناءهم وشبابهم إلى الحرب ، أنهم إنما يؤدون دورًا رسمته بخبث وشر ، ودون ذرة واحدة من الرحمة ، مخابرات دولة يفترض أنها حليفة ، وأن الضربة التى تلقتها إنما جاءت فعليًا من أقرب الناس إليها ..

الضربة الكبرى ..

الفاصلة .

* * *

العميلة السويسرية ..

منذ سطع نجم (أدولف هتلر) فى (ألمانيا) ، عقب فوزه الساحق فى انتخابات الحزب النازى ، عام 1929م ، بدأ صيته ينتشر ، فى (أوروبا) كلها ، وبخاصة مع خطبه الحماسية ، التى التهبت بها عقول وقلوب الشباب ليس فى دولته وحدها ، ولكن فى عدة دول أوروبية محيطة ، على نحو أثار الكثير من القلق السياسى والعسكرى ، خاصة أن المحللين قد تنبئوا بأن شخصًا مثله ، لا يمكن أن يهدأ له بال ، قبل يبسط نفوذه على رقعة واسعة فى (أوروبا) ولابد وأن يسعى حتمًا للخروج من معاهدة (فرساى) التى أذلت ناصية (ألمانيا) وسحقت روحها المعنوية ، إثر هزيمتها المؤلمة ، فى الحرب العالمية الأولى ..

وفى عام 1932م ، تقدم (هتلر) لترشيح نفسه ، رئيسًا مقبلاً لدولته ، إلا أنه وعلى الرغم من أسلوبه الدعائى الجديد ، لم ينجح فى هزيمة (هندنبورج) الذى صار رئيسًا للبلاد ، وفى نفس الوقت الذى حصل فيه حزب (هتلر) النازى ، على أكبر عدد من مقاعد (الرايشستاج) .

ووفقًا للنظام الدستورى والنيابى ، كان من المحتم على (هندنبورج) أن يمنح (هتلر) رياسة الوزراء ، على الرغم من اختلافه التام معه ، شخصيًا وأيديولوجيًا .

ومنذ اللحظة الأولى ، التى استقر فيها (هتلر) على مقعد رياسة الوزراء بدأ سياسة قمعية مخيفة ، واتهم الشيوعيين ، ورجال الأعمال اليهود ، بأنهم المسئولون عن هزيمة (ألمانيا) ، فى الحرب العالمية الأولى ، وبدأ فى اضطهادهم واعتقالهم بلارحمة ، وأنشأ السجون والمعتقلات ، وصنع جهاز (الجستابو) (وجهاز إس . دى) بقيادة الجنرال (هملر) ، وأطلق أبواق دعايته ، من خلال وزارة الدعاية ، التى رأسها (جوزيف جوبلز) ، أشهر من تعامل مع كل أنواع الدعايات والشائعات فى التاريخ ..

ثم بدأ يبنى جيشه ، ويدعم قوته ، على نحو لم تعرفه (أوروبا) من قبل قط .

وفى المصانع الألمانية ، خرجت عشرات الأسلحة والمعدات .

دبابات .. طائرات .. مدرعات .. أسلحة خفيفة .. ذخائر ..

وتكونت قوات العاصفة ، التى استعد شبابها للموت فى سبيل (هتلر) ، قبل أن يكون هذا فى سبيل (ألمانيا) .

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يطيح (هتلر) بمنافسة (هندنبورج) ، فى انتخابات الرياسة التالية ، وأن يصبح رئيس (ألمانيا) ، ورئيس وزرائها ، وقلبها النابض بالحماس والقوة أيضًا .

والعجيب أن (أوروبا) كلها قد رأت هذا وتابعته ..

ولم يتحرك أحد ..

الكل اكتفى بالمراقبة والمتابعة ، فى حذر متوتر ، مع تساؤل كبير ، عما يمكن أن يقدم عليه (هتلر) ، فى المرحلة التالية !!

وكان من الطبيعى أن يروق هذا للزعيم (أدولف هتلر) ، وأن يتوافق مع هواه ، ومع رغبته فى بناء قوته وتنظيم جيوشه التى راحت تنمو .. وتنمو .. وتنمو ..

ولكن فجأة ، وفى ذروة ما يحدث ، وبينما يبذل الكل قصارى طاقتهم ، لبناء (ألمانيا النازية) ، والرايخ الثالث القوى ، اقتحم (هملر) مكتب الفوهلر ، بكل توتر الدنيا ، وهو يلوح بكتاب فى يده ، هاتفًا :

ـ كارثة أيها الفوهلر العظيم .. كارثة .

انعقد حاجبا (هتلر) فى شدة ، وارتسم على وجهه كل توتر الدنيا ، وهو يقول :

ـ أية كارثة يا جنرال ؟!

وضع قائد (الجستابو) الكتاب ، أمام الفوهلر ، وهو يقول فى عصبية :

ـ صحفى سويسرى ، كشف كل تنظيمات جيوشنا .

هتف (هتلر) ، وجسده ينتفض فى عنف .

ـ كشف ماذا ؟!

تابع (هملر) بكل غضب الدنيا :

ـ ليس هذا فحسب ، وإنما نشر كل التفاصيل فى كتاب ، طرحه للبيع للعامة ،فى المكتبات ودور الصحف .

ولقد كتب (هملر) فى مذكراته ، أنه لم ير (هتلر) أشد انزعاجًا ، فى تلك الفترة ، منه عندما سمع هذا الخبر ، حتى إن عينيه قد اتسعتا عن آخرهما ، وبدا أشبه بالشارد المصدوم ، وهو يحدق فى الفراغ لبعض الوقت ، قبل أن يتساءل بصوت مختنق ، على الرغم من محاولته الحفاظ على صرامته المعهودة :

ـ وكيف حصل على كل هذه المعلومات ؟!

اعتدل (هملر) وهزَّ رأسه فى توتر ، قائلاً :

ـ لا أحد يدرى !!

تراجع (هتلر) فى مقعده ببطء ، وظلَّ يحدق فى وجه (هملر) بضع لحظات ، قبل أن تستعيد ملامحه صرامتها الحقيقية ، التى بدت واضحة فى صوته ، وهو يضرب سطح المكتب براحته ، هاتفًا :

ـ أريد ذلك الصحفى يا (هملر) .. أريده هنا .. بأسرع وسيلة ممكنة .. هل تفهم ؟!

شد (هملر) قامته ، وأجاب بمنتهى الحزم والحسم .

ـ أفهم أيها الفوهلر .. أفهم تمامًا .

وباعتباره رجل (جستابو) ومخابرات محنكًا ، بدأ (هملر) تحركاته ، فور مغادرته مكتب الزعيم (أدولف هتلر) مباشرة .

وبعد مرور ساعة واحدة ، كان قد أصدر أوامره بالقيام بعمليتين سويسريتين ، فى آن واحد ..

العملية الأولى ، التى أطلق عليها اسم (صائد الفئران) ، كانت تقتصر على جمع كل نسخ كتاب الصحفى (بروتولد جاكوب) ، من أسواق (سويسرا) و(أوروبا) ، على نحو دقيق مدروس ، وبأسرع وسيلة ممكنة ..

أما العملية الثانية ، والتى حملت اسم (العملية السويسرية) ، فكانت تخص الصحفى (بروتولد جاكوب) نفسه ..

كان الهدف منها معرفة الوسيلة ، التى جمع بها كل ما لديه من معلومات ، عن الجيش النازى ، ومواقعه ، وتفاصيله الدقيقة ..

ووفقًا لخطة (هملر) ، لم تكن هناك سوى وسيلة واحدة ، للحصول على الحقائق الكاملة ، من الصحفى السويسرى ألا وهى استجوابه بالوسائل الألمانية النازية ، المعروفة فى ذلك الوقت .. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بوسيلة واحدة ..

إحضار الصحفى إلى (ألمانيا) ..

أو بمعنى أدق .. اختطافه ..

وعلى الرغم من أن (سويسرا) دولة محايدة وظلت على حيادها ، قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية ، لم يتردد (أدولف هتلر) لحظة واحدة فى الموافقة على تنفيذ العملية السويسرية وفورًا ..

وفى مساء اليوم نفسه ، سافر اثنان من رجال جهاز المخابرات النازى (إس . دى) ، إلى (سويسرا) ، وهما يحملان حقيبة ضخمة ، حوت بعض الملابس والمعدات القليلة لكليهما ..

والواقع أن علمية اختطاف (جاكوب) هذه لم تمثل أية صعوبة ، بالنسبة لاثنين من رجال (إس . دى) المدربين .

فالصحفى لم يكن يتوقع ، أو حتى يتخيل عملية اختطاف ، فى قلب بلد محايد رسميًا وفعليًا مثل (سويسرا) ، ثم إن الزمن لم يكن زمن حرب .. من الناحية الرسمية على الأقل ..

لذا ، فلم تغرب شمس اليوم التالى ، حتى كان (جاكوب) فى طريقه إلى (ألمانيا) داخل تلك الحقيبة الكبيرة . وقبل أن تشرق الشمس مرة أخرى ، كان يرتجف ، بكل رعب الدنيا ، داخل مقر المخابرات الألمانية ، المعروف باسم (بيت الثعالب) ، فى مواجهة أخطر رجل فى الرايخ الثالث ، بعد (أدولف هتلر) مباشرة .

وفى صرامة وحشية ، سأله (هملر) :

- كيف حصلت على تلك المعلومات ، التى نشرتها فى كتابك ؟!

حدق فيه (جاكوب) بدهشة مذعورة ، وهو يتساءل :

- أى كتاب ؟!

لم يكد السؤال يتجاوز شفتيه ، حتى هوت لكمة قوية على أنفه ، وثانية على فكه ، مع ثلاث صفعات متوالية على وجهه ، جعلت رأسه يدور فى عنف ، والدماء تغمر وجهه كله ، فهتف وهو يبصق الدم ، من بين أسنانه المحطمة :

- أى كتاب ؟! . أقسم إننى أتساءل بصدق .

زمجر (هملر) بغضب هادر ، وهو يصرخ فى وجهه :

- الكتاب الذى كشفت فيه ، كل أسرار الجيش النازى العظيم .

حمل صوت (جاكوب) كل دهشة الدنيا ، وهو يهتف :

- أسرارًا ؟!.. لم أتصور لحظة واحدة أنها أسرار .

زمجر (هملر) مرة أخرى ، واستعدت القبضات القوية ؛ لتهوى على وجه الصحفى المسكين مرة أخرى ، فهتف فى ارتياع :

- لم أتصور هذا ، لأننى جمعتها من الصحف .. صحفكم الألمانية .

صاح فيه (هملر) فى شراسة :

- أى قول أحمق هذا ؟.. هل تحاول إقناعى بأننا ننشر أسرارنا العسكرية على صفحات صحفنا ؟

هتف (جاكوب) فى رعب :

- ليس كل الصفحات ، بل صفحة واحدة فقط .

ردد (هملر) فى عصبية :

- صفحة واحدة ؟!

أجابه (جاكوب) ، فى لهجة أقرب إلى البكاء من فرط الرعب والارتياع :

- نعم .. صفحة الوفيات ..

وكان جوابه صدمة حقيقية ..

صدمة عنيفة للجميع ..

وبالذات للفوهلر (أدولف هتلر) ، الذى هتف مستنكرًا ، فور سماعه :

- صفحة الوفيات ؟!.. هل يدعى أنه قد حصل على أسرار جيشنا العظيم ، من خلال صفحة الوفيات ؟!.. هل يتصور أنه بمقدوره خداعنا ، بهذا الجواب الساذج ؟!

تنحنح (هملر) ، فى حرج وتوتر ، قبل أن يجيب :

- الواقع أن جوابه حقيقى تمامًا ، أيها الفوهلر العظيم ، ولقد تأكدنا من هذا بأنفسنا .

تراجع (هتلر) كالمصعوق ، وهو يهتف :

- وكيف هذا ؟!

التقط (هملر) نفسًا عميقًا ليجيب فى أسف :

- صفحات الوفيات كانت تحمل الكثير من المعلومات بالغة الخطورة ، والتى تمضى من تحت أنوفنا ، دون أن نشعر بمرورها ، ففى نعى ما ، تكتب الفصيلة رقم كذا ، المتمركزة فى منطقة كذا ، أنها تنعى شقيق قائدها الكولونيل (فلان) ، الذى لقى مصرعه فى حادث طريق مؤسف ، وفى نعى آخر يقدم الجنرال (فلان) ، قائد الكتيبة رقم كذا ، والموجودة فى منطقة كذا ، عزاءه البالغ لضابطه (علان) ، لوفاة أمه .. وهكذا .. عشرات المعلومات العسكرية ،

يتم نشرها كل يوم فى صفحات الوفيات ، دون أن يدرك أصحابها أنفسهم مدى خطورتها .

لوح (هتلر) بيده ، قائلاً فى غضب :

- ومادام صحفى مثل (بروتولد جاكوب) هذا قد أمكنه جمعها ، فما الذى يمنع العدو من المثل ؟!

أشار (هملر) بسبابته ، قائلا :

- بالضبط .

ضم (أدولف هتلر) قبضتيه ، وأسند ذقنه عليهما لبعض الوقت ، وهو يعيد التفكير فى الموقف كله مرة ، ومرة .. ومرات ، قبل أن يرفع عينيه إلى (هملر) ، قائلاً فى خشونة صارمة ، تحمل نبرة غضب واضحة :

- لابد وأن نستفيد من الدرس يا جنرال .. وبسرعة .

أومأ (هملر) برأسه ، مغمغمًا :

- بالتأكيد أيها الفوهلر العظيم .. بالتأكيد .

والواقع أن (هملر) قد استفاد كثيرًا من درس كتاب (بروتولد جاكوب) ..

بل وكل أجهزة المخابرات قد استفادت به من بعده ..

فمنذ ذلك اليوم ، وحتى لحظة كتابة هذه السطور ، لم يعد مسموحًا للجهات العسكرية بنشر أية تفاصيل ، فى صفحات الوفيات بالصحف ، أو حتى فى أية صفحات أخرى ، إلا بعد الرجوع إلى جهة مسئولة ، وهى المخابرات الحربية فى الغالب ..

بل إن بعض الدول لم تعد تسمح بنشر أى نعى عسكرى ، من أية جهة عسكرية ، أو ذكر ما يزيد عن رتبة المتوفى ، فى حالات محدودة جدًا ..

ليس هذا فحسب ، ولكن (هملر) استفاد بالدرس ، إلى حد يتجاوز هذا بكثير .. وكثير جدًا أيضًا ..

لقد أدرك كم يفيد الاطلاع على كتب الخصم ، وأخباره ، وصحفه ، وحتى صفحات وفياته ..

ومنذ ذلك الحين ، أصبح هذا أساسًا من أسس عمل المخابرات ، فى كل دول العالم ، من أقصاه إلى أقصاه ، أن يتم الحصول على كل ما يصدر فى الدول المحيطة ، العدوة أو الصديقة ، من صحف ، ومجلات ، وكتب ، وأخبار .

ولقد حقق هذا الأسلوب نجاحًا منقطع النظير ، خلال فترة الحرب العالمية الثانية ، وما بعدها ، وحتى لحظة كتابة هذه السطور ، حتى إن هناك سباقًا دائمًا للحصول على الطبعات الأولى من الصحف ، عبر عمال المطارات ، فى مختلف أنحاء العالم ..

والأهم من كل هذا وذاك ، أن (هملر) قد أدرك أهمية المعلومات ، فى حروب الدعاية الحديثة ، مما جعله ينشئ ما عرف باسم مخابرات الدعاية ، أى المخابرات المسئولة عن جمع المعلومات ، لتوظيفها فى خدمة الدعاية والحرب النفسية ..

وهكذا ، اعتبر عام 1935م ، وهو عام (العملية السويسرية) ، نقطة تحول واضحة وقوية ، فى مسار نظم الاستخبارات العالمية ، انطلاقًا من التطورات التى قام بها (هملر) ، والتى كان لها أكبر الأثر ، فى التأثير على الروح المعنوية البريطانية والفرنسية ، من خلال استغلال وزير الدعاية (جوبلز) لها ، فيما بثه من إذاعات موجهة ، وما يلقيه من منشورات قوية ..

أما (بروتولد جاكوب) نفسه ، فقد تم الإفراج عنه ، وإعادته إلى (سويسرا) ، بعد أن حصل على تعويض سخىٍّ ، من جهاز

(الجستابو) النازى ، وربما كان أول وآخر من يحصل على مثل هذا التعويض فى تاريخ جهاز الأمن الألمانى كله .. ولكن التعويض كان مصحوبًا بجملة مهمة جدًا ..

جملة وجهها إليه (هملر) شخصيًا ، وهو يقول :

ـ المال يحتاج إلى شخص حىٍّ ؛ لينفقه ويستمتع به .. هل تفهمنى جيدًا يا هر (جاكوب) ..؟

وفهمه (جاكوب) جيدًا ..

وأطبق شفتيه تمامًا ..

وطوال السنوات العشر ، من 1935 ، وحتى 1945م ، لم ينبس (بروتولد جاكوب) بحرف واحد ، عما حدث له ، فى قلب (ألمانيا) النازية .

الخوف جعله يطبق شفتيه ، ويمسك لسانه ، ..ولكنه احتفظ بنسختين من كتابه ، الذى تسبب فى اختطافه ..

الكتاب الذى يحوى كل أسرار الجيش النازى ..

وحرصًا على ضمان السرِّيَّة ، تم تغيير مواقع كل قوات الجيش النازى ، قبل أن تبدأ الحرب الفعلية ، عام 1939م ..

وكانت نجاحاته واكتساحاته لجيوش (أوروبا) مضرب الأمثال .. ولكن ديكتاتورية (هتلر) لم تصمد أمام الحلفاء ..

وبدأ الجيش النازى ينهزم .. وينهزم .. وينهزم ..

وفى عام 1945م ، سقطت (ألمانيا) ، وانتحر (هتلر) ، وانمحى من الوجود تمامًا الرايخ الثالث .. والأخير ..

وفى أوائل عام 1946م ، نشر (بروتولد جاكوب) قصته ، مع إعادة نشر كتابه السابق ..

وعرف العالم كله قصة تلك العملية ، التى كانت السبب فى تغيير كل نظم المخابرات العالمية ..

العملية السوسرية .

* * *

العـــــودة ..

منذ اللحظة الأولى ، التى اعتلى فيها (أدولـف هتـلر) عرش السلطة ، على رأس (ألمانيا) النازية ، فى عشرينات القرن العشرين ، انطلق زبانيته ينفذون أبشع عملية ، تنكيل وتصفية عرفها التـاريخ الحديث ، حيث تم اعتقال ، وسـجن ، وتعذيب ، وتشريد الآلاف ، من معارضى النظام النازى ، وقمع كل فكر مخالف ، بأقصى قـدر ممكن من الشراسة والوحشية ، بحيث سرت موجة رهيبة من الذعر والفزع ، مع بحيرة الدم ، التى غمرت (ألمانيا) كلها ، حتى إن المعارضين المتبقين آثروا الصمت ، وقبعوا فى بيوتهم ساكنين مرتجفين ، بل وراح بعضهم يخالف ما آمن به طيلة عمره ، ويعلن تأييده وقناعته بالنظام الجديد ، ويسارع أيضًا بالانضمام إلى الحزب النازى ، ولصق شارته على صدره أو ذراعه ، اتقاءً للشر الرهيب ، الذى جثم على أنفاس وقلوب الجميع ..

وقلائل هم من رفضوا هذا ، وأصروا على الصمود والمقاومة ، والتشبُّث بمبادئ الحرية والديمقراطية والانفتاح ..

ولأن المناخ لا يتسع لوجودهم ، فى دولة أبرزت أنيابها ومخالبها ، وباتت تستعد لحرب طاحنة قادمة ، انطلقت هذه الفئة تتجاوز الحدود ، وتفر إلى الدول الحرة المجاورة ، وعلى رأسها (سويسرا) ..

ومن بين تلك الفئة المعارضة ، كان (رود ألدريتش) ..

و(رود ألدريتش) كان صحفيًا سياسيًا ، يتابع الألمان عموده الشهير ، فى أكثر من سبع صحف ، قبل أن يأتى الحكم النازى ، ويُحجِّم الآراء السياسية ، ويمنع نشر أى نقد له ، ويطارد ويحارب كل صحفى ، يتصوَّر أنه يمكنه أن يمتلك قلمًا حرًا ..

ولأنه لم يحتمل هذا ، ولم يكن له مصدر آخر للرزق ، سعى (ألدريتش) لنقله ، من قسم التحقيقات السياسية ، إلى قسم المراسلين ، حيث أصبح ، مع بداية عام 1933م ، المراسل الأوَّل لجريدته فى (برن) ..

وهناك ، ووسط مناخ حُرٍّ محايد ، استقر (ألدريتش) ، وراح يرسل كل أخبار الفن والمجتمع ، متحاشيًا تمامًا الدخول فى عالم السياسة ، وخاصة بعدما تابع بنفسه عملية اغتيال عنيفة ، راح ضحيتها صحفى ألمانى آخر ، استقرّ فى (لوزان) ، وراح يهاجم الفكر النازى لثلاثة أشهر ، قبل العثور عليه مذبوحًا كالنعاج فى شقته الصغيرة ..

وعلى الرغم من أن الشرطة السويسرية لم يمكنها التوصُّل قط إلى الفاعل ، إلا أن الكل ، وعلى رأسهم الألمان ، كانوا يدركون جيِّدًا أن هذا من أعمال (الجستابو) ، بناءً على أوامر قائدهم

(هملر) ، الذى لا يرحم قط كل من تسول له نفسه ولو مناقشة النظم النازية وأيديولوجيتها ..

ولفترة من الزمن ، تصوَّر (ألدريتش) أنه قد استقر تمامًا ، ولم يعد هناك ما يشكل أدنى خطر بالنسبة إليه ، و ...

وفجأة ، تلقَّى تلك الزيارة ..

كان يعود من عمله ، فى السادسة مساءً ، عندما ارتطم فجأة برجل وسيم طويل ، اعتذر له فى سرعة ، بلغة ألمانية سليمة ، وإن حملت لكنة غير مألوفة ، خاصة وهو يهمس فى سرعة :

ـ اقرأها عندما تستقر فى منزلك .

ارتجف جسد (ألدريتش) فى قوة ، ثم تجمَّدت أطرافه كلها ، وهو يتابع فى هلع ذلك الرجل ، الذى واصل طريقه فى هدوء ، حتى اختفى عند الناصية ..

وشمل الانفعال كيان (ألدريتش) كله ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، وهو يهرع إلى منزله ، ولم يكد يستقر داخله ، ويغلق بابه خلفه فى إحكام ، حتى ألقى جسده على أقرب مقعد إليه ، وراح يلهث فى قوة ، وكأنما بذل جهدًا ما بعده جهد ..

ولخمس دقائق كاملة ، عجز (ألدريتش) عن التقاط أنفاسه

فى يُسْر ، ثم لم يلبث أن اعتدل ، وراح يفتش جيوبه فى لهفة ، حتى عثر على تلك الورقة المطوية ، التى دسَّها ذلك الوسيم الطويل فى جيب معطفه ، بمهارة يحسد عليها ..

كانت ورقة صغيرة ، مطبوعة على آلة كاتبة تقليدية ، وتقول بلغة ألمانية سليمة ودقيقة :

ـ لو أردت مواجهة النظام النازى على نحو إيجابى ، اتصل بنا .. نحن نشاركك توجهاتك .

وفى نهاية العبارة ، كانت هناك تعليمات دقيقة عن كيفية إعلان الموافقة ، وذلك عن طريق تعليق ورقة حمراء صغيرة ، فى نافذة منزله ، المطلة على الشارع الكبير ..

ولستة أيام كاملة ، لم يجرؤ (ألدريتش) على وضع تلك الورقة الحمراء أبدًا ..

ففى أعماقه ، كان هناك خوف كبير ، من أن يكون كل هذا مجرَّد خدعة ..

خدعة قذرة ، من رجال (الجستابو) ، لكشف انتمائه الفكرى الحقيقى ، واتخاذ الإجراءات اللازمة ضده ، لو أنه أعلن رفضه للنظام ..

وفى أعمق أعماقه ، راحت المشاعر تتنازعه فى عنف ، وراح عقله يدرس الموقف ، ويحلله ، ويديره على كل الوجوه ..

ففى رأيه ، كان الاحتمالان متساويين تمامًا ..

فمن الممكن أن تكون خدعة من (الجستابو) ، أو محاولة من نظام مضاد للاتصال به!! ..

وعليه أن يحسم الموقف ، ويتخذ قرارًا حاسمًا .. للغاية .

ولأنه صحفى محنك ، اعتاد مواجهة عشرات المواقف الصعبة ، فقد وضع خطة متوازنة ، تعتمد على مقابلة هؤلاء الذين سعوا للاتصال به ، ومعرفة حقيقتهم ونواياهم ، فإذا ما راودته ذرة من الشك بشأنهم ، فسيتوجه مباشرة إلى السفارة الألمانية ، ويبلغ المسئولين فيها عما حدث ؛ ليتفادى أية محاولات انتقامية مستقبلية من (الجستابو) وغيرهم ..

وهنا ، وبعد أن توصَّل إلى قراره هذا ، علَّق (ألدريتش) تلك الورقة الحمراء الصغيرة ، فى نافذة منزله ..

ولثلاثة أيام كاملة ، بدا وكأن أحدًا لم ولن يستجيب لما فعله ، وأن ما حدث أقرب ما يكون إلى خدعة سخيفة ، أو مزحة كبيرة غير مسئولة ..

وفى اليوم الرابع ، قرَّر (ألدريتش) أن يلقى الأمر كله خلف ظهره ، فنزع الورقة من النافذة ، وعاد لممارسة عمله مراسلاً صحفيًا مسئولاً ..

يومها لم ينته من عمله قبل التاسعة مساءً ، وعرج بعدها على مطعم صغير ، اعتاد تناول طعامه فيه ، فقضى فيه ما يقرب من الساعة ، قبل أن يبتاع بعض المشروبات ، ويعود إلى منزله الصغير ..

وفى تلقائية ، دلف (ألدريتش) إلى منزله ، وأغلق بابه خلفه ، ووضع المشروبات على المائدة المجاورة للباب ، ثم أشعل الأضواء ، و ...

« تأخَّرت الليلة ... »

انبعث الصوت الهادئ فجأة ، بلغة ألمانية ، حملت لهجة بريطانية واضحة ، من مسافة متر واحد منه ، فوثب من مكانه فى رعب ، واستدار مع ارتجافة شملت كيانه كله ، ليحدق فى رجل قوى البنية ، عريض المنكبين ، له شارب أحمر كث ، يتعارض مع رأسه الأصلع ، جلس هادئًا على مقعد كبير ، وهو يبتسم ابتسامة باردة ، متابعًا :

ـ إننى أنتظرك منذ التاسعة .

استمر (ألدريتش) يحدّق فيه بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول فى كثير من العصبية :

ـ من أنت ؟!.. وماذا تفعل هنا ؟!

تراجع الرجل فى مقعده ، فى هدوء مستفز ، وهو يجيب :

ـ لم يحن وقت التعاون المباشر بعد ، ولكن يمكنك الآن أن تطلق علىَّ اسم (جون) .. أما ماذا أفعل هنا ، فأنا هنا لمقابلتك ، وإقناعك بالعمل لحسابنا .

ارتجف صوت (ألدريتش) أكثر ، وهو يسأله :

ـ لحسابكم ؟!.. من تعنى بالضبط ؟!

مال الرجل إلى الأمام ، وهو يجيب بالإنجليزية هذه المرة :

ـ يسموننا المكتب السادس .. وتسموننا أنتم المخابرات البريطانية .

واتسعت عينا (ألدريتش) عن آخرهما ، وتخاذلت ساقاه ، وعجزتا عن حمله ، فترك جسده يهوى على أقرب مقعد إليه ، وهو ما زال يحدّق فى وجه (جون) ، الذى لاذ بصمت بارد طويل ، وكأنما يمنحه كل الوقت لاسترداد توازنه ، والسيطرة على رباطة جأشه ، حتى شعر أنه قد هدأ إلى حد كبير ، فأشار بيده ، متسائلاً بنفس البرود :

ـ قل لى يا هر (ألدريتش) .. أأنت مستعد للتعاون معنا ؛ لنقف جميعًا فى وجه ذلك المد النازى القادم .

ولم يجب (ألدريتش) لحظتها ..

أو أن أحدًا لم يحاول تسجيل إجابته ، فى الوثائق الرسمية ، التى نشرتها المخابرات البريطانية ، بعد مرور نصف قرن على نهاية الحرب العالمية الثانية ..

ولكن من المؤكَّد أن أشياء كثيرة قد تغيَّرت جذريًّا ، بعد هذا اللقاء ..

ففجأة ، وعلى نحو أدهش معظم المعارضين النازيين ، عاد (رودلف ألدريتش) ، الشهير بـ (رود ألدريتش) إلى الكتابات السياسية ..

ليس هذا فحسب ، وإنما راحت كتاباته ، طوال عامى 1937م ، 1938م تؤيد الفكر النازى ، وتُشيد به ، وتتغنى بعبقرية وألمعية وانفرادية الفوهلر (أدولف هتلر) ..

وعلى الرغم من حالة الاستنكار الشديدة ، التى أحاطت بـ (ألدريتش) ، فى مستقره فى (برن) ، جذبت مقالاته الساخنة الحماسية انتباه (جوزيف جوبلز) ، وزير الدعاية النازى ، الذى تحدَّث عنها مع الفوهلر شخصيًّا ، قبل أن يقول ، والحماس يتقاطر من كلماته ، فى واحدة من الحالات النادرة :

ـ ذلك الصحفى يمكنه أن يصنع الكثير هنا ، عندما تنطلق الرصاصة الأولى .

وفى هدوء عجيب أيضًا ، تراجع الفوهلر فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، واستغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يقول بتلك الصرامة ، التى التصقت بأسلوبه دومًا :

ـ بالتأكيد .

ولم يكن (جوبلز) بحاجة إلى أكثر من هذه الكلمة ، ليبدأ فى اتخاذ إجراءاته على الفور ..

وقبل مرور يومين ، تلقَّى (ألدريتش) برقية عاجلة ، من الصحيفة التى يعمل لحسابها ، تطالبه فيها بالعودة فورًا إلى (برلين) ؛ لينتقل من قسم المراسلين إلى منصب رئيس قسم التحقيقات السياسية دفعة واحدة ..

وهنا أدرك (ألدريتش) أن ساعة العودة قد حانت ..

وأن ساعة النضال قد بدأت ..

وبعد مقابلة سرية طويلة ، بين (ألدريتش) ورجل المخابرات البريطانى ، الذى أطلق على نفسه اسم (جون) ، والذى لم تفصح عنه الوثائق السرية ، ولن تفصح عنه قبل عام 2015م ، استقل الصحفى الألمانى القطار ، وانطلق عائدًا إلى (برلين) ..

وطوال الفترة ، من عام 1938م ، وحتى اندلعت الحرب العالمية الثانية ، عام 1939م ، ظلَّ (ألدريتش) يكتب مقالاته الحماسية ، عن النازية وجنرالاتها وزعيمها ، دون أن يحاول ممارسة أى عمل تجسسى ، وفقًا لأوامر وتوجيهات المخابرات البريطانية ، وحتى لا يتطرَّق إليه أدنى شك ، مع التحريات التى سيجريها رجال (الجستابو) والـ(إس . دى) حوله حتمًا ..

ومع بداية الحرب ، كان (ألدريتش) هو الصحفى السياسى المفضَّل ، لدى القيادة النازية كلها ، وعلى رأسها الفوهلر (أدولف هتلر) نفسه ..

ومع أوائل عام 1940م ، أصبح (ألدريتش) هو المدنى الوحيد ، الذى يمكن أن يتواجد فى اجتماع الجنرالات ، وندواتهم العسكرية ، لمناقشة ومتابعة موقف الحرب ..

وهنا ، بدأ (ألدريتش) يقوم بدوره ، الذى تم تجنيده من أجله ..

وعبر قنوات خاصة ، تم إعدادها بدقة بالغة ، راح (ألدريتش) يرسل فيضًا من المعلومات ، إلى عملاء المخابرات البريطانية ، الذين ينقلونه بدورهم إلى المكتب السادس البريطانى ، أوَّلاً بأوَّل ..

وعندما حدثت مؤامرة اغتيال (أدولف هتلر)، كان (ألدريتش) أحد الصحفيين الذين عملوا على تغطية الحادث، ونشروا مقالات ساخنة ملتهبة، تندد بالمحاولة والقائمين عليها، فى نفس الوقت الذى أرسل فيه أدق تفاصيلها الفعلية والحقيقية، إلى المخابرات البريطانية، التى ترجمت كل هذا إلى عدد من المنشورات، التى ألقتها الطائرات على (برلين)، كجزء من الحرب النفسية، التى بلغت أوجها فى تلك المرحلة ..

وعندما أصدر (هتلر) قراره بالهجوم على (روسيا)، كان (رودلف ألدريتش) هو أول من أبلغ المخابرات البريطانية ..

وكذلك عندما بدأت مرحلة الاندحار والانهيار للجيش الألمانى، كان هو أول من أوصل تفاصيلها إلى الحلفاء ..

ولأنه أفرط كثيرًا فى منح كل ما يقع تحت سمعه وبصره، كان من الطبيعى أن تنتبه القيادات النازية إلى وجود ثغرة كبيرة وسطها ..

ثغرة تنقل أدق التفاصيل إلى العدو ..

وهنا، بدأ (الجستابو)، مع المخابرات الألمانية، مرحلة تحقيقات وتحريات سرية كبيرة، لكشف المسئول عن تلك الثغرة الرهيبة ..

ومن حسن حظ (ألدريتش) أن المخابرات البريطانية كانت يقظة، وأدركت على الفور خطورة الموقف، لذا فقد أبلغته أن يوقف نشاطاته كلها فورًا، ثم طلبت منه السفر إلى (برن) فى أقرب وقت ممكن ..

وفى براعة مدهشة، ناور (ألدريتش) نظم الأمن النازية، وأقنع (جوبلز) نفسه بضرورة سفره إلى (سويسرا)، لتغطية النشاطات المضادة للنازية، التى تتم هناك، على الرغم من كونها دولة محايدة رسميًّا ..

وفى أواخر عام 1943م، سافر (رودلف ألدريتش) إلى (برن) ..

وهناك، اختفى فجأة ..

كان اختفاؤه مثيرًا مدهشًا، أثار انتباه واهتمام وقلق كل المتابعين، ودفع بعض المتحمسين إلى اتهام المنشقين عن النظام النازى باغتياله، باعتباره أحد كبار المتحمسين للنظام ..

وباختفائه الغامض، لم يعد (ألدريتش) موضع الشبهات، فى التحقيقات التى أجريت بحثًا عن الثغرة فى جدار المعلومات، والتى أسفرت فى أوائل عام 1944م، عن الإيقاع بعميل بريطانى آخر، وإعدامه، على الرغم من عدم ثبوت الأدلة الكافية، على أنه كان مصدر التسريب فى معظم المعلومات العسكرية السرية ..

وحتى نهاية الحرب ، فى عام 1945م ، اختفى (رودلف ألدريتش) تمامًا ونسى كل المتابعين أمره ، واعتبروه أحد ضحايا حرب طاحنة ، أراقت دماء الملايين من كل الجنسيات ..

وانهزمت (ألمانيا) النازية ، وسقط الرايخ الثالث ، واندفعت قوات الحلفاء تحتل (ألمانيا) ، وتتقاسم الغنيمة فيما بينها فى شراهة ، وذاق الشعب الألمانى مرارة ما فعله به قادته ..

ثم هدأت الأمور ، واستقرَّت ، و ...

وفجأة ، عاد (ألدريتش) ..

عاد مرة أخرى إلى (برلين) الغربية .

عاد دون أن يتعرَّفه ، أو يكشف عودته مخلوق واحد ، لأن ملامحه قد تغيَّرت وتبدَّلت تمامًا ، فاصطبغ شعره الأشقر بلون أسود داكن ، وأضيف إلى وجهه شارب كث ، ومنظار طبى كبير ، وحمل جواز سفر رسميًا ، باسم (جون مالكوم) ، مراسل جريدة بريطانية كبرى فى (ألمانيا) ..

وقضى (ألدريتش) عشر سنوات كاملة فى (برلين) ، حاملاً جنسيته واسمه الجديدين ، ثم لم يلبث أن هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، التى ظلت تطالب رسميًا برأسه الألمانى ، باعتباره أحد كبار مؤيدى النظام النازى المنهار ..

وفى ولاية (إلينوى) ، وعلى الرغم من حياته الحافلة ، مات (ألدريتش) فى فراشه بهدوء ، باعتباره مواطنًا أمريكيًا مخلصًا ، دون أن ينكشف أمره ، أو تحيط به ذرة واحدة من الشبهات ، ليضع نهاية لواحد من أهم جواسيس الحرب العالمية الثانية ..

وأنجحهم ..

على الإطلاق .

* * *

العيد الكبير ..

ارتسمت كل علامات الحنق والغضب والسخط ، على وجه الزعيم الروسى (جوزيف ستالين) ، مع حلول موعد الاحتفال السنوى التقليدى ، بعيد قيام الثورة البلشفية ، وشفَّت كل حركاته وسكناته عن توتر عنيف ، كامن فى أعماقه ، ويلتهب مع كل نبضة من نبضاته ، حتى صارت الدماء التى تسرى فى عروقه ، أشبه بالحمم الملتهبة ..

وكان هذا أمرًا طبيعيًا ، فى ظل تلك الظروف القاسية ، التى كانت تحيط بالاتحاد السوفيتى ، فى تلك الفترة العصبية من الزمان ..

النازيون شنوا حربًا مباغتة على الاتحاد السوفيتى ، على الرغم من المعاهدة الرسمية المبرمة بينهما ، وراحت الجيوش النازية تتدفَّق على الأراضى السوفيتية ، تنفيذًا لخطة (بارياروسا) ، أو ذى اللحية الحمراء ، التى وقَّعها الفوهلر (أدولف هتلر) نفسه ..

وخلال عيدين كاملين ، من أعياد الثورة البلشفية ، كانت الهزائم تتوالى على الجيش السوفيتى ، دون رحمة أو شفقة أو هوادة ،

وعلى الرغم من عناد الزعيم السوفيتى ، وإصراره على إقامة الاحتفالات فى موعدها ، فى المرة الأولى ، إلا أنه اضطر مرغمًا على إلغائها ، فى المرة الثانية ، مما أورثه ثورة أخرى فى أعماقه ، مصدرها العجز والهزيمة ، والإحساس بالخزى والغضب ..

وكان على القادة السوفيت ، بتكليف من الزعيم ، أن يفحصوا ويدرسوا أسباب الهزيمة ، فى محاولة لجلب النصر ..

أى نصر ..

ولقد عكف القادة السوفيت بالفعل على دراسة الموقف كله ، بكافة دقائقه وتفاصيله ، قبل أن يستخلصوا بضعة نقاط أساسية ، على رأسها ، على رأسها نقطة أثارت قلقهم جميعًا إلى أقصى حد ..

الألمان يعرفون حتمًا الشفرة السرية ، التى يستخدمها السوفيت فى اتصالاتهم الخاصة جدًا .

ولأن الأمر بالغ الخطورة ، إلى أقصى حد ، فقد تردَّد القادة والمحللون طويلاً ، وراجعوا حساباتهم عشر مرات على الأقل ، قبل أن يجرؤ أحدهم على مصارحة الزعيم به ..

والواقع أنهم كانوا على حق تمامًا ، فى تردُّدهم وقلقهم هذا ، فلم يكد (ستالين) يعلم به ، حتى احتقن وجهه ، واشتعلت عيناه ، وأفرغ كل غضبه وثورته فى وجوههم جميعًا ، قبل أن يستدعى

ذراعه اليمنى ، واليد الباطشة له ، ووزير داخليته ، وقائد مخابراته (بيريا) ، ليلقى الأمر فى وجهه كالصفعة ..

ولم تكن صدمة (بيريا) بأقل من صدمة زعيم ..

بل وربما كانت ضعفها ..

على الأقل ..

فطوال عقود من الزمن ، كان (بيريا) ، الذى اشتهر باسم (السفاح) ، يزهو بأنه يحكم قبضته على الاتحاد السوفيتى كله ، ويزعم أنه ما من شخص ، مواطن أو أجنبى ، يمكنه أن يلتقط نفسًا واحدًا ، دون أن يعلم هو بأمره ، ويسيطر حتى على أنفاسه ..

ووجود خائن وجاسوس ، فى مكانة رفيعة ، تتيح له الحصول على مفاتيح شفرة سرية خاصة كهذه ، يبدو أشبه بطعنة فى الصميم ، لكرامته ، وسمعته ، وشهرته الدموية الواسعة .

ولكن (بيريا) لم يغضب أو يثر ، كما فعل زعيمه ، وإنما شدّ قامته ، وأشار بيده للزعيم (ستالين) ، وهو يقول فى حزم صارم :

ـ امنحنى أسبوعًا واحدًا أيها الزعيم ، و ...

قاطعه (ستالين) ، مزمجرًا فى قسوة :

ـ ثلاثة أيام .

حدّق (بيريا) فى وجهه ، متمتمًا فى حذر :

ـ ماذا أيها الزعيم ؟!

زمجر (ستالين) مرة أخرى ، قبل أن يميل بوجهه العريض وحاجبيه الكثّين المنعقدين نحوه ، مكررًا بكل الغضب والقسوة والصرامة :

ـ ثلاثة أيام فقط يا (بيريا) .. إننا نفقد آلاف الشباب والمقاتلين كل يوم .

صمت (بيريا) لدقيقة كاملة ، وهو يتطلع إلى عينى (ستالين) المحمرتين المشتعلتين ، قبل أن يجيب :

ـ فى هذه الحالة يكفينا يومان فحسب يا زعيم .

قالها ، وغادر مكتب (ستالين) ، وقد قرر أن يشعل الدنيا كلها لو اقتضى الأمر ؛ ليحافظ على سمعته ..

وبعد أقل من ساعة ، كان يجتمع بكل زبانيته ، فى حجرة اجتماعات خاصة مؤمنة ، فى قبو المبنى الخاص به ، وهو يقول فى صرامة مخيفة ، بعد أن شرح ملخصًا للأمر :

ـ الزعيم منحنا ثلاثة أيام فحسب ، لكشف هذا الأمر ، ولكننى مُصرّ على تحقيق النتائج الإيجابية خلال يومين فحسب .. أريدكم

أن تضعوا قائمة بكل من يمكنه معرفة مفاتيح تلك الشفرة الخاصة ، دون أى اعتبار للمناصب والرتب ، وأريد تحريات كاملة عن كل شخص ، خلال يوم واحد ، ونتائج واضحة بعد هذا بثلاث ساعات فحسب .

تبادل الرجال نظرة قلقة متوترة ، مع تلك المهلة القصيرة جداً ، ولكنه تابع بقسوة وصرامة أكثر :

ـ اتخذوا كل الإجراءات الممكنة .. اعتقلوا من تشتبهون فى أمره ..

استجوبوهم كلهم .. افعلوا كل ما تشاءون .

ثم مال إلى الأمام ، وبدا أشبه بالشيطان ، وهو يضيف :

ـ المهم النتائج .. وبأقصى سرعة .

عاد الرجال يتبادلون النظرات الصامتة ، دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة ، على الرغم من القلق والتوتر العارمين على وجوههم ، و ...

ولكن فجأة ، انبرى الكولونيل (بورجنين) ، أحد كبار معاونى (بيريا) ، قائلاً فى حزم :

ـ هل يمكننى التحدث إليك وحدنا أيها الرفيق ؟!

انعقد حاجبا (بيريا) فى غضب عارم ، وكاد ينفجر فى وجه (بورجنين) ، لولا أن أضاف هذا الأخير ، فى حزم أكبر :

ـ إنه أمر مهم للغاية .

فى المعتاد ، لم يكن (بيريا) ليحتمل مثل هذا الأمر ، مهما انطوى على فائدة للعمل ، إلا أنه ، وفى هذه الظروف ، التى حاقت فيها الهزيمة ، واشتعل غضب الزعيم ، كان من الطبيعى أن يغمغم فى عصبية :

ـ فليكن .

واصطحب الكولونيل إلى حجرة جانبية ، لم يكد يغلق بابها خلفهما ، حتى قال (بورجنين) فى صوت خافت حازم :

ـ أعتقد أنه ليس من الحكمة أن نلجأ إلى أية أساليب واضحة أو عنيفة أو مباشرة ، فى هذا الأمر .

هتف (بيريا) فى غضب مستنكرًا :

ـ ليس من الحكمة ؟!..

أسرع (بورجنين) ، يقول بلهجة رجل خبير محنك :

ـ يمكننا أن نحقق فائدة مزدوجة ، ترضى الزعيم وتبهجه ، لو أننا اتبعنا نهجًا آخر .

نجحت عبارته الأخيرة الذكية فى جذب انتباه (بيريا) ، الذى مال نحوه ، وهو يسأله فى مزيج من اللهفة والعصبية :

ـ أى نهج ؟

مال (بورجنين) نحوه بدوره ، وابتسم ، مجيبًا بصوت أشبه بالهمس :

ـ الواقع أن لدىَّ خطة .

كان من الواضح أن خطته قد راقت كثيرًا للسفاح (بيريا) ؛ فقد غادر معه الحجرة ، بعد ربع الساعة فحسب ، ليقول للمجتمعين فى صرامة :

ـ لا داعى للاستجوابات والاعتقالات ، سنحرص على أن يتم الأمر بأقصى قدر من السرية .

وعلى الرغم من الدهشة العارمة ، التى تفجَّرت فى كل ذرة من كيانهم ، إلا أن أحدهم لم ينبس ببنت شفة ، فى هذه المرة أيضًا ..

ولكن من المؤكَّد أن جميعهم قد قام بواجبه خير قيام ؛ وأن شبكة ضخمة من التحريات والنشاط ، قد شملت كل القادة وكبار الجنرالات ، الذين يمكنهم معرفة مفاتيح الشفرة الخاصة ..

والدليل المؤكد على هذا ، هو أنه ، وقبل مرور اليومين المتفق عليهما ، كانت أمام (بيريا) قائمة صغيرة للغاية ، تضمَّ ثلاثة أسماء فحسب ، من بين أربعة وعشرين شخصًا ، كان يمكنهم التوصل إلى مفتاح الشفرة الخاصة ، التى أطلقوا عليها مجازًا اسم (المعبر) ..

وعلى الرغم من أن هذه بالفعل نتيجة ممتازة ؛ نظرًا لضيق الوقت ، إلا أن (بيريا) قد استقبلها بغضب شديد للغاية ..

غضب مزدوج ..

والواقع أن الجزء الأكبر من غضبه ، كان يعود إلى أن سرًّا حربيًّا خطيرًا كهذا يمكن أن يعلمه كل هذا العدد من الرجال ، والذى بدا له ضخمًا للغاية ..

ولقد كان محقًّا فى هذا تمامًا ..

ولكنه لم يكن يستطيع أن يعود إلى الزعيم ، بقائمة تضم ثلاثة أسماء ..

كان يحتاج إلى اسم واحد فقط ..

اسم يعنى الحسم ، والحزم ، والدقة ..

والنجاح ..

ولقد اجتمع (بيريا) بِرَجُله ، الكولونيل (بورجنين) ، وألقى إليه القائمة الصغيرة ، قائلاً فى حدة غاضبة :

ـ كيف يمكننى أن أواجه الزعيم بأمر كهذا ؟!.. كيف ؟!..

التقط (بورجنين) القائمة الصغيرة ، وراح يطالعها مرة .. وثانية .. وثالثة ..

وفى هدوء حازم ، قال :

ـ يمكنك أن تواجهه بها ، مع خطة عبقرية تبهره .

هتف (بيريا) فى لهفة :

ـ كيف ؟!..

مال (بورجنين) نحوه ، وتألقت عيناه على نحو خبيث ، وهو يقول :

ـ سأخبرك كيف أيها الرفيق ..

واستمع إليه (بيريا) بكيانه كله ..

ولقد كانت خطته عبقرية بالفعل ، بدليل أنها قد نجحت فى إبهار الزعيم (ستالين) نفسه ، و(بيريا) يشرحها ، قائلاً :

ـ الجاسوس بين هؤلاء ، لن يكتفى بنقل مفاتيح الشفرة فحسب ،

وإنما سيسارع حتمًا بإبلاغ النازيين ، عن أى أمر أو قرار خطير ، تتخذه القيادة السوفيتية ، وكل ما علينا أن نفعله ، هو أن نخبر كلاً منهم بأمر يختلف عن الآخرين ، باعتباره سرًا حربيًا خطيرًا ، وسنحدد لكل منهم موقعًا مختلفًا ، لمخزن سرىّ ندّعى وجوده ، وسنرى أى موقع ستقصفه الطائرات الألمانية فيما بعد .

ارتفع حاجبا (ستالين) الكثّين ، قبل أن يخفضهما ، ويبتسم ابتسامة باهتة كعادته ، قائلاً :

ـ عظيم يا (بيريا) ... عظيم .

ثم استعاد صرامته القاسية ، وهو يضيف فى غلظة :

ـ سنكشف أمر الخائن ، ثم نعدمه فى الميدان الأحمر ، على رءوس الأشهاد .

تنحنح (بيريا) ، مغمغمًا :

ـ معذرة أيها الرفيق الزعيم ، ولكن خادمك (بيريا) يرى أنه من الأربح أن نبقى عليه .

انتفض جسد (ستالين) كله فى عنف ، وهو يصرخ فى غضب مستنكرًا :

ـ نبقى على خائن يا (بيريا) ؟!

أسرع (بيريا) يقول :

ـ من أجل الوطن أيها الزعيم .

ثم استطرد فى سرعة ، قبل أن تعلو الدهشة المستهجنة وجه الزعيم :

ـ لو أننا كشفنا أمره ، دون أن يدرك هذا ، ودون أن يدرك النازيون أننا قد كشفنا أمر معرفتهم لشفرتنا السرية الخاصة ، فسيمكننا أن نعزله ، ونقوم بتغيير الشفرة السرية ، مع مواصلتنا استخدام الشفرة القديمة ، لنبث بواسطتها كل ما نريد أن نبلغه للجيش النازى .

وتألقت عيناه ، مع ابتسامته الذئبية ، وهو يضيف :

ـ ولكن ما يفيدنا نحن .

كانت هذه خطة (بورجنين) ، إلا أن (بيريا) لم يشر قط إلى هذا ، وخاصة بعدما لمح الانبهار والإعجاب فى عينى الزعيم ، الذى ربت على كتفه ، هاتفًا فى صوت فخم ضخم مبتهج :

ـ عظيم يا (بيريا) .. عظيم حقًا !

ثم أضاف فى حدة :

ـ ولكننا سنعدمه فور انتهاء الحرب .

وافقه (بيريا) بإيماءة من رأسه ، وهو يقول فى جذل عجيب ، وكأنما أثلج قلبه ذكر الإعدام :

ـ فور انتصارنا أيها الزعيم .

وفور خروجه من مكتب الزعيم ، بدأ (بيريا) فى تنفيذ خطته على الفور ..

ومع الجزء الأول من الخطة ، تم حصر الاتهام فى شخص واحد ..

الجنرال (كواليسكى) ..

وهنا تم تنفيذ الشطر الثانى من خطة (بورجنين) ، بعد أن أضاف إليها (بيريا) خطوة ، بدت له شديدة الأهمية والخطورة ..

التخلص من (بورجنين) نفسه ..

ولقد تم هذا بحادثة سير عاديّة ، فى قلب الميدان الأحمر نفسه ، والمدهش أن (بيريا) قد أشرف شخصيًا على إعدام الجندى ، الذى نفذ الحادثة ؛ باعتبار أنه قد حَرَم البلاد من بطل عسكرى ، فى زمن الحرب ..

وهكذا أصبح (بيريا) هو صاحب الخطة العبقرية ، التى سمحت للقيادة السوفيتية بخداع القيادة النازية ، طوال ما يقرب من عام كامل ، انقلبت فيه الآية ، وراحت الجيوش الألمانية تتذوق ، ولأول مرة ، طعم الهزائم المُرَّة ، التى طالما أذاقتها للآخرين ..

وللسوفيت بصورة خاصة ..

ولقد كشف جهاز المخابرات النازى الأمر بالفعل ، وأدرك أن السوفيت يخدعونه منذ زمن طويل ..

ولكن بعد فوات الأوان ..

فالقوات السوفيتية كانت قد استعادت كل ما احتلته الجيوش النازية من أرضها ، وراحت تزحف خلفها ، عبر (آسيا) ، و(أوروبا) ، حتى بلغت (برلين) نفسها ..

واندحرت ألمانيا النازية ، على نحو لم يتصوره أو يتخيله أحد ..

وانهارت إمبراطورية الرايخ الثالث ، قبل أن تثبت أقدامها على عرش العالم ، وانتحر قادتها ، وعلى رأسهم الفوهلر نفسه ..

وعندما ارتفعت رايات النصر ، ووقف (ستالين) يستقبل حماس وفرحة شعبه ، كان رأسه يُعِد قرارًا جديدًا قويًّا ..

قرارًا بإقامة احتفالات ضخمة بعيد قيام الثورة البلشفية القادمة .. ولقد كان ..

وفى احتفال لم تشهد (موسكو) كلها مثله ، احتفل السوفيت

بأول أعياد الثورة البلشفية ، بعد الانتصار الكبير ، فى الحرب العالمية الثانية ..

ولقد أطلقوا على عيدهم المتميز هذا اسمًا خاصًّا جدًّا ..

عيد الثورة والنصر ..

العيد الكبير ..

جدًّا ..

* * *

القاتل ..

على الرغم من البداية القوية ، التى استهل بها الجيش النازى الحرب العالمية الثانية ، وهو يقتحم (النمسا) ، و(هولندا) ، و(بولندا) ، ويُسقط (فرنسا) ، تلك الدولة العظمى القديمة ، ليسحق عظمتها إلى الأبد ، إلا أن انتقاله إلى الجبهة السوفيتية ، كان إيذانًا بانقلاب كل الموازين ..

وأيضًا إلى الأبد ..

ففى البداية ، حقّق الجيش النازى انتصارات ضخمة ، وحطّم مقدمات الجيش السوفيتى بلا هوادة ، وأجبره على التراجع أمامه ، حتى مشارف (موسكو) نفسها ..

وللعالم كله ، بدا أن الجيش النازى سيحقّق أقوى انتصاراته ، وأن (هتلر) سيفوز بنصف حلمه ، ويسيطر على نصف الكرة الشرقى ، خاصة وأن (ستالين) وقادته قد غادروا (موسكو) بالفعل ، واستعدوا لتكوين مقاومة شعبية ، و ...

وفجأة ، توقفت القوات النازية ، على مشارف العاصمة السوفيتية !!..

الجنرالات أنفسهم لم يفهموا ، لِمَ فعل (هتلر) هذا ، ولِمَ أصر

على إيقاف القتال ، والشتاء على الأبواب ، وفى يأس ، حاولوا إقناعه باستمرار القتال ، حتى احتلال (موسكو) ، على الأقل لينعم الجنود بالدفء ، وليمر عليهم الشتاء القارص ، وهم داخل مدينة تحميهم ، لا وسط أدغال تلتهمهم بلا رحمة ..

ورفض (هتلر) بمنتهى الإصرار ..

وتوقف القتال ..

وكانت الكارثة ..

وبداية النهاية ..

ففى ظاهرة نادرة ، انخفضت درجات الحرارة إلى حد غير مسبوق ، حتى إن أقدام النازيين كانت تتجمّد فى أحذيتهم ، بل إن بولهم كان يتجمّد ، فور خروجه من أجسادهم ، مما أصابهم بحالة من الإحباط البالغ ، أدت إلى تدهورهم ماديًّا ومعنويًّا ، وخاصة مع الهجمات المباغتة والمتعددة والعنيفة ، التى كان الكوماندوز السوفيتى الأبيض يشنها عليهم ، من وسط الثلوج ..

ومع توغل الشتاء ، راح الجيش النازى ينهار ، وينهار ، وينهار ..

وبلغت تلك الأخبار القاسية (أدولف هتلر) شخصيًا ، من خلال رئيس الجستابو (هملر) ، الذى قال متوترًا :

- الموقف يتدهور بسرعة فى الشرق أيها الفوهلر العظيم ، ولو استمر على هذا الحال ، سنخسر جناحنا الشرقى كله ، خلال شهرين فحسب .

انعقد حاجبا الفوهلر فى شدة وغضب ، وقال فى صرامة :

- لن أسمح بالانسحاب .. أبدًا .

أسقط فى يد (هملر) ، عندما سمع العبارة ، التى نطقها الزعيم النازى بعناده الشهير ، وأيقن أنه كعادته ، لن يتراجع عن قراره قط ، مهما ثبت من خطئه ، لذا فقد انتقل فورًا إلى الخطة البديلة ، وهو يقول :

- علينا إذن أن نخفف القتال ، على الجبهة البريطانية و(أوروبا) ؛ للتركيز أكثر على الجبهة السوفيتية .

زمجر (هتلر) ، قائلاً فى حدة :

- البريطانيون لن يسمحوا بهذا .

ثم استدرك فى سرعة :

- إلا إذا ..

بتر عبارته دفعة واحدة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، كعادته كلما راودته فكرة من فِكَره المجنونة ، فانحبست أنفاس (هملر) ،

وهو يتطلَّع إليه بضع لحظات ، فى صمت مطبق ، دون أن يجرؤ على التفوه بحرف واحد ، حتى رفع الفوهلر عينيه إليه ، وقال فى عصبية :

- ماذا فعل البريطانيون ، عندما أرسلنا (هيس) ؛ للتفاوض معهم ؟!

تردَّد (هملر) لحظة ، قبل أن يجيب :

- لقد رفضوا عرضنا ، واعتقلوه ، ونفينا نحن محاولتنا هذه تمامًا ، واتهمناه بالخيانة والجنون ، و ...

قاطعه (هتلر) فى حدة :

- وكل هذا بسبب الغبى (تشرشل) .

مرة أخرى ، لم ينبس (هملر) ببنت شفة ، بل ولم يجرؤ حتى على استنتاج ما يفكِّر فيه زعيمه ، الذى لاذ بالصمت لحظات أخرى ، بدت ملامحه خلالها شديدة الغضب ، قبل أن يتابع :

- لو أن هناك رئيس وزراء غيره ، لتغيَّر وجه التاريخ تمامًا ، ولتآزرنا معهم ، حتى نقضى على الخطر الشيوعى ، الذى يزحف على العالم كله ..

مرة أخرى لم يفهم (هملر) ، ولكنه شد قامته فى وقفة عسكرية ، وقال بمنتهى الحزم :

- أوامرك أيها الزعيم .

وهنا ، عقد (هتلر) كفيه خلف ظهره ، وفرد صدره عن آخره ، وهو يقول ، فى لهجة مزجت غضبه بصرامته :

- لابد وأن يرحل (وينستون تشرشل) .

سرت قشعريرة باردة ، فى جسد (هملر) ، إلا أنه لم ينطق حرفًا واحدًا ، وإنما واصل صمته ، حتى أضاف (هملر) :

- وأن يأتى من يتآزر معنا ، ضد الخطر الشيوعى .

ثم التفت إلى (هملر) ، مضيفًا بكل الصرامة :

- قبل فوات الأوان .

وهنا ، ضاعف (هملر) من شد قامته ، وهو يقول بمنتهى الحزم :

- فورًا أيها الفوهلر .

وغادر (هملر) حجرة مكتب الزعيم النازى ، موقنًا من أن لديه تكليفًا واضحًا ..

اغتيال (وينستون تشرشل) ؛ لفتح الطريق أمام مفاوضات السلام ..

كان واثقًا من أن زعيمه ، لو نجح فى عقد هدنة مع البريطانيين والأمريكيين ، فسيستغل هذا حتمًا ، لضرب الجبهة السوفيتية فى مقتل ، وبعد تصفيتها بالكامل ، سينقض حتمًا هدنته ، ويعاود الهجوم على البريطانيين بلا رحمة ..

ولكنه استعد لتنفيذ مهمته ، على أكمل وجه ..

ودون أن يغمض له جفن ، طلب (هملر) كل الملفات السرية ، للعملاء النازيين فى قلب (لندن) ، وراجعها بمنتهى الدقة ، حتى انتقى منها ملفًا واحدًا ، فجر اليوم التالى ..

ملف (جون أشكروفت) ..

و(أشكروفت) هذا هو فى الواقع عميل نازى قديم ، تم زرعه وسط الأوساط الراقية البريطانية ، فى مقاطعة (ويسكنيسون) ، عام 1929م ، باعتباره الابن المفقود ، للورد (فيليب أشكروفت) ، الذى تم اختطافه فى طفولته ، واختفى طوال ربع قرن كامل ..

وفى حينه ، ملأتْ أخبار عودة (جون) كل الصحف البريطانية ، وتحولّت إلى مأساة درامية معروفة ، خاصة وأن (جون) قد عاد بحالة مزرية ، وتم العثور عليه فى واحد من مستشفيات الطوارئ ، وتعرَّفته خالته ، التى كانت تعمل متطوعة فى ذلك المستشفى ، عبر وحمة حمراء بشكل قلب ، على كتفه اليسرى ..

ورويدًا رويدًا ، راح (جون) يستعيد ذاكرته ، ويروى أحداث طفولته ؛ ليثبت لمجتمع النبلاء البريطانى كله ، أنه ، دون أدنى شك (جون أشكروفت) نفسه ..

وكانت أيامها ، واحدة من أبرع وأقوى عمليات المخابرات النازية ، التى رصدت قصة اختفاء (جون) القديمة ، وجمعت أدق التفاصيل عنها ، ثم عملت على تدريب عميلها (رودلف بار) ، المولود لأب ألمانى ، من أم بريطانية ، والذى يتحدث لغة أمه بطلاقة تامة ، ليتقمص شخصية (جون) ..

وبلعبة بالغة الجرأة ، وجراحة واضحة الدقة ، تم وضع الوحمة الصناعية على كتفه ، لتماثل وحمة (جون) الحقيقى ، ثم تمت إصابة (رودلف) بعدوى ميكروبية ، ونقله بتلك الهيئة المزرية إلى مستشفى الطوارئ ، الذى تعمل فيه خالة (جون) الحقيقى ، والتى تم اختيارها أيضًا بدقة ..

وهكذا ، ومنذ عام 1929م ، احتل (رودلف بار) مكان (جون أشكروفت) ، وسرعان ما تخلّص من الوالد (فيليب) ، ليرث لقبه وضيعته ، ويصبح عضوًا فى مجلس اللوردات البريطانى ، فى عام 1938م ، قبيل عام واحد من اندلاع الحرب العالمية الثانية ..

وعبر (جون) كان النازيون يُلمُّون بقرارات مجلس اللوردات

أولاً بأول ، وحتى قبل أن تنشرها الصحف ، وكان عميلهم قد أصبح واحدًا من أشهر رجال المجتمع السياسى فى (لندن) ، وتمتع باستقرار وثقة ، و ...

وفجأة ، وصلته أوامر بالغة الخطورة ..

أوامر تطالبه بتدبير لقاء مع رئيس الوزراء (وينستون تشرشل) ..

واغتياله ..

ولقد تلقى (رودلف) الأمر فى توتر بالغ ، وأجرى اتصالين للتيقن من صحته ، قبل أن يجد نفسه أمام أمر واضح صريح ، يطالبه بالتخلِّى عن كل ما صنعه ، خلال كل السنوات الماضية ؛ للتخلص من رئيس الوزراء البريطانى ..

وكان هذا يعنى أن القضاء على (تشرشل) ، أصبح يمثل نتيجة الحرب كلها ..

ومنذ استقراره فى شخصية (جون) ، كان (رودلف) يعلم أنه سيواجه مخاطر لا حصر لها حتمًا ، وأنه سيضطر يومًا للقيام بعملية كبرى ، تبرِّر تواجده فى عمق مجتمع السياسة البريطانى ..

ولكن الواقع أن لعبة الاغتيال هذه لم تخطر بباله قط ..

فالأمر لم ولن يكون سهلاً أو هيناً أبدًا ..

صحيح أنه ليس من العسير عليه أن يدبر اجتماعًا مع رئيس الوزراء ، بل ولن يرهقه باعتباره محترفًا أن يصيبه فى مقتل أيضًا ، ولكن الخروج سالمًا من عملية كهذه ، كان أشبه بالمستحيل ..

وهذا ما عليه أن يدرسه .. وبمنتهى الدقة ..

المشكلة أنه ، ومع سنوات تواجده فى المجتمع البريطانى ، قد بدأ يشعر بحالة من الاستقرار الحقيقى ، على الرغم من عمله فى مجال الجاسوسية ؛ فقد تزوَّج الليدى (إليزابيث) ، ابنة (ماك جريجورى) ، رجل الجيش الشهير ، وأنجب منها ابنة وابنًا ، وعلاقته بها جيدة ، وكل من يعرفهم يعتبرهم أسرة صغيرة سعيدة ..

وعليه الآن أن يضحى بكل هذا ، من أجل وطنه الأصلى (ألمانيا) ..

وليس لديه خيار فى هذا الأمر فى الواقع ؛ فلو أنه تقاعس عن القيام بمهمته ، فلن يتردَّد النازيون فى كشف أمره ، وإرسال كل ما يدينه من وثائق ، إلى المخابرات البريطانية ، التى ستلقى القبض عليه حتمًا ..

باختصار ، لقد تحطمت حياته فى كل الأحوال ..

وليوم كامل ، راح (رودلف) يدرس موقفه ، وجلس ساعة كاملة ، يتطلَّع إلى طفليه النائمين ، ونصف ساعة أخرى يتطلَّع إلى زوجته ، وفى التاسعة من صباح اليوم التالى ، أجرى اتصالاً مع مجلس الوزراء البريطانى ، وطلب موعدًا لمقابلة رئيس الوزراء شخصيًا ، لأمر عاجل للغاية ..

ولما كان عضوًا محترمًا ذائع الصيت ، فى مجلس اللوردات ، فقد حدَّد له (تشرشل) موعدًا للقاء ، فى الثانية عشرة بالضبط ..

وفى حزم المحترفين ، ارتدى (رودلف) أفضل ثيابه ، وفتح درجًا سريًا فى مكتبه ، التقط منه قلمًا كبير الحجم ، هو فى حقيقته مسدس من طراز سرِّىّ خاص ، ابتكرته المخابرات النازية ، ويحوى رصاصة واحدة ، وودعهم القلم فى الجيب الداخلى لسترته ، وقبَّل زوجته وطفليه ، وودعهم وهم فى حيرة من أمره ، ثم ذهب للقاء رئيس الوزراء البريطانى ..

وفى الثانية عشرة بالضبط ، استقبله (وينستون تشرشل) فى مكتبه ..

وفى الثانية عشرة ، وتسع دقائق بالتحديد ، سمع كل المحيطين دوى رصاصة منفردة ، فى مكتب رئيس الوزراء ..

ومع دقات الواحدة ، توقفت سيارة تابعة للمخابرات البريطانية ، أمام قصر (جون أشكروفت) ، وغادرها ضابط مخابرات شاب ، غاب فى القصر لنصف ساعة تقريبًا ، قبل أن يغادره مع زوجة (رودلف) وولديه ، وحقائبهم ، وانطلق معهم إلى مكان مجهول ..

ولم تصدر أية بيانات رسمية ، فى هذا الشأن ..

وفى (برلين) ، وصل الخبر عبر اتصال لاسلكى عاجل ، وحمله (هملر) فور وصوله إلى مكتب الفوهلر ، وقال فى حماس :

- (رودلف) نفذ المهمة .

تألَّقت عينا (هتلر) بشدة ، وهو يسأل :

- هل تيقنتم من الخبر ؟!

ابتسم (هملر) ، قائلاً :

- على نحو غير مباشر أيها الفوهلر .

انعقد حاجبا (هتلر) ، وهو يقول فى حدة :

- ما الذى يعنيه هذا ؟!.. إما أنكم قد تيقنتم أو لا .

أشار (هملر) بسبَّابته ، وهو يقول :

- فى مثل هذه الأمور ، لا تصدر بيانات رسمية ، إلا فى حالة

فشل العملية فحسب ، أما مع نجاحها ، فكلهم يلزم الصمت ، حتى يتم تحديد الخطوة التالية .

ازداد انعقاد حاجبى (هتلر) ، وهو يقول :

- ما زلت أصر على تأكيد صريح ..

اعتدل (هملر) فى وقفته ، قائلاً :

- سيتم إبلاغك به فور وصوله أيها الفوهلر ، و ...

قبل أن يتم عبارته ، فتح السكرتير الخاص للفوهلر الباب ، وقال فى توتر شديد :

- أخبار عاجلة من (لندن) يا سيدى .

قالها ، ووضع ورقة أمام الفوهلر ، الذى قرأها بسرعة ، ثم احتقن وجهه بشدة ، وهو يلقيها فى وجه (هملر) ، قائلاً فى غضب هادر :

- ها هو ذا التأكيد يا قائد (الجستابو) .

وقرأ (هملر) الورقة .. وامتقع وجهه بشدة ، حتى بدا أشبه بالموتى ..

فما حدث فى الواقع ، كان يختلف عما تصوَّره تمامًا ؛ إذ إن (رودلف بار) الذى ظلَّ جاسوسًا مخلصًا للنازية ، لأكثر من عشر سنوات ، لم يستطع التضحية بزوجته وابنيه ، بأى ثمن كان ..

لذا ، فقد التقى برئيس الوزراء البريطانى بالفعل ، واعترف أمامه بالأمر كله ، بل وأطلق رصاصة مسدسه ، المخفى داخل ذلك القلم ؛ ليثبت صحة روايته ، وبعدها سلم نفسه لـ (ونستون تشرشل) ، الذى أحال الأمر كله بدوره ، إلى المخابرات البريطانية ..

وبسرعة ، بدأت مخابرات المملكة تَحرّكَها ، فاعتقلت (رودلف) ، وأسرعت تحمى أسرته (البريطانية) ، بنقلها إلى مكان آمن مجهول ، وأحاطت الأمر كله بحالة من الصمت المطبق ، باعتباره أحد الأسرار القومية ، حتى لا يتسرّب إلى الصحافة ، بأى حال من الأحوال ..

وفى مكان لم يُفصَح عنه قط ، حتى بعد كشف الأوراق السرية للمخابرات البريطانية ، بعد نصف قرن من الحرب ، تم استجواب (رودلف) ، الذى أدلى باعترافات صريحة كاملة ، فى مقابل عدم المساس بزوجته وطفليه ..

ومن الواضح أن ما أدلى به من معلومات كان بالغ الأهمية والخطورة ، حتى إن المخابرات البريطانية قد أخفته مع أسرته فى منطقة آمنة ، طوال الفترة التى تلت هذا ، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ..

وفى تلك الفترة ، زادت الجبهة البريطانية من ضغوطها على

الجيش النازى ، وهبط الأمريكيون فى (نورماندى) ، وتحطّم الألمان فى جليد (موسكو) ، واندحروا على نحو لا مثيل له ؛ ليطاردهم الجيش السوفيتى ، مطاردة عنيفة قاسية ، عبرت أوروبا كلها ، لتنتهى فى (برلين) ..

وانهار الرايخ الثالث ، وانتحر قادته ، وعلى رأسهم (هتلر) نفسه ، واستخدم الأمريكيون قنبلتيهم النوويتين ..

وانتهت الحرب العالمية الثانية ..

ومع نهايتها ، وبالاتفاق مع الأمريكيين ، تم نقل (رودلف) وأسرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث حصل على هوية جديدة ، له ولزوجته وطفليه ، وعاش باعتباره مهاجرًا بريطانيًّا إلى هناك ، ولم يعرف حقيقته سوى عدد محدود للغاية ، من قادة المخابرات البريطانية ، والأمريكية فيما بعد ..

وبهذا انتهت أغرب عملية نازية ، فى قلب الحرب العالمية الثانية ..

عملية اغتيال ، راح ضحيتها ، النظام النازى كله .

* * *

القلعـــــة ..

انقسم العالم كله ، فى تلك الفترة الحرجة ، من بدايات عـام 1941م ، ما بين مؤيد ، ومعارض ، ومبهور ، ومذعور ، بما حققته الجيوش النازية الهتلرية ، من انتصارات واكتساحات ، جعلتها تبدو وكأنها سيد العالم القادم بلا منازع ، وخاصة مع سقوط (فرنسا) المدوى ، وهزائم (إنجلترا) المتوالية ، وإسراع (روسيا) بعقد معاهدة دفاع مشترك مفاجئة ، مع الفوهلر (أدولف هتلر) ، وكأنها تعترف بتفوقه عليها ، وبخوفها الشديد من قواته ..

وعلى الرغم من هذا التفوق الكاسح ، لم يكن (هتلر) سعيدًا كما ينبغى ، وهو يدلف إلى مكتبه ، فى دار المستشارية الألمانية ، ويطلب مقابلة رئيس (الجستابو) (هملر) فورًا ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة ، هـرع (همـلر) إلـى مكتب رئيسه ، وأدى التحية النازية فى حرارة ، قبل أن يسأل فى قلق :

ـ ماذا هناك أيها الزعيم ؟!.. لست تبدو سعيدًا ، على الرغم من انتصاراتنا الساحقة ، على كل جيوش (أوروبا) تقريبًا .

تراجع الفوهلر فى مقعده ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أسرارنا يا جنرال .

سأله (هملر) ، فى قلق أكثر :

ـ ماذا عنها أيها الزعيم ؟!..

اعتدل (هتلر) ، وهو يقول فى حدة :

ـ البريطانيون يسعون خلفها طوال الوقت ، ويحاولون الحصول عليها فى دأب ؛ لإدراكهم أن معرفتها قد تقلب مسار الحرب كلها رأسًا على عقب .

قال (هملر) فى حماس :

ـ ولكننا نحمى أسرارنا بكل قوتنا ، أيها الفوهلر العظيم ، ولقد ألقينا القبض ، فى الشهر الماضى وحـده ، علـى أربعـة مـن الجواسيس البريطانيين .

أشار إليه (هتلر) ، قائلاً فى صرامة :

ـ هذا بالضبط ما أتحدث عنه .

ثم هبّ من خلف مكتبه ، مستطردًا :

ـ البريطـانيون لا يتوقفـون ، ولا ييأسـون أبدًا ، وكلمـا ألقينـا القبض على أحدهم ، أرسلوا اثنين آخرين بدلاً منه ؛ ولن تتوقّف محاولاتهم أبدًا ، ما داموا يعرفون أننا نحتفظ بوثائقنا كلها هنا .

لم يفهم (همـلر) مـا الـذى يعنيـه زعيمـه بـالضبط ، لـذا فقد

اعتدل ، وشد قامته ، وهو يسأله فى احترام وحذر :

ـ ماذا تقترح أيها الفوهلر ؟!

رمقه (هتلر) بنظرة قاسية صارمة ، قبل أن يتجه إلى الخريطة الكبيرة ، على جدار حجرة مكتبه ، وهو يقول :

ـ (فرنسا) .

لم يفهم (هملر) ما يعنيه هذا ، فضاقت عيناه ، وانعقد حاجباه فى تساؤل ، انتبه إليه (هتلر) ، فأشار بسبابته إلى نقطة ما ، على الساحل الفرنسى ، وهو يكمل فى حزم :

ـ هنا ، فى هذه البقعة بالتحديد ، توجد قلعة قديمة ، من العصور الوسطى ، يمتلكها أحد النبلاء الفرنسيين ، وهى تطل على البحر مباشرة ، وتحيط بها أرض واسعة ، تخلو من الأشجار والموانع الطبيعية ، وتمنح من يقف على سطح القلعة الفرصة ، لرصد وحماية منطقته كلها ، بأقل جهد ممكن .

التقط (هملر) طرف الخيط على الفور ، فابتسم ، قائلاً :

ـ يمكننا أن نستصدر أمرًا فوريًا ، بمصادرة تلك القلعة ، وكل ما يحيط بها من أراض ، لدواع أمنية حتمية أيها الزعيم .

مطَّ (هتلر) شفتيه ، وكأنما لا يروق له الاقتراح ، وعلى

الرغم من هذا ، فقد قال فى حزم صارم :

ـ أريد إحاطتها بفرقتين مسلحتين ، وفرقة كاملة من قوات الصاعقة ، مع تسليح كامل ، ومدفعين من المدافع المضادة للطائرات ، وكذلك مدفعين من المدافع المضادة للسفن الحربية ، ووضع مدمرتين أمام ساحل القلعة .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ أريدك أن تنقل كل وثائقنا السرية إليها ، وألا يكون هناك سبيل واحد لبلوغها ، حتى ولو جند البريطانيون بعوضة لهذا الغرض .

ابتسم (هملر) ابتسامة واسعة ، وهو يقول :

ـ اطمئن أيها الفوهلر العظيم .. سأصنع من تلك القلعة حصنًا حصينًا ، لحماية كل وثائقنا وأسرارنا .

نطقها ، وأدى التحية النازية ، قبل أن يغادر مكتب (هتلر) ، ويتجه على الفور إلى مكتبه ؛ ليصدر قرارًا بالاستيلاء على تلك القلعة فى (فرنسا) .. فورًا ..

قلعة الأسرار .. القادمة ..

* * *

يقولون فى عالم المخابرات : إنه ما من جهاز أمنى ، مهما بلغت

مناعته ، يخلو من ثغرة ما ، فى مكان ما ، لم تنتبه إليه العقول ، ومهمة أى جهاز مخابرات ناجح ، هو أن يبحث عن الثغرة ، فى نظام خصمه ، لينفذ منها ، ويحقق أهدافه كاملة ..

وعلى الرغم من أن (هملر) قد أحاط موضوع قلعة (فرنسا) هذه ، بأقصى قدر ممكن من السرية ، إلا أن الخبر قد تسلل من ثغرة ما ، ليبلغ جهاز المخابرات البريطانى ، الذى اجتمع رؤساؤه على الفور ، وراحوا يناقشون الأمر فى اهتمام بالغ ، وأحدهم يقول :

ـ لو أن الألمان قد نقلوا كل وثائقهم السرية ، وكل أسرارهم بالغة الخطورة ، إلى تلك القلعة ، فهذا يعنى أن حصولنا عليها قد يقلب الموازين كلها رأسًا على عقب .

قال رجل آخر فى توتر :

ـ حصولنا على أسرار الألمان ، يحتم دخولنا إلى قلعتهم أولاً ، ووفقًا لما حصل عليه جواسيسنا من معلومات ، يبدو لى هذا دربًا من المحال .

أجابه رئيسه فى حزم صارم :

ـ فى عالمنا لا يوجد محال ... كل ما نحتاج إليه هو مزيد من المعلومات ، التى يمكنها أن تقودنا إلى ثغرة ما ، فى ذلك النظام

المنيع .

أضاف رجل آخر :

ـ وإلى خطة مبتكرة أيضًا .

وهنا ، تنحنح سير (ستيورات) ، أحد رجال المخابرات القدامى ، قبل أن يقول :

ـ لو أن الأمر يتعلق بالأفكار والخطط المبتكرة ، فلدىَّ فى إدارتى شاب واسع الخيال ، من أسرة (فليمنج) ، لديه فيض لا ينقطع ، من الأفكار والخطط المبتكرة .

سأله رئيسه فى اهتمام :

ـ أيمكنك أن تثق فيه ، إلى الحد الكافى ؟!

أجابه سير (ستيورات) ، فى سرعة وحزم :

ـ إلى أقصى حد ممكن يا سيدى ، فنصف خطط إدارتى على الأقل من ابتكاره .

ردَّد أحد الرجال بابتسامة كبيرة :

ـ إدارتك معروفة بخططها الرائعة ، ونجاحاتها المبهرة .

نقل رئيسهما بصره بينهما ، قبل أن يقول فى حزم :

- فليكن .. دعنا نرى ما يمكن أن يفعله رجلك هذا .

تنهد سير (ستيورات) فى ارتياح ، قائلاً :

- بكل تأكيد يا سيدى .. بكل تأكيد .

بعد ساعة واحدة من هذا الاجتماع ، كان الشاب (آيان) يقف فى احترام ، أمام رئيسه سير (ستيورات) ، الذى شرح له الموقف كله ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

- الأمر يبدو مستحيلاً كما ترى يا (آيان) ، ولكن ربما يتوقف مصيرنا جميعًا على حصولنا على تلك الوثائق الألمانية السرية ، لذا فنحن نحتاج إلى فكرة جديدة ، وخطة مبتكرة ، تساعدنا على اختراق ذلك السياج المنيع ، الذى أقامه النازيون حول القلعة ، بأقل خسائر ممكنة .

شد (آيان) قامته ، مجيبًا فى ثقة :

- لا يوجد مستحيل يا سيدى .. هذا شعارنا هنا .. أليس كذلك ؟!

ومنذ ذلك الحين ، وربما فور خروج (آيان فليمنج) من حجرة رئيسه سير (ستيوارت) ، بدأ الشاب العبقرى ، سليل الأسرة البريطانية العريقة النبيلة ، فى البحث عن سبيل للوصول إلى قلب قلعة الأسرار ، على الرغم من الحراسة المشددة حولها ..

أحضر تصميمات القلعة ، عبر أحد الجواسيس المهرة ، وعكف على

دراستها ليلاً ونهارًا ، ويدير الأمر فى رأسه مرة ، ومرة .. ومرات ..

وبعد عشرة أيام بالتحديد ، طلب مقابلة رئيسه سير (ستيوارت) ، ولم يكد يقف أمامه ، حتى هتف فى حماس :

- وجدتها يا سيدى .

وبكل حماسه ، فرد خريطة القلعة أمام رئيسه ، وراح يصف كل التحصينات المحيطة بها ، والموجودة حولها وعلى سطحها ، حتى هتف به سير (ستيوارت) فى ضيق :

- (آيان) .. هل أتيت إلى هنا ، وطلبت مقابلتى ، حتى تشرح لى نظم حراسة وتأمين القلعة ؟!

هزّ (آيان) رأسه نفيًا ، وهو يبتسم ، قائلاً :

- بل أتيت لأقول إن هناك مكانًا واحدًا ، لم يحطه النازيون بالحراسة الكافية .

ثم أشار بيده إلى الخريطة ، مستطردًا فى حزم :

- البحر .

تطلع سير (ستيوارت) إلى النقطة ، التى أشارت إليها سبابة الشاب ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ هناك مدمرتان ألمانيتان ، تحرسان الساحل .

أجابه (آيان) فى سرعة :

ـ إنهما تحرسانه لحمايته من أى هجوم بحرى ، وهذا يعنى أن طاقمى المدمرتين يتطلعون إلى البحر طوال الوقت ، وليس إلى القلعة .

تراجع (ستيوارت) فى مقعده ، متسائلاً :

ـ وما الذى يمكنه أن يفيدنا به هذا ؟!

أجابه (آيان) فى حماس :

ـ لو راجعت تصميمات القلعة يا سيدى ، لوجدت أن أحد جدرانها يطل على البحر مباشرة ، وليس به سوى نافذة صغيرة واحدة ، بالقرب من السطح ، وأسوار السطح نفسها تمنع الجنود الألمان المسئولين عن المدافع المضادة للسفن والطائرات من النظر إلى أسفل ، ورؤية أى شخص ، يمكن أن يتسلق الجدار .

بدا الاهتمام على سير (ستيورات) ، وهو يسأله :

ـ وكيف يمكن أن يصل أى مخلوق إلى جدار القلعة ، المطل على البحر ، دون أن يمر بالمدمرتين ، اللتين تحرسان السواحل هناك ؟!

قال الشاب بنفس الحماس :

ـ لقد راجعت السجلات البحرية ، لمعرفة قدرات المدمرتين ، والمدى الذى يحكم الرماية فيهما ، ووجدت أنه من المستحيل إرسال سفينة إلى المنطقة ، حتى لو تنكرت فى هيئة سفينة صيد فرنسية عادية .

مال سير (ستيورات) إلى الأمام ، وهو يسأله باهتمام أكثر :

ـ وكيف يمكنك أن تتجاوز هذه العقبة ؟!

فَرَدَ الشاب أمامه لوحة أخرى ، مجيبًا :

ـ بتنفيذ هذه التصميمات يا سيدى .. إنها طراز جديد من الطوربيدات ، لها محركات ذاتية ، بحيث يمكن أن يقودها فريق من الضفادع البشرية ، للانطلاق من غواصة ، تقف على مسافة بعيدة ، والمرور بها على عمق مناسب ، أسفل المدمرتين الألمانيتين ، حتى يبلغ الجدار الخلفى للقلعة ، قبيل الفجر بساعة واحدة ، أى فى موعد تغيير الحراسة تمامًا ، بحيث يُتم الفريق مهمته فى أفضل وأسرع وقت ممكن ، ثم يقود الطوربيدات ذاتية الدفع مرة أخرى ، عائدًا إلى الغواصة .

حدّق فيه سير (ستيوارت) فى انبهار ، قبل أن يسأله :

ـ كم ستبلغ نسبة الخسائر فى تقديرك ، لو نفذنا هذه الخطة ؟

أجابه (آيان) ، فى سرعة وحزم :

ـ خمسين من المائة يا سيدى .

أومأ الرجل برأسه متفهمًا ، وغمغم :

ـ خطة عبقرية بالفعل يا (آيان) .. أعتقد أنه سيكون لك شأن كبير فى عالم المخابرات ، ذات يوم .

وحظت خطة (آيان فليمنج) بالفعل بقبول كل من عرضت عليهم من رجال المخابرات البريطانية .

وصدر الأمر بتنفيذ التصميمات الجديدة فورًا ..

وفى إبريل 1941م ، تم تنفيذ خطة الشاب بحذافيرها ، باستخدام دستة من رجال الكوماندوز البريطانيين ، فى زى الضفادع البشرية ..

وقبيل الفجر بساعة واحدة ، وصل الفريق البريطانى ، إلى الجدار الخلفى للقلعة المنيعة ، وتسلق الجدار فى مهارة ، ودخل إلى مقر الأسرار النازية ، من تلك النافذة العلوية الصغيرة ، بالقرب من السطح ..

وبسرعة ودقة مذهلتين ، تمكن الفريق البريطانى المحدود من السيطرة على القلعة فى الداخل تمامًا ..

وتم الاستيلاء على كل الوثائق السرية النازية ..

ومع شروق الشمس ، غادر الفريق البريطانى القلعة ، من نفس الطريق الذى استخدموه لدخولها ، وهم يحملون عشرة كيلوجرامات من الوثائق النازية ، فى أكياس مزدوجة من البلاستيك ، المقاوم للماء تمامًا ..

ودارت محركات الطوربيدات ذاتية الحركة مرة أخرى ، لتعيدهم إلى الغواصة البريطانية ، التى تنتظرهم بعيدًا ، فى قلب البحر ..

عندئذ ، وعندئذ فقط ، انتبه طاقم حراسة القلعة إلى مايحدث ..

وانطلقت النيران نحو الفريق البريطانى ، الذى أسرع يغوص فى الماء ، وينطلق تحت سطح البحر ، بأقصى سرعة ممكنة ..

وكأمل أخير ، استخدمت المدمرتان النازيتان قنابل الأعماق ، فى محاولة لمنع البريطانيين من الفرار ، حاملين أخطر وأدق الوثائق السرية الألمانية ..

ولكن البريطانيين بلغوا غواصتهم بنجاح ، بعد أن فقدوا شخصًا واحدًا ، وأصيب آخر ووصلت الوثائق النازية السرية سليمة وكاملة ، إلى المخابرات البريطانية فى (لندن) ..

وقلبت مسار الحرب بالفعل ، رأسًا على عقب ..

ولأن الفوهلر كان صاحب الفكرة شخصيًا ، لم يجرؤ مخلوق واحد ،

على وصف عملية نقل الوثائق السرية الألمانية ، إلى الشاطئ الفرنسى ، المواجه للجزر البريطانية بالحماقة أو الفشل ..

وعلى الجانب الآخر ، راح البريطانيون يكشفون كل أسرار النازيين ، ويلقون القبض على شبكات جواسيسهم بالجملة ..

وخسرت (ألمانيا) الحرب فى النهاية ، وانتحر (هتلر) ، وانهار الرايخ الثالث ، فى عام 1945م ، وربحت (بريطانيا) وحلفاؤها الحرب بجدارة ، وحصل سير (ستيوارت) على وسام خاص من ملكة (بريطانيا) ..

أما الشاب (آيان فليمنج) ، فعلى عكس ما توقعه له (ستيوارت) ، فلم تكد الحرب تضع أوزارها ، حتى قدم استقالته ، وانطلق فى عالم آخر ، يعشقه منذ نعومة أظافره ..

عالم الرواية والأدب ..

إلا أن هذا لم يمنع اسمه من أن يتألق فى عالم روايات الجاسوسية ، بعد أن ابتكر أشهر شخصياتها على الإطلاق ..

(جيمس بوند) ..

شخصيًا .

* * *

المبعوث ..

على الرغم من الحرب الدائرة بلا انقطاع ، فى (أوروبا) و(آسيا) ، وجزء من شمال (أفريقيا) ، فى تلك الفترة من بدايات صيف عام 1941م ، ذروة الحرب العالمية الثانية ، مضت ليلة العاشر من مايو هادئة نسبيًا ، بالنسبة للعاصمة ، البريطانية (لندن) ، إذ توقَّفت الطائرات الألمانية عن قصفها المستمر ، لأوَّل مرة منذ أسبوعين كاملين ، وصفا الطقس على نحو غير مسبوق ، مما منح سكان المدينة فرصة نادرة ، للخروج من المخابئ والبحث عن متنفس للهواء النقى ، بعد أن نشرت القنابل النازية النار والدمار ، على نحو لم تفعله أية حرب سابقة ، عبر التاريخ كله ..

وفى مقر المخابرات البريطانية ، استغلَّ الرجال فترة الهدوء النسبى هذه ، فى ترتيب أوراقهم ، ومراجعة نتائج عملياتهم ، التى لم تشهد ، فى تاريخهم كله ، نشاطًا جمًّا ، وانتشارًا محمومًا ، مثلما شهدته فى تلك الأيام العصيبة ..

فالجيوش النازية اجتاحت (أوروبا) كلها تقريبًا ، وانتشرت فى (آسيا) على نحو مخيف ، وراحت تحقق انتصارات متتالية قوية ، على نحو أوحى بأنه لن يمضى عام أو عامان ، حتى يرتفع العَلَم النازى على (أوروبا) بأكملها ، ما لم يمتد إلى العالم كله ...

وفى رصانة قلقة (كعادته) ، تساءل رجل المخابرات البريطانى العريق (سنكلير) ، الذى منحته الملكة لقب (سير) ؛ تقديرًا

لبراعته وحنكته ، وجهده المتصل ، فى سبيل التاج :

ـ تُرى لماذا هدأ القصف الألمانى الليلية ؟!

بدا السؤال مقلقًا ، بالنسبة لرجال المخابرات البريطانية ، الذين جمعتهم مائدة الاجتماعات الليلية المعتادة ، فقال أحدهم فى حذر :

ـ ربما احتاج الطيارون الألمان إلى إجازة للراحة الليلة .

هزَّ سير (سنكلير) رأسه ، معلنًا عدم اقتناعه بالجواب ، وهو يقول فى حزم :

ـ (هتلر) لن يمنح طيَّاريه إجازة ، إلا لو أنجزوا شيئًا يرضيه ؛ فذلك الرجل لا يقتنع بأهمية الإجازات أبدًا .

تبادل الرجال نظرة قلقة ، قبل أن يسأل أحدهم فى اهتمام :

ـ لماذا هدأ القصف الليلة فى رأيك إذن يا سيِّدى ؟!

تراجع سير (سنكلير) فى مقعده ، وغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ لولا أننى أخشى أن تتهموننى بالهوس ، تجاه طبيعة عملى ؛ لقلت : إن التفسير المنطقى الوحيد لهدوء الليلة ، هو أن هناك عملية مخابراتية نازية فى الطريق .

بدت الدهشة على وجوه الرجال لحظة ، قبل أن يتراجع أحدهم ، مغمغمًا :

ـ الواقع يا سيِّدى ، أننى لست أجد رابطة واضحة ، بين ..

قبل أن يتمّ عبارته ، اندفع مسئول الاتصال داخل الحجرة فجأة ، وهو يهتف فى انفعال واضح :

ـ سير (سنكلير) .. لن يمكنك أن تصدِّق ما حدث الليلة .

التفت إليه الجميع فى حركة حادة ، واعتدل (سنكلير) فى مقعده ، فى اهتمام بالغ ، وهو يرهف سمعه جيدًا ، والرجل يتابع بنفس الانفعال :

ـ أحد قادة النازى ، هبط بطائرته على سواحلنا ، وطلب مقابلة المسئولين هنا .

هتف أحد الرجال فى دهشة :

ـ أحد قادة النازى ؟!.. أتعنى أنه جنرال ؟!

التقى حاجبا (سنكلير) فى شدة ، ومسئول الاتصال يجيب ، وقد تضاعف انفعاله :

ـ إنه ليس جنرالاً عاديًا .. إنه (هيس) .. (رودلف هيس) .. شخصيًا ..

وتفجَّر قوله كقنبلة ، وسط الاجتماع ...

قنبلة من الدهشة والذهول ..

بلا حدود ..

* * *

فى تلك الفترة، من الحرب العالمية الثانية، كان (رودلف هيس) هو الرجل الثانى فى النظام النازى، بعد (أدولف هتلر) مباشرة..

والواقع أن علاقة (هيس) بالفوهلر النازى تعود إلى فترة طويلة جدًا، وبالتحديد إلى الحرب العالمية الأولى (1914–1918م)، حيث خدم كلاهما فى فرقة المشاة ذاتها، وواجها معًا هزيمة (ألمانيا) المؤسفة، وشعرا سويًا بالخزى والعار والغضب، واتفقت آراؤهما إلى حد كبير، وانبهر (هيس) بشخصية (هتلر)، واعتبره مثله الأعلى، فى تلك الفترة من الزمن..

وبعد الحرب، أصبح (رودلف هيس) ضابطًا فى السلاح الجوى الإمبراطورى، ثم لم يلبث أن انضمَّ إلى الحزب النازى الوليد، فى أوائل العشرينات، وتحمَّس لمبادئه، خاصة وأن رفيق سلاحه ومثله الأعلى (هتلر)، قد أكَّد له أن مستقبلاً زاهرًا ينتظر هذا الحزب، مع ما يحمله من اتجاهات، تروق للشعب الألمانى كله..

وفى عام (1923م)، اشترك (هيس) مع (هتلر)، فى محاولة (بيرهول)؛ للإطاحة بالحكومة البافارية..

وفشلت المحاولة..

ومع الفشل، تم إلقاء القبض على كل المشاركين فى المؤامرة، وتم سجن (رودلف هيس) مع (أدولف هتلر)، فى قلعة (لانسبورج)..

واقترب (هيس) من (هتلر) أكثر وأكثر، وتابع تطوّر كتابه الشهير (كفاحى)، والذى وضع أساسه، وكتب أفكاره وصفحاته، أثناء فترة اعتقاله فى (لانسبورج)..

وانبهر (هيس) بكتاب (هتلر)..

وانبهر أكثر وأكثر بشخصيته، وطموحاته، وأفكاره، وحماسه الشديد لتعويض هزيمة الحرب العالمية الأولى، والسعى لوضع (ألمانيا)، بجنسها الآرى، فوق كل شعوب (أوروبا)..

بل وفوق كل شعوب العالم..

ولم تستمر فترة الاعتقال طويلاً، إذ سرعان ما غادر الاثنان سجنهما، وعادا إلى الحزب النازى، ليحتلّ كل منهما دورًا رئيسًا فيه، وليصبح (هيس) رئيسًا للجنة السياسية المركزية، والضابط الأعلى لمفرزة الأمن فى الحزب..

ثم راح نجم (هتلر) يصعد، ويجذب معه (هيس) إلى أعلى، ويضاعف من انبهاره بشخصية زميله القديم، حتى لقد ذاب (هيس) تمامًا فى حالة الانبهار هذه، وأصبح التابع المخلص الأمين للفوهلر (أدولف هتلر)، وخاصة عندما أصبح عضوًا فى المجلس التشريعى الرئيس، عام 1933م، ثم وزيرًا فى حكومة (هتلر) فيما بعد، ونائبًا له باعتباره زعيمًا للحزب النازى، ورئيسًا للوزراء، ثم رئيسًا للحكومة فيما بعد..

واشتهر (هيس) دومًا بانبهاره الشديد بزعيمه (هتلر)، وبتنفيذه لكل أوامره، دون معارضة أو مناقشة..

ومع إشعال (هتلر) الحرب فى (أوروبا) ، وقف خلفه (هيس) بكل قوته ، وكل حماسه ، و ...

وفجأة ، ومع إصرار (هتلر) على مهاجمة (روسيا) ، وفتح جبهة شرقية جديدة ، قبل أن يستقر حال الجبهة البريطانية ، اتخذ (هيس) أقوى وأغرب قرار فى حياته ، وانطلق بطائرته إلى هناك .

إلى البريطانيين ..

مباشرة ..

* * *

« هل تعتقد أنه صادق فى هذا ؟!.. »

ألقى رئيس الوزراء البريطانى السؤال ، على مسامع سير (سنكلير) ، رجل المخابرات البريطانى الفذ ، قبل أن يتابع ، فى حيرة متوترة :

ـ إنه يؤكِّد أنه هنا ، بأوامر مباشرة من (هتلر) ، الذى يعرض علينا السلام والهدنة ، ويخبرنا أن الخطر الحقيقى ، الذى يواجهه العالم ، هو الخطر الشيوعى ، وأنه علينا أن نتآزر معًا ؛ لمواجهة السوفيت ، والقضاء على الشيوعية ، قبل أن تلتهم (أوروبا) ، والعالم كله فيما بعد .

انعقد حاجبا (سنكلير) ، وتراجع فى مقعده ، فى تفكير عميق ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ الواقع أنه من العسير تصوّر (هتلر) ، رجلاً يسعى إلى السلام .

وافقه رئيس الوزراء ، وهو يقول فى انفعال :

ـ أليس كذلك ؟!

ولكن (سنكلير) تابع ، وكأنه لم يسمعه :

ـ ولكنه صادق فى هذا .

تراجع رئيس الوزراء بحركة عنيفة ، وكأنما أصابته صاعقة ، وهو يهتف ، بكل دهشة واستنكار الدنيا :

ـ صادق ؟!.. مستحيل !!

نهض (سنكلير) من مقعده ، قائلاً فى حزم :

ـ لقد أجريت تحرياتى ، فور سماعى الخبر ، وأمرت ببث التساؤل ، لكل رجالنا فى (برلين) ، ولأحد أهم جواسيسنا ، فى القيادة النازية ، كما ربطت هذا بعدة وقائع أخرى ، منها توقُّف القصف النازى تمامًا ، فى الليلة التى وصل فيها (هيس) بطائرته إلى سواحلنا ، ثم خرجت بالحقيقة ، التى لم وربما لن يتمّ إعلانها رسميًا أبدًا .

سأله رئيس الوزراء البريطانى ، وقد جفّ حلقه ، من فرط الانفعال :

ـ وما هذه الحقيقة ؟!

أجابه (سنكلير) فى سرعة :

ـ (برلين) لم تُعلن بعد اختفاء نائب رئيس الحزب النازى ، على الرغم من أن هذا أمر يصعب عدم الانتباه إليه ، فما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

بدا الاهتمام على وجه رئيس الوزراء ، وإن لم يحاول إجابة السؤال ، فتابع (سنكلير) فى حزم :

ـ إنهم ينتظرون رد فعلنا أوّلاً ، قبل إعلان الموقف ، فلو وافقنا على عرض (هتلر) ، فسيعلن أنه قد أرسل نائبه ، فى مبادرة سلام نادرة ، وأنه سيتآزر معنا ضد الشيوعية ، أما لو رفضنا المبادرة ، فإما أن نعيد إليه نائبه ، فيموت الأمر فى مهده ، أو نلقى القبض عليه ، فيتهمه عندئذ بالخيانة على الأرجح .

التقى حاجبا رئيس الوزراء ، وهو يقول فى توتر :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

أشار (سنكلير) بسبّابته ، مجيبًا بمنتهى الحزم :

ـ دون أدنى شك .

ارتفعت أنفاس رئيس الوزراء البريطانى ، على نحو مسموع ، وبدت أقرب إلى اللهاث ، معلنة انفعاله الشديد ، وهو غارق فى تفكير عميق للغاية ، قبل أن يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ الواقع أنه عرض مغر للغاية يا سير (سنكلير) ، ولست أخفى عنك أن معظم الوزراء يميلون إلى قبوله ؛ فهذا يعنى حقن الدماء ، وإيقاف عجلة الدمار ، و ...

قاطعه (سنكلير) ، على الرغم من مخالفة هذا لقواعد اللياقة ، وهو يقول فى حزم صارم :

ـ ويتم تحويلها إلى (روسيا) .

أدار رئيس الوزراء عينيه إليه فى حيرة آسفة ، قائلاً :

ـ لهجتك توحى بأنك ترفض العرض يا سير (سنكلير) .

شدّ (سنكلير) قامته ، وهو يسأل :

ـ هل تريد رأيى الشخصى ، أم رأيى باعتبارى رجل مخابرات محنكًا ، يا سيادة رئيس الوزراء ؟!

صمت رئيس الوزراء بضع لحظات ، دون أن يبعد عينيه عنه ، ثم لم يلبث أن قال :

- إننى أثق فيك ، باعتبارك رجل مخابرات محنكًا .

التقط (سنكلير) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول فى حزم :

- ارفض العرض إذن يا سيادة رئيس الوزراء .. ارفضه ، وألقِ القبض على (هيس) هذا ، وأعلن أنه جاءنا منشقًا عن النظام النازى .. بهذا تضرب (هتلر) معنويًا فى مقتل .

تردَّد رئيس الوزراء ، وهو يقول فى حذر :

- أترى أن هذا أفضل من قبول العرض يا سير (سنكلير) .

أجاب (سنكلير) ، بمنتهى الحزم :

- من الحماقة قبول أى عرض ، من رجل مثل (أدولف هتلر) ، يا سيادة رئيس الوزراء ، وهذا ليس رأيًا شخصيًا ، وإنما هى تقارير جهاز المخابرات ، الذى أنتمى إليه ، فوفقًا لجواسيسنا ، وعملائنا فى قلب القيادة النازية ، لا يمكن أبدًا إقناع (هتلر) أو نظامه ، بإيقاف نزيف الدم العالمى ، أو إيقاف آلة القتل العسكرية الجبارة لديهم ، وكل ما يتوقَّعه خبراؤنا ، هو أن الفوهلر يحاول تحييد جبهتنا ؛ لضمنا إلى حربه ضد السوفيت ، بحيث يضمن الانتصار الساحق عليهم ، وبعدها سينقلب علينا ، ويستعيد حربه معنا ، حتى يتحقَّق له النصر الساحق ، على (أوروبا) كلها .

امتقع وجه رئيس الوزراء ، وهو يقول :

- أهذا رأيك ؟!

هزَّ (سنكلير) رأسه نفيًا فى حزم ، مجيبًا :

- ليس رأيى يا سيادة رئيس الوزراء .. إنه رأى جهاز المخابرات البريطانى .

التقط رئيس الوزراء نفسًا عميقًا ، وقال فى حزم :

- وهو رأى يتحتَّم احترامه ..

وفى الصباح التالى ، أعلن البريطانيون وصول (هيس) بطائرته إلى سواحلهم ، فرارًا من النظام النازى ..

وعلى الفور ، أعلن (هتلر) أن نائبه (هيس) قد أصيب بالجنون ، ولم يعد يدرى ما يفعله ، ثم وصمه بالخيانة ..

ولم يدر العالم كله حقيقة ما حدث ، طوال أيام الحرب العالمية الثانية ، وحتى سقوط (ألمانيا) ، واستسلام (اليابان) ..

وفى محاكمات (نورمبرج) ، عام 1946م ، عادت قصة (هيس) إلى الظهور ، وخاصة عندما أعلن أنه إنما جاء يعرض السلام ، وأن (هتلر) ، على الرغم من انتحاره ، ما زال مثله الأعلى ..

وبسرعة ، كذَّبت وسائل الدعاية الغربية ما قاله (هيس) ، الذى تم الحكم عليه بالسجن مدى الحياة ..

وفى سجن (ستانداو) ، ظلّ (هيس) يصر على قصته ، ويردّد دوماً أنه إنما جاء فى مهمة سلام ، وبدأ يدعو العالم إلى سماع روايته ، دون كلل أو ملل ، بعد أن أصبح هو السجين الوحيد فى سجن (ستانداو) ، الذى تقوم على حراسته قوات من أربع دول (إنجلترا) ، و(فرنسا) ، و(روسيا) ، و(أمريكا) ..

وفى السابع عشر من أغسطس ، عام 1987م ، مات (هيس) فى سجنه فجأة ، على نحو مريب ، ما زال مثار تساؤل ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

أما الحقيقة ، فقد أعلنتها الوثائق البريطانية عام 2001م ، أى بعد ستين عامًا من هبوط (هيس) على السواحل البريطانية ، لتضع بهذا نهاية لذلك الملف ، الذى شغل العالم طويلاً ..

ملف مبعوث السلام ..

النازى .

* * *

المذبحة ..

منذ صعد الحزب النازى إلى السلطة فى (ألمانيا) ، فى ثلاثينات القرن العشرين ، أخذ نجمه يسطع ، على نحو غير مسبوق ، فى (أوروبا) كلها ، ومع خطب (هتلر) الحماسية ، وكلماته البراقة القوية ، انبهر العشرات من الشباب ، فى عدة دول أوروبية أخرى بالفكر النازى ، وبأحلام القوة والسطوة ، حتى إن بعضهم راح ينادى بالمد النازى ، فى (أوروبا) والعالم كله ..

وبلغت أفكار تلك الفئة مسامع وعقل الفوهلر ، وأشعلت الكثير من الأحلام والطموحات فى أعماقه ، فراح يُعِد عدته ، ويشحذ قوته ، ويمهد السبيل للغزو الكبير ، متظاهرًا أمام العالم كله بأنه إنما ينشىء ما ينشىء ويُعِد ما يُعِد ، استعدادًا للدورة الأوليمبية القادمة ، التى تقرر إقامتها فى (برلين) ..

ثم فجأة ، بدأ الجيش النازى رحلة الغزو ، وعملية اجتياح (أوروبا) ، التى بدأت بدولة (النمسا) ، بحجة إعادتها إلى (ألمانيا) الأم ، ثم راحت تزحف إلى (فرنسا) ، و(هولندا) ، وغيرها ..

ولكن اجتياح (بولندا) بالتحديد ، كان له وقع آخر ، ومذاق آخر ..

مذاق دموى وحشى .. ورهيب ..

فلسبب ما ، لم يكن له تفسيره أيامها ، أو حتى فى أيامنا هذه ، ومع دخول الجيش النازى إلى (بولندا) ، قرر أحد الجنرالات الألمان ، وهو (يوهان شترودر) ، أن يكسر أنف البولنديين منذ اللحظة الأولى ، وأن يفرض سيطرته عليهم ، ويبث الخوف والذعر فى نفوسهم ، بحيث يضمن خضوعهم التام ، أمام القوات النازية المحتلة ..

وكل ما كان يحتاج إليه (شترودر) هو شرارة صغيرة .

محاولة رفض الاحتلال ، أو تمرد محدود ، أو حتى اعتراض غاضب على ما حدث ..

وفى دولة محتلة ، اغتصبها جيش أجنبى ، لا يمكن أن يطول انتظارك لأمر كهذا ، ففى اليوم التالى للغزو مباشرة ، حدث تمرد رافض للاحتلال ، فى قرية صغيرة ، بالقرب من مدينة (بياوستوك) ، شمال شرق (وارسو) ..

ولم يُضِع الجنرال النازى الدموى لحظة واحدة ..

وبجيش جرار ، اتجه إلى تلك القرية الصغيرة ، التى فوجئت بالدبابات تحاصرها ، وبجنود الجيش النازى يلتفون حولها ، ثم بالمدافع تقصفها بلا رحمة ..

وعلى مقعد ضخم وثير ، اعتاد حمله معه أينما ذهب ، وبعينين

تتألقان وحشية واستمتاعًا بمرأى الدم ، جلس (يوهان شترودر) يراقب جنوده ودباباته ، وهم يقتحمون القرية الصغيرة التى أصابها ذعر ما بعده ذعر ، ويقتلون ويذبحون كل من يجدونه فى طريقهم بلا رحمة .

ولأن القرية الصغيرة لم تكن تضم عسكريًا واحدًا ، أو حتى سلاحًا يفوق بنادق الصيد المتواضعة ، فقد أعلنت استسلامها التام ، بعد أقل من ساعة واحدة ، من الاجتياح الوحشى .

وعلى الرغم من أن الأعلام والرايات البيضاء قد ارتفعت عالية واضحة ، بمعنى لا يقبل الجدل أو الشك ، إلا أن الجنرال (شترودر) رفض التراجع أو التوقف بل وأمر بتصعيد الهجوم أكثر ، وأكثر ..

مع إطلاق أيديهم فى الأمر ، راح الجنود النازيون يقتحمون منازل القرية ، ويقتلون العزل من النساء والأطفال والشيوخ ، ويستولون على كل غال وثمين ، ويغتصبون كل من تحلو لهم ، قبل أن يهدموا المنازل على رءوس أصحابها ، غير مبالين بالتوسلات ، والصرخات ، والدماء ، ورائحة الموت ، التى كادت تزكم الأنوف ..

وتواصلت المذبحة ، حتى مغيب الشمس ، وامتلأت شوارع القرية وطرقاتها بجثث الضحايا ، ورءوس الأطفال الصرعى ، وسالت الدماء فيها أنهارًا ، وانتشر الحطام فى كل مكان ، قبل أن يرتوى

السفاح (شترودر) بدماء وأرواح ضحاياه ، ويقرر الاكتفاء بما حدث ، والعودة إلى (وارسو) ..

وفى (وارسو) قدم الرجل تقريرًا بكل ما فعله ، وكأنما يزهو بقوته فى سحق العزل ، وأبلغ القيادة فى (برلين) بانتصاره الحقير ..

وفى (برلين) ، ذهل الجنرالات بما بلغهم ، وأدركوا أنه سيقلب العالم كله ضدهم ، وسيفقدهم مؤيديهم فى (أوروبا) ، وفى كل مكان آخر فى العالم ، لذا فقد أبرقوا إلى (وارسو) ، ليطالبوا الجنرال (شترودر) بكتمان الأمر ، والعمل على عدم انتشار الأخبار ، وكأن شيئًا لم يحدث ، فى تلك القرية الصغيرة ، بالقرب من (بياوستوك) ..

ولم يَرُق هذا أبدًا للجنرال الدموى ، حتى إنه قد استقبل تلك الأوامر ، الواردة من (برلين) بزمجرة غاضبة ساخطة ، وهو يمط شفتيه ، ويعقد حاجبيه الكثّين إلا أنه لم يكن يملك سوى التنفيذ .

وتم إغلاق ملف تلك المذبحة تمامًا ، ومنع نشر أى خبر عنها على الإطلاق ..

ولكن الشىء الذى تعلمناه ، عبر صفحات التاريخ ، هو أن المستحيل عينه هو إخفاء الأخبار عن الناس ..

أية أخبار ..

ومهما تكن وسيلة المنع أو الحجب ..

لذا فقد تسربت أخبار المذبحة إلى (أوروبا) ، وراحت بعض الصحف تشير إليها ، دون الخوض فى أية تفاصيل ، نظرًا لقصور ونقص المعلومات المتاحة ، خاصة أن (برلين) قد أنكرت الأمر برمته ، وهددت بالقصاص من كل مَن يحاول أن ينسبه إليها دون دليل ..

ولكن المخابرات البريطانية التقطت طرف الخيط ، وأدركت مدى أهمية الأمر وخطورته ، لو تم إثباته ، على نحو لا يقبل الشك فى تلك المرحلة بالذات ، لذا فقد بدأت فى دراسة كيفية القيام بعملية من عمليات الجاسوسية ، للحصول على كل المعلومات والتفاصيل الممكنة عن تلك المذبحة ..

وفى اجتماع محدود ، تمت دراسة الموقف بمنتهى الدقة ، وطرح بعضهم فكرة إرسال جاسوس خاص إلى (بولندا) ، مع تكليفه بهذه المهمة المحددة .

ولكن الأمر بدا عسيرًا للغاية ، فى ظل الظروف والملابسات ، التى بلغت فيها حساسية المحتل النازى ذروتها ، ووصلت إجراءاته الأمنية إلى حد الهوس والوسوسة ، على نحو يصعب بل يستحيل معه زرع أى جاسوس جديد ، فى قلب (بولندا) ، أو حتى السعى لتجنيد جاسوس من داخلها ..

ومع المزيد من المناقشة ، بدا وكأن الأمر ينتهى دومًا إلى طريق مسدود ، وحالة من العجز ، تبغضها كل أجهزة المخابرات بلا استثناء ..

ثم جاء اقتراح الكولونيل (جراى بوند) عندما قال بغتة : ولماذا لا نستعين بجاسوس ألمانى؟!

فى البداية ، صدمهم جميعًا ذلك الاقتراح ، الذى يبدو أكثر صعوبة وتعقيدًا من كل ما ناقشوه ، منذ بداية الاجتماع ، إلا أن الكولونيل (بوند) لم يلبث أن شرح فكرته ، على نحو جعلها منطقية ، ومقبولة أيضًا .

فالجاسوس الألمانى ، الذى تحدث عنه ، لم يكن جاسوسًا جديدًا ، سيتم تجنيده للقيام بهذه المهمة بالتحديد ، وإنما كان جاسوسًا يعمل لحساب المخابرات البريطانية بالفعل ..

أو بمعنى أدق ، جاسوسة .

ممثلة ألمانية مغمورة ، راح والدها ضحية للديكتاتورية النازية ، قبل بدء الحرب العالمية الثانية بعام واحد ، مما جعلها تبغض ذلك النظام الاستعمارى المستبد ، وكل ما يتعلق به ، وتسعى لإسقاطه بأى ثمن ..

ولقد التقطتها المخابرات البريطانية ،وتعاملت معها ، ونجحت

فى تجنيدها لحسابها ، قبل اجتياح (ألمانيا) لدولة (النمسا) بشهر واحد فقط .

ومع اندلاع الحرب ، كانت مهمة تلك الجاسوسة (هيلجا) هى توطيد صلاتها بجنرالات الجيش النازى ، وعقد صداقات قوية معهم ، لاستخلاص كل المعلومات الممكنة من أحاديثهم العابرة ، أو أخبارهم الشخصية ، وتحركاتهم مع قواتهم ، إلى أى مكان فى (أوروبا) ..

ولقد برعت (هيلجا) فى أداء مهمتها ، على نحو أثار إعجاب الكولونيل (بوند) ، المشرف على عمليتها ، خاصة أنها كانت عبقرية فى الحصول على المعلومات ، بوسائل لا يمكن أن تثير أدنى الشكوك بشأنها .

ولهذا بالتحديد ، قفز اسمها إلى ذهنه ، وهو يبحث عمن يقوم بعملية (بياوستوك) هذه ..

ولقد طرح (بوند) فكرته ، وخطته كلها ، وتمت مناقشة الأمر بكل التفاصيل كالمعتاد ، خلال أربع ساعات كاملة ، قبل أن تصدر الأوامر للكولونيل (بوند) بالتنفيذ ، ليبثها هو فى الليلة ذاتها لجاسوسته (هيلجا) ..

ولقد أثبتت (هيلجا) عبقريتها ، وموهبتها المدهشة فى عالم

الجاسوسية ، عندما أبرقت إلى الكولونيل (بوند) ، بعد أسبوعين فحسب ، لتبلغه أنها فى طريقها إلى (وارسو) ، لإحياء حفل ترفيهيٌ لجنود الجيش النازى هناك ..

ثم أضافت أن مسئول ذلك الحفل ، هو الجنرال (يوهان شترودر) شخصيًا ..

ولقد انتقل انبهاره إلى الآخرين ، عما أبلغهم بما حدث ، فى الاجتماع المسائى ، وأبدى بعضهم إعجابه الشديد ببراعة (هيلجا) ، فى حين شك البعض الآخر فى قدرتها على الحصول على الأدلة اللازمة ، لإثبات حدوث المذبحة ، حيث إن المعلومات وحدها لا تكفى لإقناع الرأى العام بالأمر كله .

وبكل حزم ، أبلغهم الكولونيل (بوند) أنه لا توجد خطة محددة لدى (هيلجا) للقيام بالمهمة الموكلة إليها ، ولكنه يثق فى ذكائها ، وفى قدرتها على بلوغ هدفها ، وفقًا لمقتضيات أو تطورات الأمور ..

وعلى الرغم من أن هذا لا يروق أبدًا ، لأى جهاز مخابرات ، فى أى مكان فى العالم إلا أنه لم يكن أمامهم سوى الموافقة على الاستمرار فى الخطة ، على أمل ألا تفسد (هيلجا) العملية برمتها ..

على الأقل ، حتى لا يخسرها جهاز المخابرات البريطانى ،

باعتبارها واحدة من أنشط جواسيسه فى قلب المؤسسة العسكرية النازية ، فى (برلين) نفسها ..

والواقع أن ذلك القلق قد أصاب الكولونيل (بوند) أيضًا ، كما أشار فى تقريره الذى لم ينشر إلا بعد نصف قرن من تلك الأحداث ، خاصة أن وجود عملية فى قلب (وارسو) ، كان يجعل اتصالاته المباشرة بها مستحيلة تقريبًا ، مما يعنى أنه عليها أن تتعامل مع الموقف بما يمليه عليها عقلها وذكاؤها .. فقط .

ولكن (هيلجا) كانت عند حسن ظنه ، وهى تتعامل مع الموقف بعبقرية حقيقية ، تستحق كل تقدير وإعجاب ..

ففى البداية ، تركت (شترودر) ينبهر بها وبجمالها وذكائها ، قبل وأثناء وبعد الحفل ، وهى توليه اهتمامًا خاصًا ، أرضى غروره وغطرسته .

وعندما أدركت أن الرجل صار مفتونًا بها ، راحت تحدثه عن كل ما يبهرها فى الرجال ، وبدت شديدة اللهفة والنشوة ، وهى تخبره أنها تذوب عشقًا للرجال الأقوياء القساة ، الذين يمكنهم ذبح العشرات ، دون أن يطرف لهم جفن ، ثم حدثته عن بعض الجنرالات النازيين ، الذين كانت لهم صولات وجولات ، وانتصارات ضخمة ، راح ضحيتها العشرات .

وبتداع طبيعى ، يتناسب مع الوحش الكامن فى أعماقه ، أخبرها (شترودر) أنه أكثر قوة وقسوة من كل هؤلاء ، وعندما اكتفت بابتسامة متحفظة ، أسرع يروى لها فى زهو متفاخرًا ، أخبار مذبحته الدموية الرهيبة ، فى تلك القرية الصغيرة ، بالقرب من (بياو ستوك) .

ولقد أبدت (هيلجا) منتهى انبهارها فى البداية ، وقاومت تلك الرغبة العنيفة ، فى إفراغ ما بجوفها ، من فرط اشمئزازها ، وهو يصف المجازر التى قام بها رجاله ، ويزهو بقتل النساء والأطفال والشيوخ .

ثم فجأة تراجعت ، وراحت تبدى تشككها فيما يقول وتؤكد استحالة حدوث مذبحة رهيبة كهذه ، دون أن تنتشر أخبارها ، فى كل الدنيا .

ولأن شكوكها المفتعلة قد مست غروره ، فقد أصر على أن يريها كل شىء بنفسه فى صباح اليوم التالى ، ليمحو من نفسها كل ذرة شك .

وبالفعل ، اصطحبها الجنرال (شترودر) فى الصباح التالى ، إلى تلك القرية المنكوبة ، بالقرب من (بياوستوك) ليريها آثار المذبحة ، التى لم تنمحِ بعد ..

وتقول (هيلجا) فى تقريرها أنها كانت أسوأ لحظات عاشتها ،

فى حياتها كلها ، فالجثث لم يتم دفنها ، على الرغم من مرور ما يزيد على شهر كامل على المذبحة ، والجليد وحده منع تعفنها وانتشار روائحها أو الأمراض الناشئة عن وجودها ، والمنازل المهدمة تحمل كل آثار العنف والوحشية والقسوة .

وبكل زهو الدنيا ووحشيتها ، أخبرها (شترودر) أن أوامر (برلين) كانت تقضى بدفن الجثث ، وكل أثر للمذبحة فورًا ، إلا أنه تجاهل الأمر تمامًا عن عمد ، حتى يضمن حدوث أكبر تأثير ممكن ، فى المنطقة كلها ، ولأطول فترة ممكنة .

وأكدت (هيلجا) أنها أقسمت فى أعماقها ، فى تلك اللحظة ، على ألا يكون لها من هدف ما بقى لها من عمر سوى أن يدفع ذلك الوحش ثمن جرائمه يومًا .

وبواسطة آلة تصوير خفية ، فى حقيبة يدها ، التقطت (هيلجا) عشرات الصور ، لهذه المذبحة الرهيبة ، ثم لم تكتفِ بهذا ، بل سعت أيضًا للحصول على الوثائق اللازمة ، ولم يهدأ لها بال ، حتى التقطت صور كل الأوراق والبرقيات المتبادلة بين (وارسو) و(برلين) ، حول هذا الأمر .

وفور عودتها إلى (برلين) ، أرسلت (هيلجا) كل ما حصلت عليه إلى عنوان فى (سويسرا) حيث تم شحن ما أرسلته مباشرة إلى (لندن) ..

وانبهر رجال المخابرات البريطانية مرة أخرى ، وهم يطالعون كل ما أرسلته جاسوستهم الألمانية ، وراحوا يناقشون ما ينبغى فعله فى المرحلة القادمة ، واستغرق اجتماعهم ست ساعات كاملة ، قبل أن يتخذوا قرارهم بنشر الصور وحدها ، والاحتفاظ بالوثائق الأخرى ، حتى لا ينكشف أمر جاسوستهم ، باعتبار أنه من الممكن لأى جاسوس أن يتسلل لالتقاط الصور ، ولكن إعلان الوثائق يشير بأصابع الاتهام إلى (هيلجا) وحدها .

ولقد فعلوا ما اتفقوا عليه بالضبط ..

ومع نشر صور المذبحة الرهيبة ، أصيب الرأى العام الأوروبى بصدمة عنيفة ، وتراجعت بسرعة كل الآراء التى أيدت الفكر النازى يومًا ، وانكشفت حقيقة الرايخ الثالث ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تجاهلت (ألمانيا) تمامًا ذلك الغضب ، وتعاملت معه فى تعالٍ وغطرسة ، باعتبارها الدولة الأقوى فى المنطقة ، وصاحبة الانتصارات القوية ، والتى لا ينبغى أن تبالى بآراء الآخرين فيها .

مع أخبار الحرب ، التى تتطور كل يوم ، غابت أخبار المذبحة عن الصحف فى سرعة ، وتناساها كل المتابعين على نحو عجيب ، وكأنما تلاشت ، أو لم تعد لها الأهمية نفسها ،والمذابح تتوالى وتنتشر ، فى كل مكان يبلغه الجيش النازى .

كل ما حدث هو أن القيادة الألمانية قد عنفت (شترودر) على إهماله ، وتركه الجثث ملقاة وسط الجليد ، لكل هذا الوقت ، وصدرت له أوامر جديد مشددة ، بدفن الجثث فورًا ، وإخفاء كل أثر للمذبحة .

ولقد نفذ السفاح الأمر بمنتهى الدقة هذه المرة ، وأخفى آثار مذبحته ، ومحا كل ما يتعلق بها تمامًا ، حتى إنه أعدم كل الوثائق الخاصة بها ، وكأنها لم تحدث ، ولم تكن قط .

وأصيبت (هيلجا) بإحباط شديد ، عندما علمت هذا ، وتصورت أن كل ما فعلته لم يؤت ثماره ، وكادت تعتزل العالم ، مع ما أصابها من اكتئاب ومرارة ، لولا إصرارها على تحطيم الغطرسة النازية وسحقها إلى الأبد .

ثم تضافرت كل العوامل ، من تطور عسكرى ، ونشاط مخابراتى ، وتضامن شعبى ، ومقاومة للمحتل ، فى كل أرض وكل مكان وانهزمت (ألمانيا) النازية شر هزيمة ..

كل أحلامها الاستعمارية التوسعية انهارت دفعة واحدة ، وانقض الحلفاء على أرضها من كل صوب ، وانتحر زعيمها ورفاقه ، وسقط جنرالاتها وضباطها أسرى وبدأت محاكمتهم ..

وهنا ، أبرز الكولونيل (بوند) صور تلك الوثائق ، التى التقطتها

(هيلجا) ، والتى أدانت الجنرال السفاح (شترودر) وتسببت فى الحكم بإعدامه ، جزاء ما اقترفه باعتباره مجرم حرب بشعًا ، من مذابح وتجاوزات بشعة .

وتحقق أخيرًا حلم (هيلجا) وأملها ، والهدف الذى نذرت نفسها له ، وشاهدت بعينها إعدام السفاح ، الذى تصور يومًا أنه الأكثر قوة ، وأن يد العدالة لن تناله أبدًا .

شاهدته ينهار أمام جلاديه ، ويبكى ، ويتوسل ، يستعطف .. ثم يموت ..

هذا وحده ، جعلها تشعر أن عملها الطويل قد آتى ثماره ، وتدرك أن العدالة تتحقق حتمًا ، مهما بدت عسيرة وبعيدة المنال ..

ومهما طال الزمن .

* * *

المقاومة ..

على الرغم من تباهى الفرنسيين بجيوشهم وقوتهم ، بعد انتصارهم فى الحرب العالمية الأولى ، ومع الطنطنة التى امتلأت بها الدنيا ، بدعايتهم حول خطهم العسكرى الدفاعى (ماجينو) ، الذى أكدوا أنه أقوى خط منيع عرفه التاريخ ..

وعلى الرغم من كل التوقعات ، سقطت (فرنسا) فى قبضة النازيين ..

سقطت سقوطًا عاليًا مدويًا ، فى أسبوعين فحسب ، لتصدم مشاعر العالم كله عامة ، ودول المواجهة مع الرايخ الثالث خاصة ، ولتعلن قوة وعنفوان جيش (هتلر) ، وقدرته على تحطيم وتجاوز كل الحصون .

وبزهو وغطرسة لا مثيل لهما ، دخلت الجيوش النازية (باريس) ، وعبرت قوس النصر ، لتعلن للفرنسيين ، وللعالم من بعدهم ، أن هزيمة (ألمانيا) السابقة قد تم تجاوزها بانتصار ساحق ، لم يعرف التاريخ الحديث مثيلاً له ..

وفى (برلين) ، احتفل جنرالات النازية بانتصارهم ، واعترفوا بالعبقرية العسكرية للفوهلر العظيم (أدولف هتلر) ، الذى لم

يتجاوز رتبة العريف ، طوال فترة التحاقه بالجيش ، وقبل أن يتركه ، لينخرط فى الدسائس والمؤامرات ..

وفى شىء من القلق ، قال (رودلف هيس) نائب الفوهلر ، وثانى أقوى رجل فى الحزب النازى كله :

صحيح أننا قد وضعنا أقدامنا فى (فرنسا) ، ولكن هذا ليس نهاية المطاف ، بل بدايته .

أطلق (هتلر) ضحكة عالية ، قبل أن يربت على ظهره فى قوة ، قائلاً :

فهمت جيدًا يا عزيزى (هيس) .. (فرنسا) مجرد بداية ، وبعدها (أوروبا) ، ثم العالم كله فيما بعد .

تنحنح (هيس) فى حرج ، قائلاً :

معذرة أيها الفوهلر ، ولكن ليس هذا ما قصدته .

التفت إليه (هتلر) ، متسائلاً فى اهتمام :

ما الذى قصدته إذن ؟!

ازدرد (هيس) لعابه ، قبل أن يشد قامته ، قائلاً :

إننى أخشى المقاومة أيها الفوهلر .

خُيِّل للزعيم النازى أنه لم يسمعه جيدًا ، فردَّد متسائلاً :

ماذا ؟!

كرر (هيس) :

المقاومة أيها الفوهلر .. إننى أخشى المقاومة .

تبادل الجنرالات نظرة دهشة ، قبل أن يتساءل أحدهم :

ـ أية مقاومة يا جنرال (هيس) ؟!.. لقد دحرنا الجيش الفرنسى تمامًا ، ولن تقوم له قائمة بعد الآن .

هزَّ (هيس) رأسه ، قائلاً :

ـ لم أكن أتحدث عن مقاومة الجيش يا جنرال .

سأله جنرال آخر :

ـ أية مقاومة تقصد إذن ؟!

أجاب (هيس) فى سرعة :

ـ المقاومة الشعبية .

حدق الجنرالات بضع لحظات فى وجهه ، قبل أن يهتف (هتلر) ضاحكًا :

ـ المقاومة الشعبية ؟!..

ومع ضحكته ، انزاح حاجز الحرج ، وانفجر الجميع يقهقهون فى آن واحد ، على نحو انعقد له حاجبا (هيس) الكثيفان ، قبل أن يربت القوهلر على ظهره مرة أخرى ، قائلاً : هذه أطرف دعابة سمعتها يا عزيزى (هيس) .. هل تتحدث عن المقاومة الشعبية ، فى بلد مثل (فرنسا) ، لا ينشغل سوى بالفن ، والعطور ، وأحدث الأزياء ؟!

عاد الجنرالات يضحكون فى مرح ، ولكن (هيس) لم يشاركهم ضحكاتهم ، فى هذه المرة أيضًا ، فقد كان له رأى آخر ..

وكذلك البريطانيون ..

فعلى الرغم مما اشتهرت به (فرنسا) ، من نعومة رجالها وشبابها ، وانشغالهم دومًا بترف العيش ، كان البريطانيون يدركون أن شبابها لن يستسلموا قط للاحتلال النازى أو يتقبلوا وجوده على أرضهم ..

وأن المقاومة آتية لا ريب ..

المشكلة الوحيدة ، التى راح البريطانيون يبحثونها فى اهتمام بالغ ، هى نقص الخبرة الخاصة بالمقاومة الشعبية ، لدى الشباب الفرنسى ، الذى لم يحمل من قبل سلاحًا ، أو يواجه عدوًا شرسًا مواجهة مباشرة ..

ثم إن المقاومة الناجحة لا تعتمد على شجاعة الرجال وحماستهم وحدها ، بل تحتاج أيضًا إلى التنظيم والتنسيق ، والخبرة فى إدارة المجموعات ، وبناء الخلايا التنظيمية الصحيحة ..

لذا كان من الضرورى أن يتم توفير كل هذا للشباب الفرنسى ، حتى يتأهل للمقاومة الشعبية ، التى يمكن أن تحيل حياة المحتل النازى إلى جحيم ..

وهذا يساعد على تحرير (فرنسا) ..

ويرهق العدو ، الذى يستعد لغزو (إنجلترا) أيضًا ..

بجدية واهتمام كعادتهم ، راح البريطانيون يدرسون كيفية توفير المطلوب ، لكل الشباب الفرنسى ، من أجل المقاومة ..

فى البداية ، اقترح أحد رجال المخابرات البريطانية إرسال أحد الضباط المخضرمين لتدريب الشباب وتنسيقه ..

ولكن الاقتراح قوبل بالرفض الشديد ..

ففى موقف كهذا ، لن يتقبل الفرنسيون أبدًا فكرة وجود شخص بريطانى ، أيًا كان هدفه ، على رأس طلائع مقاومتهم ..

وهنا اقترح رجل آخر إجراء بحث شامل ، بين ضباط المخابرات الفرنسية السابقين ، لاختيار أحدهم ، للقيام بالمهمة المطلوبة ..

وتم رفض هذا الاقتراح أيضًا ، نظرًا لأنه ليس من المتوقع أن يدين الشخص المنتخب بأدنى ولاء للمخابرات البريطانية ، أو (بريطانيا) كلها ، مما يضع احتمالاً لأن ينفصل عنها ، ويدير الأمر كله بأسلوبه وطموحاته ، مما يعرض العملية كلها للخطر ..

أو على الأقل ، يحرم البريطانيين من السيطرة على الموقف كله ..

وهكذا وصل الأمر إلى طريق مسدود ، أو هذا ما بدا ، بحيث لم يَعُد بالإمكان تنفيذ هذا أو ذاك ، و ...

وفجأة ، وبعد يومين من التوتر والتفكير العميق ، خرج الكولونيل (جيمس) ، أحد أبرع رجال المخابرات البريطانية ، وصاحب الباع الطويل فى التجسس السوفيتى والنازى ، بفكرة جديدة وحاسمة ..

بل وجاء حاملاً كل الأوراق ، التى تجعل تنفيذها ممكنًا ..

وعلى مائدة الاجتماعات ، وضع الكولونيل (جيمس) كل أوراقه ..

لقد أمضى ليلتين كاملتين ، يراجع كل ملف فى المخابرات البريطانية كلها ، حتى توصل إلى شاب ، أدىَّ يومًا خدمة جليلة للمخابرات فى (الهند) ، ومن أب بريطانى وأم فرنسية ، ويجيد اللغتين إجادة تامة ، بالإضافة إلى أن ملامحه تشبه أمه ، بأكثر مما تشبه أبيه .

باختصار ، كان شابًا بريطانيًا ، تجرى فى عروقه الدماء الفرنسية ..

وكان من الطبيعى أن يوافقوا جميعًا على هذا الاقتراح ، مع تحفظ واحد ..

أن ذلك الشاب لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره بعد ..

ولكن الكولونيل (جيمس) أصر على أن سن الشاب هو أحد عوامل النجاح المتوقعة ، إذ إنه سيساعده حتمًا على الاندماج مع أوساط الشباب الفرنسى ، وتوجيه أفكارهم إلى المقاومة ، والعمل على تنظيم صفوفهم وتنسيق جهودهم ..

وفى نهاية الاجتماع ، وبعد ثلاث ساعات كاملة ، تمت الموافقة على العملية بالإجماع ، مع إسنادها إلى الكولونيل (جيمس) بالطبع ..

وفى مساء اليوم نفسه ، التقى الكولونيل (جيمس) بذلك الشاب ، الذى لم تتضمن الوثائق البريطانية اسمه الحقيقى ، وإنما رمزت إليه طوال الوقت باسم (دومينو) ..

ولقد أكد الكولونيل (جيمس) أن (دومينو) قد تحمس كثيرًا للفكرة ، وأبدى استعداده لبدء تدريباته على الفور ، حتى لا يضيع الكثير من الوقت ..

وبالفعل ، بدأت عمليات تدريب (دومينو) ، فى الثامنة والنصف ، من صباح اليوم التالى ..

ولقد كان الشاب قنبلة بالفعل ..

ففى ثلاثة أسابيع فحسب ، استوعب مهارات وخبرات ، يعجز عن استيعابها محترف ، خلال شهرين كاملين على الأقل .

ومع بداية الشهر التالى ، تقرر إرسال (دومينو) إلى (فرنسا) ، مع كل الأوراق والوثائق ، التى تمنحه هوية مقبولة ، وتتيح له التحرك ، فى وجود الاحتلال النازى البغيض ..

وفى ليلة غاب عنها القمر ، وبواسطة مظلة سوداء بسيطة ، هبط (دومينو) فى منطقة (اللورين) ؛ ليبدأ مهمته المعقدة ..

كانت المقاومة الفرنسية قد بدأت بالفعل ، وانضم إليها معظم الشباب الفرنسى ، الذى قال عنه (هتلر) : إنه لا يهتم إلا بالفن والعطور والثياب ، وراحت تكيل الضربة تلو الضربة للقوات النازية ، ولكن على نحو عشوائى غير منظم ، مما رفع من حجم الخسائر ، وأفسد الكثير من العمليات ، التى لم تتم دراستها على نحو كافٍ ..

وفى (باريس) ، وفى حرفية لا مثيل لها ، وجد (دومنيو) سبيله إلى تجمعات الشباب ، وراح يبدى حماسه للنضال ، ورغبته فى مقاومة المحتل ، وسرعان ما وجد من يقوده إلى حيث التقى بإحدى فرق المقاومة ..

ولقد أثبت له هذا أن هؤلاء الشبان المفعمين بالحماس ، يحتاجون إلى كثير من التنظيم والتنسيق ..

والخبرات أيضًا ..

وانضم (دومينو) إلى المقاومة الفرنسية عضوًا عاديًا فى البداية ، وشاركها فى اثنين من عملياتها الناجحة ، قبل أن يقترح إجراء بعض التعديلات ، التى لاقت قبولاً من الفرقة جميعها بلا استثناء ، حتى إن إحدى فتيات المقاومة هتفت به :

يا إلهى .. إنك عبقرى بحق يا (دومينو) .. كيف لم ننتبه إلى هذا من قبل ؟!

وكانت هذه هى البداية الحقيقية ..

فبعدها ، وبعد عملية قوية ، حققت المقاومة بها نصرًا رائعًا ، وأنعشت قلوب الفرنسيين ، وجن لها جنون النازيين ، وأصبح (دومينو) نجمًا ، من نجوم المقاومة الفرنسية .

وهنا ، بدأ الشاب نصف البريطانى يزاول العمل ، الذى جاء من أجله إلى (فرنسا) ..

وخلال الأشهر الثلاثة التالية ، ومع تدريبه لهم ، وتنظيمه لصفوفهم ، بدأ أفراد المقاومة الفرنسية يشعرون بالفارق

الضخم ، وبأنهم قد تحولوا ، من شُعَب صغيرة متناثرة ، إلى تنظيم قوى خبير ، يدرك جيدًا هدفه ، ويعرف بدقة متى وكيف يضرب ضربته ..

ويتداع طبيعى ، تطورت عمليات المقاومة ، وتحسنت وأصبحت أكثر دقة وقوة ، ومهارة ..

ومن انتصار إلى انتصار ، أصبحت المقاومة الفرنسية رمزًا للنضال والكفاح ، ضد المحتل النازى ، فى أوروبا كلها .

وفى (لندن) شعر البريطانيون بالارتياح والزهو ، لأن عمليتهم قد نجحت على أكمل وجه ، وبدأ الكولونيل (جيمس) أشبه ببطل قومى ، فى اجتماع المخابرات البريطانية الأخير ، الذى أثنى فيه رئيسه عليه ، ثم قال :

أعتقد أن الوقت قد حان لنجرى اتصالاتنا مع (دومينو) ، حتى نصبح على علم دائم بما يدور داخل (فرنسا) .

وبدأ الكولونيل (جيمس) محاولة الاتصال بعميله (دومينو) ..

ولكن الأمر لم يكن سهلاً كما تصور ..

لقد تحول (دومينو) إلى بطل من أبطال المقاومة الفرنسية ، وقائد من قادتها ، وأحد أهم منظميها ، مما ألقى على كاهله مسئوليات عديدة ، وأقحمه فى عمليات عديدة عنيفة ، نجح خلالها

فى إسقاط العشرات ، من جنود وضباط الجيش النازى ، على نحو جعل (هتلر) شخصيًا يعتبره أحد أهم وأخطر أعداء النازية ..

ولقد حاول الكولونيل (جيمس) الاتصال بعميله (دومينو) ..

حاول ، وحاول ، وحاول ..

وفى النهاية ، بدأ ، ولشدة هلعه ، يستوعب طبيعة الموقف ..

صحيح أن (دومينو) قد بدأ مهمته ، لحساب المخابرات البريطانية ، إلا أن الأمر قد تطور معه ، بحيث تغير اتجاهه على نحو غير متوقع على الإطلاق ..

نصف الدماء الفرنسى ، فى عروق (دومينو) طغى على نصفها البريطانى ، مع مواجهته للعدو وجهًا لوجه ، ومتابعته لما يفعله فى (فرنسا) ، وما يسعى لنشره فى العالم أجمع ، بكل وحشية وشراسة الدنيا ..

وانغمس الشاب فى القتال ، والكفاح ، والصراع ..

والمقاومة ..

وفى المرة الوحيدة التى تمكن فيها الكولونيل (جيمس) من الاتصال بعميله (دومينو) ، من خلال وسيط خاص ، لم يَرُق هذا قط للشاب ، الذى قال للوسيط فى صرامة :

ـ عد إلى (جيمس) ، وأخبره أن كل الطرق تقود إلى (روما) كما يقولون ، فالنازيون أعداء لنا جميعًا ، ولا فارق بين مقاومتهم هنا أو هناك .

واستقبل الكولونيل (جيمس) الرسالة فى توتر لا محدود ، إذ إنه ، وعلى الرغم من نجاح المخابرات البريطانية يبدو أشبه بفشل شخصى له هو نفسه ، لعجزه عن السيطرة على عميله فى النهاية .

ولكن (دومينو) ازداد عنادًا ، وانغماسًا فى قلب المقاومة الفرنسية ، حتى لم يعد هناك مفر من الاعتراف بما حدث ..

وفى الوقت نفسه ، الذى أعلن فيه الكولونيل (جيمس) هذا ، على مائدة اجتماعات المخابرات البريطانية ، تحت القصف النازى العنيف ، كان (دومينو) يواجه أعنف موقف ، فى حياته كلها ..

فمع عنف المقاومة الفرنسية ، أرسل (هتلر) أحد أشرس رجاله ، وهو الكولونيل (فون شبيجل) ، لسحق تلك المقاومة ، والقضاء عليها نهائيًا .

ولقد أعد (فون شبيجل) فخًا عبقريًا لرجال المقاومة الفرنسية .

فخ سقط فيه عدد من الرجال ..

من بينهم (دومينو) .

ومع شهرته وتاريخه ، ذاع أمر سقوط (دومينو) على نحو فجر الانفعال فى نفوس كل من يعرفونه ، وملأ أعماق (فون شبيجل) بزهو النصر ، وهو يبرق إلى (هتلر) بسقوط زعيم المقاومة الفرنسية ..

ودون تردد ، أصدر الفوهلر أمره بإعدام (دومينو) ، ليصبح عبرة لكل من تسول له نفسه مقاومة السلطات النازية ..

وفى زنزانته ، ومع الفريق الأسير ، من رجال وشباب المقاومة الفرنسية ، بدا (دومينو) هادئًا متماسكًا قويًا ، يحث كل الأسرى على الصمود والاحتمال ، ويحذرهم من الإفصاح عن أسماء رفقائهم ، حتى ولو قطع النازيون أطرافهم ، واحدًا بعد الآخر ..

ووسط كل هذا ، فوجئوا جميعًا بالوحش (فون شبيجل) عند زنزانتهم ..

وأمامهم جميعًا ، على مسمع منهم ، سأل (دومينو) :

ـ ما جنسيتك بالضبط ؟!

ابتسم (دومينو) فى سخرية ، قائلاً :

ـ أى سؤال هذا ؟!

رمقه (فون شبيجل) بنظرة نارية ، قبل أن يقول :

ـ البريطانيون عرضوا مبادلتك بواحد من أهم جواسيسنا ، الذى وقع فى قبضتهم ، منذ بضعة أيام ، وهم يفاوضوننا فى هذا ، من خلال وسيط سويسرى ، فى مبادرة لم تحدث من قبل ، ويؤكدون أنك لست فرنسيًا ، بل بريطانى الجنسية ..

أهذا صحيح ؟!

سرى التوتر بين رجال المقاومة ، وهو يحدقون فى وجه (دومينو) بدهشة مستنكرة ، فى حين شد هذا الأخير قامته ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلع إلى وجه (فون شبيجل) فى تحد شديد ..

إنه يطلب جوابًا واضحًا ..

جوابًا قد يعنى حياته كلها ، لو أنهم يميلون إلى قبول العرض البريطانى الفريد ..

وكان على (دومينو) أن يختار ، إما الحياة مع الاعتراف بجنسيته البريطانية ، أو الإصرار على جنسيته الفرنسية ، حتى ولو كان الموت هو ثمن هذا ..

واختار (دومينو) ..

وبكل حزم وصرامة الدنيا ، أجابه (دومينو) :

ـ أنا فرنسى قلبًا وقالبًا .

وارتاح (فون شبيجل) للجواب ..

وأصيب البريطانيون معه بإحباط عنيف ، كما تقول وثائقهم ، التى تتداولها الآن شبكة الإنترنت ، بعد خروجها من دائرة السرية المطلقة ..

وصدر قرار بإعدام (دومينو) ورفاقه ، فى صباح اليوم التالى مباشرة ..

فى السادسة والنصف صباحًا ، استعدت فرقة الإعدام النازية ، وارتفعت فوهات بنادقها نحو صدور (دومينو) ورفاقه ..

ودوت الرصاصات فى المنطقة كلها ..

ولكنها لم تكن رصاصات فرقة الإعدام النازية ..

بل رصاصات رجال المقاومة الفرنسية ..

مثلما يحدث فى أفلام السينما ، وفى اللحظات الأخيرة ، وبعملية بارعة متقنة ، انقضت المقاومة الفرنسية على النازيين ، وسحقتهم سحقًا ، فى واحدة من أنجح الضربات ، عبر تاريخها كله ..

ولقى (فون شبيجل) مصرعه فى هذه العملية ..

ونجا (دومينو) ، وثلاثة من رفاقه ..

نجا ، وقد أصبح فرنسيًا بالفعل ، قلبًا وقالبًا ، ليواصل قتال المحتل النازى ..

وليواصل المقاومة ..

حتى النصر ..

وبعد سقوط النازية ، واندحار الرايخ الثالث ، وتحرير (فرنسا) ، حصل (دومينو) على وسام الشجاعة ، وحمل الجنسية الفرنسية رسميًا ..

وربما لهذا لم تذكر الوثائق البريطانية اسمه الحقيقى ..

فبالنسبة إليهم ، كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة ، لعدم الاعتراف بالفشل ..

أو بمعنى أدق ، الوسيلة الوحيدة .. للمقاومة .

* * *

اليابانى ..

انهارت (بريطانيا) العظمى أو كادت ، فى تلك الشهور الأولى العصيبة ، فى الحرب العالمية الثانية ، وعلى الرغم من تاريخ إمبراطوريتها الاستعمارية العريقة ، التى وصفها أدباؤها يومًا بأنها لا تغيب عنها الشمس أبدًا ، نظرًا لاتساع رقعتها ، وامتدادها من الشرق إلى الغرب ، راود ساستها شعور بأنهم يعيشون لحظات النهاية ، والمشهد الأخير لتاريخهم ، الذى ربما تغرب عنه الشمس إلى أبد الآبدين ، فلا تقوم له قائمة مرة أخرى أبدًا ..

ولأن ساسة (بريطانيا) قد اشتهروا ، بأنهم أخبث أهل الأرض ـ بعد اليهود بالطبع ـ فقد رأوا أن الوسيلة الوحيدة ، والتى يمكن أن تعدل مسار الحرب ، وتقلبها على رءوس مشعليها ، من نازيى الرايخ الثالث ، هى أن تلقى الولايات المتحدة الأمريكية بثقلها كله فى المعركة.

وبأية وسيلة كانت ..

ولقد تم عرض الأمر على الأمريكيين بالفعل ، مشفوعًا بكل المبررات ، ذات الأسباب المنطقية الظاهرية ، القادرة على إقناعهم

بأن هذا فى صالح (أمريكا) نفسها ، وأنه أفضل وسيلة لتسجيل اسمها ، فى صفحات تاريخ ما بعد الحرب ..

ولكن الأمريكيين رفضوا الفكرة ، بل واستنكروها تمامًا ، وقد بدا لساستهم أنها مجرد محاولة خبيثة من البريطانيين ، لإقحامهم فى معركة قاسية ، لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، خاصة أن قارتهم بعيدة كل البعد عن منطقة الصراع الأوربية ، والآسيوية ، والإفريقية أيضًا ، فى نفس الوقت الذى بدأ فيه اقتصادها ينتعش ، بعد أزمة الثلاثينات الاقتصادية الطاحنة ، وعادت تروس مصانعها تدور ، لإنتاج أطنان السلاح ، الذى تحتاج إليه (بريطانيا) ودول المواجهة الأخرى ..

ومع تواصل المحاولات البريطانية ، وزيادة العناد والإصرار الأمريكى ، رأى رئيس الوزراء الإنجليزى الجديد (وينستون تشرشل) ، أنه ما من سبيل سلمى أو منطقى ، لدفع الأمريكيين إلى حلبة الصراع ، وأنه لا مناص من اللجوء إلى خدعة قوية .. وعنيفة أيضًا ..

ومن خلال خطة محكمة ، دبرها خبراء المخابرات البريطانية ، بالاشتراك مع رئيس الوزراء نفسه ، وباستخدام شفرة لاسلكية أمريكية قديمة ، داخل مجال أجهزة الاعتراض اليابانية ، تم إقناع إمبراطورية الشمس فى (اليابان) ، بأن الولايات المتحدة الأمريكية

تستعد لشن الحرب عليها بالفعل .. بل إن أسطولها يستعد لشن تلك الحرب المزعومة ، فى قاعدة (بيرل هاربور) الشهيرة ..

ولقد ابتلع اليابانيون الطعم ، وامتلأت نفوسهم بالقلق ، واجتمع قادتهم لدراسة الموقف ، وطرح كل الاحتمالات على مائدة البحث ، لتحديد الخطوة التالية الواجب اتخاذها ، لتفادى ذلك الهجوم الأمريكى الوهمى ..

ولأن اليابانيين ليسوا بالسذاجة ، التى تؤهلهم لتصديق أمر رهيب كهذا ، واتخاذ الإجراءات ضده ، دون التيقن منه ، فقد كانت أولى خطواتهم هى التحقق من صحة ما لديهم من معلومات .

وتم إسناد مهمة القيام بهذه الخطوة إلى الرجل المناسب ، الذى لم يكن سوى مدير المخابرات اليابانية ، والمسئول الأول عن كل النشاطات المعادية لإمبراطورية (اليابان) العظمى ، فى كل أنحاء العالم.

وإحقاقًا للحق ، لابد وأن نذكر هنا ، أنه ، وعلى الرغم من هزيمة (اليابان) فيما بعد ، فقد كانت تمتلك واحدًا من أفضل وأقوى أجهزة المخابرات ، التى عرفها تاريخ الحرب العالمية الثانية ، وأكثرها تنظيمًا وانتشارًا ، وإن حالت الهزيمة دون أن يحظى بالتقدير والتسجيل المناسبين فى تاريخ الجاسوسية والمخابرات .

وعندما تلقى مدير المخابرات اليابانية الأمر ، كان عليه أن يستفيد من هذا النظام الدقيق ، إلى أقصى حد ممكن ، لذا فقد عاد إلى ملفاته السرية ، واستخرج منها قائمة دقيقة للغاية ، بأسماء كل عملاء المخابرات اليابانية ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، من أقصاها إلى أقصاها ..

وبسرعة ، وقع اختياره على (تاناكا) ..

و(تاناكا) هذا هو الاسم الكودى لعميل نصف يابانى (لم يفصح عن اسمه الحقيقى قط) ، ولد على الأرض الأمريكية ، من أب أمريكى وأم يابانية ، ربطتهما قصة حب قوية ، فى أوائل القرن العشرين ، وارتبطا بزواج مدنى ، أسفر عن إنجاب ابن واحد ، حمل ملامح والده الأمريكى ، وبشرة أمه اليابانية ، وحمل فى السجلات الرسمية اسمًا أمريكيًا صرفًا ، اشترك مع ملامحه فى إخفاء نصفه اليابانى تمامًا ..

وعلى الرغم من تفوق الأب الأمريكى ، فى منح ابنه الملامح والاسم والجنسية ، فقد حققت الأم اليابانية انتصارًا ساحقًا بحق ، عندما زرعت فى أعماق ابنها وكيانه كل التقاليد اليابانية القديمة ، وجعلته ، على الرغم من هويته الأمريكية الرسمية ، يابانى النزعة ، قلبًا وقالبًا ، بل وكيانًا ومشاعر أيضًا .

ولقد اتضح هذا بشدة ، عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، التى شاركت فيها (اليابان) ، فى عام 1939م ، إلى جوار (ألمانيا) و(إيطاليا) ، فى نفس الوقت الذى تعاطفت فيه الولايات المتحدة الأمريكية رسميًا ، مع (بريطانيا) العظمى ، ودول (أوربا) ، التى سقطت تباعًا ، فى قبضة النازية.

فمع اندلاع الحرب ، وتحديد موقف (أمريكا) رسميًا ، استغل (تاناكا) علاقاته باليابانيين المهاجرين ، وحدد موعدًا مع أحد مسئولى المخابرات اليابانية ، وأثناء لقائهما السرى ، وضع كل خدماته ، بل وحياته نفسها تحت علم (اليابان) وبمنتهى الصدق والإخلاص .

ولسبب ما ، وربما هو حسن الحظ فحسب ، انتقل (تاناكا) للعمل فى جزيرة (أوهايو) ، إحدى جزر (هاواى) ، شمال القاعدة البحرية الأمريكية ، فى (بيرل هاربور) ..

ولقد ظل (تاناكا) يتابع الموقف فى القاعدة البحرية ، دون أوامر مباشرة من رؤسائه اليابانيين ، ويسجل كل ملاحظاته عنها ، فى سجل خاص به ، مرتكبًا بهذا مخالفتين خطيرتين ، فى عالم الجاسوسية ، وقواعد علم المخابرات ..

فالجاسوس ، أى جاسوس ، لا ينبغى له أن يبدأ عمله ، إلا إذا تلقى أمرًا واضحًا بهذا ، إذ إن تحركه فى وقت غير مناسب ، أو غير

مدروس ، قد يؤدى إلى كشف أمره ، وسقوطه قبل أن يحقق أية فائدة تذكر ..

ثم إنه لا ينبغى أن يدون ما يحصل عليه من معلومات أبدًا ، حتى لا يصبح هذا دليلاً ماديًا على تورطه ، إذا ما سقطت فى قبضة خصومه ..

ولكن من الواضح أن (تاناكا) لم يكن قد تلقى تدريبًا كافيًا بعد ، ربما لضيق الوقت ، قبل أن يعلم أنه صار يعمل لحساب اليابانيين .

وفى منتصف عام 1941م ، تلقى (تاناكا) ذلك الأمر المباشر ، ببدء عمله رسميًا ، والذى تضمن سؤالاً واحدًا ، يلخص مهمته المقبلة كلها .

ترى هل يستعد الأمريكيون بالفعل ، لشن غارة هجومية على (اليابان) ؟!

ولأن (تاناكا) لم يتلق تدريبًا كافيًا ، فقد أساء فهم الموقف كله ، (وهذا خطأ المخابرات اليابانية بالدرجة الأولى ، وتصور أن مهمته هى تأكيد الجواب بالإيجاب ، لا تحرى الأمر فحسب .

لذا ، فقد بدأ (تاناكا) مهمته ، بأكبر خطأ يمكن أن يقع فيه أى جاسوس ، فى أى جهاز مخابرات فى العالم بالتعسف لحساب نتيجة بعينها ..

فالواقع أن (بيرل هاربور) كانت ، فى تلك الأيام ، صورة مخزية للإهمال والاستهتار واللامبالاة ، من الجانب الأمريكى ، إذ إن الشعور ، الذى كان يسود ، فى تلك الآونة ، هو أن الولايات المتحدة الأمريكية بعيدة كل البعد عن ساحة المعركة ، التى تدور رحاها فى (أوروبا) و(آسيا) بالدرجة الأولى ، مع امتداد محدود فى (إفريقيا) ، وأن المحيط الأطلنطى ، بضخامته واتساعه ، يفصلها تمامًا عن كل خطوط المواجهة ، بحيث يستحيل أن يمتد إليها القتال ، على أية صورة من الصور ، فى أى وقت كان .

ثم إن (بيرل هاربور) كانت فى الأصل مكانًا لإصلاح السفن والمدمرات ، وكان بعض ضباط وجنود البحرية الأمريكية يعتبرون أنفسهم محظوظين ، إذا ما تم نقلهم إليها ، باعتبار أنهم سيستمتعون هناك بالهواء المنعش ، والشمس المشرقة ، والاسترخاء بلا حدود .

وفى تلك الفترات ، التى اشتعلت فيها الأمور سرًا ، فى (بريطانيا) و(اليابان) ، كان ضباط وجنود البحرية الأمريكية يسترخون على أسطح مدمراتهم ، وعيونهم مغلقة خلف مناظيرهم الشمسية ، وبعضهم منشغل بممارسة رياضة الجولف ، فى وديان الجزيرة الخضراء اليانعة المشرقة .

ولكن (تاناكا) لم يرد هذا ، على الرغم من وضوحه فعمليات

إصلاح السفن ، وتنظيف أسطحها ، وتلميع مدافعها ، بدت له أشبه بحالة استعداد للحرب ، أما وجود عدد كبير من المدمرات ، فهو حشد للقوات ، وحتى حالات الكسل والاسترخاء ، بدت بالنسبة له نوعًا من التمويه والخداع ، ربما لأنه لم يصدق أن يتصرف جنود وضباط بهذا الاستهتار وهذه اللامبالاة ، وهم على أعتاب حرب ، من وجهة نظره على الأقل .

وحتى تكتمل الصورة ، لم يرسل (تاناكا) تقاريره ، كما ينبغى أن يفعل أى جاسوس محترف ومحترم. فالمنطقى والعقلانى ، والمتعارف عليه فى عالم المخابرات ، أن يرسل الجاسوس ما يراه أمامه فحسب ، وأن يصف ما يحدث بمنتهى الدقة ، ثم يترك للخبراء بعدها مهمة التفسير والتنسيق وتحليل المعلومات.

ولكن (تاناكا) لم يفعل هذا ..

لقد أرسل تقريرًا يحوى وجهة نظره ، ليؤكد أن الأسطول الأمريكى يستعد للحرب ، ويُعِد أسلحته ، وينظمها ، ويحيط كل هذا بحالة من التمويه والخداع .. لإخفاء هدفه الحقيقى ..

والطريف أن التقرير الذى أرسله (تاناكا) قد وقع فى قبضة المخابرات البريطانية ، قبل أن يصل إلى اليابانيين ، وأنه قد تم إرسال نسخة عاجلة منه ، إلى رئيس الوزراء (ونستون

تشرشل) شخصيًا ، فلم يكد يطالعه ، حتى تألقت عيناه ، ولاك طرف سيجاره الضخم بأسنانه ، قبل أن يبتسم ابتسامته الوقور الرصين ، قائلاً فى هدوء مستفز :

ـ من الواضح أن جاسوسهم هناك حمار .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ وهذا من حسن حظنا .

وأمر بعدها بأن يكمل التقرير طريقه على الفور .

وهذا ما كان ..

وعندما استقبل اليابانيون تقرير (تاناكا) ، ارتكبوا أكبر خطأ فى العملية كلها ، إذ إنهم قد صدقوا كل حرف منه على الفور ، لمجرد أنه يتفق مع تصورهم المسبق للأمر كله على الرغم من أن ما سيترتب على هذا قد يغير مسار التاريخ كله ..

وهذا ما حدث بالفعل ، فبناء على التقرير الرسمى ، الذى قدمه مدير المخابرات اليابانية ، أصدر إمبراطور اليابان قراره ، بشن غارة وقائية ، على الأسطول الأمريكى فى (بيرل هاربور) ، قبل أن يكمل استعداداته ، للهجوم على السواحل اليابانية فيما بعد ..

وكوسيلة للتمويه ، بدأ اليابانيون مفاوضات رسمية مع حكومة

الولايات المتحدة الأمريكية فى (واشنطن) فى بدايات ديسمبر 1941م ، فى نفس الوقت الذى تحرك فيه الأسطول اليابانى بالفعل ، فى اتجاه جزيرة (أوهايو) ، وميناء (بيرل هاربور) .

وفى السابع من ديسمبر 1941م ، وبينما لايزال المفاوضون اليابانيون فى واشنطن ، انقضت الطائرات اليابانية على ميناء (بيرل هاربور) وبدأت قصفها العنيف ، فى ساعة مبكرة للغاية ..

وكانت مفاجأة حقيقية للأمريكيين ، الذين انهالت عليهم القنابل اليابانية ، قبل أن يفيقوا من أثر النوم ، أو يبدءوا حتى عمليات التنظيف اليومية ، وعمليات الإصلاح المعتادة ..

بل إن بعض ضباط البحرية كانوا منهمكين فى مباراة جولف حامية ، عندما عبرت الطائرات اليابانية فوق رؤسهم مباشرة ..

ولأن (تاناكا) لم يكن محترفًا بكل المقاييس ، فقد شمله حماس عارم ، عندما رأى سفن الأسطول الأمريكى تتحطم وتغرق أمام عينيه ، بفعل القنابل اليابانية ، وراح يصرخ بلغة أمه ، لتحية اليابانيين ، وحثهم على الضرب أكثر ، وأكثر ، وأكثر ..

وكان من الطبيعى أن ينكشف أمره ، مع انفعاله العجيب هذا ، وأن يهب بعض زملاء عمله ، فى محاولة لإلقاء القبض عليه ، تحت وطأة القنابل والانفجارات ..

ولكن المدهش أن (تاناكا) لم يقع فى قبضتهم قط. فبحكم نشأته ، فى كنف أمه اليابانية ، كان يجيد القتال ، ورياضات الدفاع عن النفس ، بمهارة تفوق خصومه مجتمعين ..

لذا فقد أفلت منهم ، وأسرع يفر من المكان ، تحت قصف المدافع المضادة للطائرات ، وانفجارات قذائف اليابانيين ، التى انهالت على رءوس الأمريكيين بلا رحمة أو هوادة ..

وانشغلوا جميعًا بما يحدث ، وبمحاولة النجاة بأنفسهم ، والفرار بأرواحهم ، فى ذلك الجحيم المستعر ، الذى لا يبقى ولا يذر ، دون أن يفكر أحد فى أمر ذلك الجاسوس اليابانى الفار ..

وانتهت الغارة بسرعة ، وانسحبت الطائرات اليابانية ، تاركة خلفها أسطولاً أمريكيًا محطمًا ، وكرامة أمريكية جريحة ، تنزف بلا انقطاع ..

وبسرعة ، وتمامًا كما توقع رئيس الوزراء البريطانى ، اندفعت الولايات المتحدة الأمريكية ، تعلن الحرب على (اليابان) ..

وتدخل بثقلها الحرب العالمية الثانية ..

تمامًا كما خطط ودبر (وينستون تشرشل) ، الذى انتفخت أوداجه زهوًا ، وهو يتراجع فى مقعده الكبير الوثير ، وينفث دخان سيجاره الضخم ، قائلاً فى ثقة ، تحمل سلفًا رائحة النصر:

ـ الآن انقلبت الموازين ، وبدأت كفة الحرب تميل نحونا وكان على حق كعادته ، فدخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى الساحة قلب كل الموازين ، وأربك الخطط النازية تمامًا ، وأخل بتوازن القوى ، على نحو بدأت معه الهزائم تنهال على الجانبين ، الألمانى واليابانى ، لتغير دفة الحرب كلها ، فى اتجاه الحلفاء .

وراح النازيون يتراجعون ، ويتراجعون ، لتهبط قوات الحلفاء فى (نورماندى) فى السادس من يونيو 1944م ، ثم تتحرر (فرنسا) كلها ، فى أواخر العام نفسه ، وبعدها تنهار مقاومة (ألمانيا) فى إبريل 1945م ، لتعلن استسلامها بلا شروط ، فى السابع من مايو ..

وبقيت (اليابان) وحدها فى الساحة ، تقاوم بلا أمل ، حتى أسقطت عليها الولايات المتحدة الأمريكية ثأرها ، متمثلاً فى قنبلتين ذريتين ، أزالتا (هيروشيما) و(نجازاكى) من الوجود تمامًا ، فى أغسطس 1945م.

وهنا ، أعلنت (اليابان) استسلامها غير المشروط ، ووقعت وثيقة الاستسلام فى الثانى من سبتمبر 1945م .

وانتهت الحرب ، وتسلمت (أمريكا) كل وثائق المخابرات اليابانية ، وقائمة بكل جواسيسها فى العالم كله ..

كانت تنقصها بضع صفحات ، ربما تم إتلافها عمدًا ، لسبب أو لآخر ..

ومن بين تلك الصفحات الناقصة ، كانت بيانات (تاناكا) الأمريكية الحقيقية ..

والعجيب أنه مع احتراق الملفات فى (بيرل هاربور) وضياع تلك الصفحات فى (طوكيو) ، ضاع أثر الجاسوس اليابانى ، الذى وصفه رئيس الوزراء البريطانى يومًا بأنه مجرد (حمار) ..

وعلى الرغم من قلة خبرته ، اختفى (تاناكا) تمامًا ، من قلب المجتمع الأمريكى ، ولم يعثر له على أثر قط ..

أو هكذا تقول التقارير الرسمية على الأقل ..

فربما لقى الرجل مصرعه ، فى هجوم (بيرل هاربور) أو ذاب فى مجتمع ما بعد الحرب ، فى (أمريكا) أو (أوروبا) أو ظهر باسم جديد أو هوية جديدة ، أو أنه يعمل الآن لحساب الأمريكيين ، أو كان كذلك لبعض الوقت ..

من يدرى ؟!.. إنه عالم المخابرات ، الذى كان وأصبح ، وسيظل أبدًا لغزًا غامضًا على كل المستويات .. نعم .. من يدرى ؟!..

* * *

بمجرد الشك ..

فجأة ، احتلت القوات النازية (النمسا) ..

وفى العالم كله ، أدرك الجميع أن الأمر لن يقتصر على هذا الاحتلال ، الذى بررته (ألمانيا) النازية بأنه استعادة لحق خسرته بسبب معاهدة (فرساى) ، بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ..

ومع خطب (أدولف هتلر) الملتهبة ، وتصريحاته النازية ، واستعراضاته المزهوة للقوات النازية ، والجيوش الألمانية ، التى عمل على تنميتها وتطويرها سرًا ، بات من الواضح أن الرايخ الثالث لن يكتفى بما استعاد ، ولكن طموحاته ستمتد حتمًا إلى ما هو أبعد من هذا .. أبعد بكثير .

وفى معظم دول (أوروبا) ، وعلى الرغم من الجهود الدبلوماسية ، التى تسعى لمنع امتداد الحرب النازية إلى القارة ، بدأت الجيوش تتأهب وتستعد لاعتداءات عسكرية محتملة من قبل جنود (هتلر) ، الذى أصبح من الواضح أن أحلامه تشمل (أوروبا) وما وراء (أوروبا) .

وفى (فرنسا) بدأ الجيش يستعد للحرب القادمة ، ويتأهب لصد الجيش النازى القادم ، ويشن فى الوقت ذاته حرب نفسية ، فى محاولة لمنع الاعتداء على حدوده ..

ومنذ الحرب العالمية ، كان الفرنسيون يتباهون دومًا بسلاح فرسانهم ، الذى حقق انتصارات مبهرة ، جعلته رمزًا للتفوق العسكرى الفرنسى ، على الرغم من أنه يتكون فى مجمله من راكبى الجياد المقاتلين .

حتى جواد سلاح الفرسان ، كان رمزًا للقوة والنبل والزعامة .

ومن أجل هذا راح الفرنسيون يتحدثون عن سلاح فرسانهم ، وانتصاراته ، ويستعيدون بطولاته وغزواته ..

وعلى الجانب الآخر ، وعلى الرغم من ثقة النازيين فى جيشهم وقوته ، إلا أن وزير الدعاية (جوبلز) شعر بالقلق الخطر ، من تأثير تلك الدعايات الفرنسية على جنود الجيش النازى ، عندما تحين لحظة المواجهة .

ولأن مخاوفه كانت تستند إلى موهبة وخبرة حقيقتين فى مجال الحرب النفسية ، فقد كان من الطبيعى أن تنتقل إلى (أدولف هتلر) نفسه ، عندما صارحه بالأمر ، حتى أن الفوهلر قد قال فى صراحة :

ـ هذا الأمر أخطر من اللازم ، ولابد من اتخاذ إجراء حاسم وحازم .

بشأنه ..

ثم تضاعفت صرامته ، وهو يدق سطح مكتبه بقبضته مضيفا :

ـ أريد (هملر) .. فورًا .

لم تمضِ دقائق على قوله هذا ، حتى كان قائد (الجستابو) وشيطانه يقف أمام (الفوهلر) الذى أمر وزير الدعاية أن ينقل إليه مخاوفه ، ثم قال :

ـ لابد أن نحطم دعاية الفرنسيين قبل أن تحطم هى معنويات جنودنا ..

شد (هملر) قامته ، وقال فى حزم :

ـ سنجد وسيلة لذلك أيها الفوهلر .

سأله (هتلر) فى صرامة :

ـ متى ؟!

التقى حاجبا (هملر) ، وهو يجيب :

ـ فى أقرب وأسرع وقت ممكن .

بعدها بساعة واحدة ، كان يجلس على رأس مائدة الاجتماعات ، فى المقر الرئيسى (للجستابو) ، والمعروف لدى العامة باسم (بيت الثعالب) ، للبحث عن وسيلة لتنفيذ أوامر الفوهلر ..

وبأنجح وأسرع وسيلة ممكنة .

وبكل حماس ، ألقى الرجال عشرات الاقتراحات والأفكار ، والاحتمالات .

ولكن أيًا منها لم يُقنع (هملر) قط ..

كانت كلها اقتراحات تقليدية ، بطيئة ، تحتاج إلى إعداد طويل ، وترتيبات معقدة ، لا يمكن أن تحقق ما طالب به الفوهلر ..

السرعة والنجاح ..

ثم حان دور أكثر رجاله ذكاء وبراعة .. (إيريك فون كلايست) ، عبقرى المخابرات الألمانية ، طوال العهد النازى ..

فكعادته ، اكتفى (فون كلايست) بالاستماع طويلاً ، قبل أن يشير بيده ، متسائلاً فى هدوء :

ـ علام يعتمد سلاح الفرسان ؟!

أجابه أحد الرجال فى حذر ، وهو يتساءل عن مغزى السؤال :

ـ على القوة والبسالة ، و ...

قاطعه (فون كلايست) ، وهو يعتدل ، قائلاً :

ـ لست أقصد هذا .. بل أقصد ما وسيلته الرئيسة ؟!

أجاب رجل آخر فى تردد ..

ـ الخيول .

هتف (فون كلايست) ، فى حماس مباغت :

ـ بالضبط .

بدا الاهتمام على وجه (هملر) الذى يعرف رجله جيدًا ، ويدرك ويثق فى أن فكرته ستحمل الحداثة والذكاء معًا ، فى حين مال (فون كلايست) إلى الأمام ، وتابع بنفس الحماس ، الذى أضيف إليه قدر من الحزم :

ـ القضاء على سلاح الفرسان الفرنسى لا يتأتى إذن ، إلا بالقضاء على خيوله .

تألقت عينا (هملر) وهو يسأله فى لهفة :

ـ وكيف هذا ؟!

هتف أحد الرجال محاولاً انتزاع السبق :

ـ ندس لها السم .

استدار إليه (هملر) بحركة حادة ، فى حين ابتسم (فون كلايست) فى سخرية ، وقال :

ـ وسيلة ساذجة وسخيفة ! فعمل كهذا صريح ومباشر أكثر مما ينبغى ، ثم إنه سينبه الفرنسيين إلى وجود عدو يتربص بهم ، وهذا يتنافى مع قواعد المفاجأة فى الحروب .

تساءل رجل آخر فى حيرة :

ـ وهل توجد وسيلة أخرى ؟!

ابتسم (فون كلايست) ابتسامة كبيرة ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

اشتعلت عيونهم جميعًا باللهفة لمعرفة ما لديه ، حتى عينا (هملر) نفسه ، إلا أن (فون كلايست) تطلع إلى هذا الأخير مباشرة ، وقال فى حزم صارم :

ـ ولكن الأمر ينبغى أن يقتصر على أقل عدد ممكن ، لضمان السرية المطلقة ، التى هى أحد عوامل نجاح الأمر بالتأكيد .

مضت لحظة من الصمت ، والكل ينقل بصره فى حذر ، بين (فون كلايست) و(هملر) ، قبل أن يعتدل هذا الأخير فى صرامة ، قائلاً :

ـ تعال يا (فون كلايست) .. سنتحدث فى مكتبى .

قالها ، ونهض من مقعده ، واتجه فورًا إلى مكتبه ، وتبعه (فون كلايست) فى صمت ، فى حين نهض الباقون فى صمت واحترام ، وعيونهم تكاد تحرق الأخير ، من فرط الحسد والغيظ ..

وفى مكتب (هملر) ، شرح (فون كلايست) فكرته .. وانبهر (هملر) ..

بل تفجرت كل انفعالاته فى أعماقه ، على نحو لم يحدث من قبل قط ..

فخطة (فون كلايست) كانت بسيطة وعبقرية ..

إلى أقصى حد ..

وعندما نقل قائد (الجستابو) الخطة للفوهلر ـ دون أن يشير إلى (فون كلايست) بالطبع ـ ارتفع حاجباه ، وتألقت فى عينيه ابتسامة ، ضلت طريقها إلى شفتيه ، وهو يقول :

ـ رائع يا (هملر) .. رائع .

ثم عاد حاجباه ينعقدان ، فى صرامته المعهودة ، وهو يضيف :

ـ نفذ فورًا .

وبعد دقائق قليلة ، نقل (هملر) الأمر لرجله العبقرى (فون كلايست) ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة كعادته ، بدأ (فون كلايست) التنفيذ ..

وفى الليلة نفسها ، تلقى أحد جواسيس النازى فى (باريس) رسالة لاسلكية مشفرة ، تحمل أوامر صارمة ..

وذلك الجاسوس لم يتم اختياره عبثًا ، بل بدقة بالغة ، نظرًا لصداقاته القوية مع قائد سلاح الفرسان الفرنسى ، وقدرته على الدخول معه إلى إسطبلات الخيول الخاصة بالسلاح .

وكانت الأوامر غريبة ، فقد طُلب منه أن يتجه إلى منطقة بعينها ، خارج حدود (باريس) ، حيث سيتم تسليمه أمرًا خاصًا جدًا .

وكما تقتضى الأوامر ، انتظر الجاسوس حتى منتصف الليل ، ثم استقل سيارته ، واتجه بها إلى نقطة اللقاء ..

وهناك انتظر .. وانتظر .. وانتظر ..

كانت الأوامر أن يلتقى بعميل سرّىّ آخر ، ما بين الواحدة والثالثة صباحًا ..

وعندما اقتربت عقارب الساعة من الثالثة ، شعر الجاسوس بقلق بالغ ، وبدأ قلبه يخفق فى عنف وأطرافه ترتجف ..

وفجأة لمح مظلة صغيرة تهبط من الجو ..

مظلة داكنة ، لولا وجوده فى هذه البقعة بالذات ، لما لمحها قط ، حتى ولو كان حاد البصر ، على نحو ينافس الطيارين المقاتلين .

ولوهلة ، همَّ الرجل بالاندفاع نحو البقعة التى هبطت عندها المظلة ، ثم لم يلبث أن تذكر الأوامر الصارمة ، بألا يغادر موقعه ، مهما تكن الأسباب ..

واقتربت عقارب الساعة من الثالثة أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

ثم فجأة سمع من خلفه صوتًا أنثويًا ، يقول فى خفوت :

ـ معذرة ، لقد استغرقت بعض الوقت للعثور على الشحنة .

استدار فى حركة حادة متوترة إلى صاحبة الصوت ، التى بدت له رائعة الحسن والجمال ، وهى تقدم له صندوقًا صغيرًا ، فى حجم علبة ثقاب ، وهى تواصل فى حزم ، لا يتناسب مع أنوثتها الطاغية :

ـ إياك أن تفتحه ، حتى تصل الأوامر بذلك .

أومأ برأسه ، مغمغمًا فى انبهار :

ـ بالتأكيد .

قبض بأصابعه على الصندوق الصغير فى قوة ، فى حين استدارت هى لتنصرف ، فهتف بها فى لهفة .

ـ ألن أعرف اسمك على الأقل ؟!

استدارت تنظر إليه فى صرامة ، وتجيب :

ـ كلاً .

نطقتها ، ثم اندفعت تختفى وسط الأشجار ، فتابعها ببصره فى لهفة ، محاولاً اختراق الظلام والأغصان المتشابكة ، إلا أنه لم ينجح فى هذا ، فعاد أدراجه ، وقاد سيارته إلى منزله ، وأصابعه مازالت تقبض على الصندوق الصغير ، الذى أخفاه بمنتهى الدقة والعناية ، فى ركن خفى فى مكتبته ، وهو يتساءل عما يمكن أن يحويه صندوق صغير كهذا !!

وفى اليوم التالى مباشرة ، وصلته رسالة لاسلكية ، تطالبه بدفع صديقه ، قائد سلاح الفرسان ، إلى اصطحابه لزيارة إسطبلات الخيول الرئيسة .

ولأن الرجل معروف فى (باريس) بحبه الشديد للخيول ، واهتمامه بها ، فقد كان من السهل عليه أن يجد حجة تقنع صديقه قائد سلاح الفرسان ، باصطحابه فى عطلة نهاية الأسبوع ، إلى الإسطبلات الرئيسة للسلاح .

وعندما وصلت الرسالة اللاسلكية ، التى بعثها الجاسوس فى (باريس) ، إلى مكتب (فون كلايست) فى برلين ، تألقت عينا هذا الأخير ، وقال لمساعده فى حزم :

ـ ابدأ استعدادات المرحلة الثانية فى الخطة .

وكان هذا يعنى إرسال رسالة لاسلكية شفرية جديدة ، إلى ذلك الجاسوس الخاص فى قلب (باريس) .

رسالة تحدد له مهمته بدقة .

ولقد كانت دهشة الجاسوس عارمة ، عندما استقبل تلك الأوامر الجديدة ، حتى إنه قد نهض على الفور ، وأخرج ذلك الصندوق الصغير من مخبئـه ، وارتدى قفازيـه ، كما تقتضى التعليمات ، قبل أن يفتحه بمنتهى الحذر ..

ثم اتسعت عيناه عن آخرهما ..

فما وجده داخل الصندوق ، وما أشارت إليـه أوامر (برلين) كان عجيبًا ومدهشًا بحق ..

وبنفس العناية ، أعاد الجاسوس إغلاق الصندوق الصغير ، وهو يتساءل فى انبهار عن العبقرى ، الذى وضع خطة كهذه .

وفى نهاية الأسبوع ، عاد يخرج الصندوق الصغير من مكمنـه ، ويدسه فى جيب معطفه ، قبل أن يذهب للقاء سلاح الفرسان ، ليصطحبه إلى الإسطبلات الرئيسة للسلاح .

وهناك راح الاثنان يتحدثان فى حماس عن الخيول ، وأنواعها ، وقوتها ، والتدريبات القتالية التى تتلقاها ، و ...

وفى حذر شديد ، وبينما يرتدى قفازيه ، وفى غفلة من قائد السلاح ، فتح الجاسوس ذلك الصندوق الصغير ، والتقط ما يرقد داخله ..

إبرة صغيرة ..

نعم .. مجرد إبرة صغيرة ، التقطها الجاسوس ، ودسها بين سبابته ووسطاه ، وتظاهر بالتربيت على عنق أحد الجياد ، ثم نفذ الأوامر .

شكة صغيرة بالإبرة فى عنق الجواد ، ثم فى عنق ثان .. وثالث .. ورابع ..

وبهذا انتهت مهمته ، وألقى الإبرة الصغيرة من بين أصابعه ، واستعاد ابتسامته ، وواصل جولته مع قائد السلاح .

وعند عودته فى المساء ، أرسل رسالة لاسلكية إلى (برلين) ليخبرها أن المهمة قد تم تنفيذها بنجاح .

ولا أحد يمكنه أن يتصور سعادة (هملر) ، عندما أبلغه (فون كلايست) الخبر ، ولا تلك الابتسامة التى سجلت نفسها فى تاريخ شفتى الفوهلر وهو يقول فى حزم :

الآن يمكننا القول بأننا قد دمرنا سلاح الفرسان الفرنسى ..

وخلال أيام قليلة ، ظهرت أربع حالات إصابة بالجمرة الخبيثة ، بين خيول سلاح الفرسان الفرنسى .

وبسرعة مخيفة ، انتشرت العدوى بين الخيول كلها ، والتى

راحت تنفق وتقضى نحبها ، وكأنها كومة من القش ، اشتعلت بها النيران .

وعلى الرغم من المحاولات المستميتة للأطباء البيطريين الفرنسيين ، ومن الذهول الذى أصاب ضباط وجنود سلاح الفرسان ، تساقطت خيوله كلها جثثًا هامدة ، فى غضون أقل من شهر واحد .

وكانت صدمة رهيبة للفرسان ، والجيش الفرنسى ، والشعب كله أيضًا ، فالزهو الذى ملأ القلوب كلها تحطم وانكسر ، وانسحق وسقط دفعة واحدة .

وبلا رحمة ..

وعلى الجانب الآخر ، كان لسقوط سلاح الفرسان الفرنسى دويًا هائلاً ، وسط الجيش النازى ، الذى بدا له أن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله ، على الرغم من أن الأحداث التالية قد أثبتت أنه لم يكن له ثقل يذكر ، فى مواجهة الطائرات والمدافع والمدرعات الألمانية .

ولكنه كان انتصارًا نفسيًا ومعنويًا ، على أرفع مستوى .

ولم يعد أمام الفرنسيين سوى خط (ماجينو) الشهير ، ليتباهوا به ، وبقوته ، ومناعته ، وقدرته على صد أى هجوم ممكن .

ولكن الانتصارات المعنوية يكون تأثيرها فى بعض الأحيان ، أقوى من أية انتصارات عسكرية فى أعقد وأعنف الحروب .

بفضل شعورهم بالتفوق والزهو ، واجه النازيون خط (ماجينو) فى ثقة ، وهبط جنود مظلاتهم خلفه ، وانقضوا عليه من حيث لا يتوقع الفرنسيون .

وانتصر الألمان على الفرنسيين ، ودخلوا (باريس) بعد أربعة عشر يومًا فحسب من القتال وهزَّ انتصارهم الساحق هذا (أوروبا) كلها ، من أقصاها إلى أقصاها ، دون أن يخطر ببال محلل واحد أن كل هذا الانتصار قد جاء بمجرد الشك .. بإبرة !

* * *

حـرب الـورق ..

كل شىء كان يسير على ما يرام ، بالنسبة للجيـوش النازيـة ، فى تلك الفترة من بدايات الحرب العالميـة الثانيـة ، بعد أن اجتـاحت (أوروبا) ، وحققت انتصارات مذهلة ، على كل الجبهـات ، فـى (النمسا) ، و(بولندا) ، و(فرنسا) ، وغيرها ..

وانتفخت أوداج جنرالات الرايخ الثـالث بزهـوة النصـر ، وراح الفوهلر (أدولف هتلر) يخطط لحكم العالم أجمـع بعد سقوط عدوه اللدود (إنجلترا) التى يحشد كل جيوشه وقواته لاجتياحها ، وغرس علم النازية فى قلب عاصمتها ..

ولأن الحروب تحتـاج إلـى انتصـارات نفسية ومعنويـة ، بقـدر احتياجاتها إلـى الانتصـارات العسكرية ، فقد راح وزيـر الدعايـة (جوبلز) يضـع خططـه بـدوره ، ويبحـث عن الوسـائل الجديـدة والمبتكرة ، لتحطيم الروح المعنوية للبريطانيين ، وإقنـاعهم بضعف قادتهم ، وعدم قدرتهم على التصدى للجيش النازى المخيف ..

وأنشـأ (جوبلـز) محطـة إذاعيـة خاصـة ، تبـث أخبـارًا زائفـة بالإنجليزية والهولندية ، ليتصور خصوم (ألمانيا) النازية أنهـا قد أصبحت أشبه بسيل جارف ، يبتلع كل ما يعترض طريقه ، أيًّا كان ..

وردًا على أسلوبه هذا ، أنشأت (إنجلـترا) محطـة إذاعيـة منافسة ، تبث كل ما من شأنه تحطيم معنويات الألمـان ، وإشعارهم بأن قيادتهم تلقى بهم فى التهلـكة ، فـى حيـن يحيا جنرالاتهم فى أمان ورغد ورفاهية .

ثم أضاف الإنجليز شيئًا من ابتكارهم ، فى المضمار نفسه ..

محطة إذاعية ، قدمت نفسها باسم (ألمانيا الحرة) توحى لمن يسمعها بأن أصحابها مـن المعارضين للنظم النازيـة ، والفـارين من ديكتاتورية (هتلر) وجنرالاته ..

ولأن نتائج هذه المحطة الإذاعية كانت ملحوظـة وقويـة ، فقد بات (جوبلز) ، وهو يفكر فى وسـيلة جديـدة ، يرد بهـا الصـاع صاعين ، للبريطانيين ، وجهاز مخابراتهم كله ..

ومع ما يبذله مـن جهـد ، راح (جوبلـز) فـى سبات عميق ، حتى استيقظ بغتـة على صوت زوجتـه المذعورة ، وهـى تهزه هاتفة :

استيقظ .. استيقظ وانظر ماذا وجدت .

هب من مرقده ، يهتف بها فى عصبية :

ـ ماذا لديك يا امرأة ؟!

ناولته كتابًا قديمًا ، وهى تقول فى انفعال :

ـ اقرأ هذا .

سألها ، فى عصبية أكثر :

ـ أقرأ ماذا ؟! هل تعلمين كم الساعة الآن ؟!

أشارت فى انفعال إلى فقرة فى الكتاب ، قائلة :

ـ لا يهم كم الساعة الآن .. المهم أن تقرأ هذه الرباعية .. إن جسدى كله يرتجف ، منذ قرأت ما بها .

قلب (جوبلز) الكتاب بين يديه ، وغمغم فى عصبية :

ـ فليكن .

ولكنه لم يكد يطالع الفقرة ، التى أشارت إليها ، حتى اعتدل فى حركة حادة ، وهتف بدهشة بالغة :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابته زوجته ، بنفس انفعالها :

ـ إنه كتاب قديم يحمل عنوان (قرون) ، ألفه فلكى فرنسى يدعى (نوسترا داموس) ، وهو هنا يتحدث عن (هتلر) مباشرة ، على الرغم من أنه قد كتب كتابه هذا منذ ما يقرب من خمسة قرون .

ردَّد (جوبلز) فى ذهول :

ـ خمسة قرون ؟!

وعاد يقرأ الفقرة مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفى كل مرة ، كان ذهوله يتضاعف ، فالكتاب ، الذى يحوى مئات الرباعيات شبه الشعرية ، كان يتحدث فى إحدى رباعياته عن (أدولف هتلر) ويصفه على نحو لا يقبل الشك وإن ذكر اسمه باللاتينية القديمة (هستر) ..

ولم يغمض لوزير الدعاية النازى جفن ، ما تبقى من تلك الليلة ..

لقد ظل حتى صباح اليوم التالى فى مكتبته ، يقرأ كل ما وقعت عليه يده ، عن ذلك الفلكى الفرنسى القديم (ميشيل دى نوسترا داموس) ..

و(نوسترادا موس) هذا ينتمى إلى أسرة يهودية أوروبية قديمة ، فَجَدُّه (بيير دى نوسترا داموس) تاجر غلال يهودى قديم ، اهتم كمعظم أقرانه بالعلم والدراسة ، إلى جانب عمله ، وأنجب عددًا من الأبناء ، من بينهم (جاك) ، والد (ميشيل) ، الذى تزوج امرأة ثرية ، اعتنق معها المسيحية ، وابنه بعد فى التاسعة من عمره ..

ولقد ولد (ميشيل دى نوسترا داموس) فى الرابع والعشرين من ديسمبر ، عام 1503م ، وهو أكبر أربعة أخوة ، وأكثرهم ذكاء منذ الصغر ..

وفى مرحلة متقدمة فى صباه ، أدرك جده (بيير) موهبته ، فاحتضنه فى كنفه ، وعلمه اللاتينية ، والإغريقية ، والعبرية ، بالإضافة إلى مبادئ الرياضيات والفلك وعلم التنجيم ..

ولأن تلك الفترة كانت فى أوج محاكم التفتيش ، فقد خشى والده من وقوع الصبى فريسة لتهمة ظالمة ، فاستعاده من جده ، وأرسله لدارسة الطب فى (مونبلييه) ، وعمره لم يتجاوز التاسعة عشرة بعد .

ثم فجأة ، ودون مقدمات ، ظهرت موهبة (نوستراد اموس) ، فى التنبؤ بالأحداث المستقبلية ، على نحو أدهش خصومه قبل أصدقائه ، حتى إن الملكة (كاترين دى ميديتشى) قد أرسلت فى طلبه ، واحتضنته ، وطلبت منه التنبؤ بمستقبلها ، ومستقبل زوجها وأبنائها ..

ومنذ ذلك الحين ، تعلم (نوستراداموس) أن يصيغ تنبؤاته فى صورة رباعيات غير مباشرة ، حتى ينجو من العقاب ، إذا ما حملت النبوءة أخبارًا غير سارة ..

وانبهر (جوبلز) كثيرًا بما قرأه عن ذلك الفلكى المدهش ، وخاصة عندما علم أنه قد تنبأ باسم (لويس باستير) ، وبقدوم (نابليون بونابرت) وقيام الثورة الفرنسية ، وهزيمة (واترلوا) ، وغيرها ..

ولكن ما أثار اهتمامه وانبهاره أكثر ، هو أن تنبؤات (نسوتراداموس) قد استخدمت مرة كوسيلة دعائية للحرب النفسية ، عندما قام خصوم الكاردينال (مازاران) ، فى عام 1649م ، بنشر طبعة من كتاب (قرون) ، أضافوا إليها رباعيتين زائفتين ، للحد من نفوذ الكاردينال القوى ، فى البلاط الفرنسى .

فهذا ما كان يحتاج هو إليه بالضبط ..

وما إن أصبح الوقت مناسبًا ، حتى التقى (جوبلز) بالفوهلر شخصيًا ، وبقائد الجستابو (هملر) وطرح عليهما فكرته ..

فى البداية ، لم يستسغ (هملر) الفكرة ، بل واعتبرها نوعًا من السخف ، ولكن (هتلر) أبدى اهتمامًا كبيرًا بها ، خاصة وأن (جوبلز) قد أطلعه على بعض الرباعيات التى تشير إلى انتصاراته ونجاحاته المذهلة فى (أوروبا) كلها ..

وبأوامر من (أدولف هتلر) شخصيًا ، بدأت حرب جديدة فى (أوروبا) ..

حرب الورق ..

لقد قام (جوبلز) بطباعة آلاف النسخ من كتاب (قرون) ، مع منشورات بالإنجليزية والهولندية تشير إلى الرباعيات ، التى تتحدث عن (هتلر) وانتصاراته ..

وراحت الطائرات تلقى تلك الطبعات على (إنجلترا) وعلى كل الأجزاء التى لم يتم احتلالها والسيطرة عليها بعد ، فى قلب (أوروبا) ..

وقرأ الناس جميعًا تنبؤات (نوستراداموس) ..

حتى المخابرات البريطانية ..

ولأن الوسيلة غير تقليدية ، فقد استنكرت المخابرات البريطانية الأمر فى البداية ، واستهانت بـه ، وتصورت أنـه مجرد سخافة ألمانية ، لن تجد من يبالى بها ، أو يهتم بأمرها ..

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبته المخابرات البريطانية ..

ففى كل الحروب ، ومع القتل والدمار والأهوال ، تضعف النفوس ، وتنكمش من الخوف والرعب .

وإذا ما ضعفت النفس ، استسلمت للخرافة ..

لذا فقد قرأ البريطانيون والأوروبيون تنبؤات (نوستراداموس)

باهتمام بالغ ، ووقر فى نفوسهم أن (هتلر) سيحتل (أوروبا) كلها لا محالة ..

وهنا أدرك رجال المخابرات البريطانية خطورة الأمر ..

وفى مقر قيادتهم بدأ فريق من المؤرخين يدرس كتاب (قرون) هذا ، بمنتهى الاهتمام والدقة ..

ولقد لاحظ الخبراء أن الألمان قد نشروا كل ما ذكره (نوستراداموس) عن انتصارات (هتلر) و(ألمانيا النازية) وحذفوا كل ما يشير إلى العكس ..

وفى حزم التقى البروفيسير (ه . كان) بمسئول المخابرات البريطانية قائلاً :

ـ الألمان لعبوها بمهارة حقيقية .

أومأ المسئول برأسه إيجابًا ، وهو يقول بشىء من الضيق :

ـ ليس لدينا أدنى شك فى هذا .

ثم تنحنح ، ليطرد عنه توتره ، قبل أن يشد قامته ، متابعًا :

ـ السؤال الآن هو: كيف نواجه هذا الأمر ؟!

أشار البروفيسير (كان) بسبابته وإبهامه ، مجيبًا :

- الواقع أن هناك طريقين ، لابد أن نمضى فيهما معًا ، بنفس القدر من الاهتمام .

مال مسئول المخابرات نحوه ، يسأله فى لهفة وشغف واهتمام :

- وما هما ؟!

أجابه فى سرعة وحسم :

- أولهما أن نمحو تأثير ما فعلته منشورات النازيين ، وثانيهما أن نرد الصاع صاعين .

كانت فكرته تكمن فى طباعة نوعين من المنشورات ، التى ينبغى توزيعها على نطاق واسع ، أحدهما موجه إلى الإنجليز أنفسهم ، وإلى الدول غير المحتلة فى (أوروبا) ، ويحوى تصحيحًا لما ورد فى المنشورات النازية ، بحيث يضيف النبوءات والرباعيات الخاصة بهزيمة (هتلر) وانتحاره ، والنوع الآخر يحوى تلك الرباعيات الأخيرة وحدها ، ويتم إلقاؤه على المدن الألمانية والإيطالية .

وكان الأمران يحتاجان إلى دراسة جيدة لكتاب (قرون) ..

وهذا فى حد ذاته أمر صعب للغاية ..

فكتاب (قرون) هذا ، الذى وضعه (ميشيل نوستراداموس)

يعد أكثر الكتب مبيعًا ، عبر تاريخ الكتب المطبوعة كله ، إذ لم تتوقف طبعاته قط خلال ما يقرب من خمسة قرون ، تخللتها طبعات زائفة ، ورباعيات مزورة ، أطلق المؤرخون عليها اسم (تنبؤات أوليفاريس) و(تنبؤات أورخال) لذا فقد صار من العسير جدًا العثور على طبعة دقيقة صحيحة من الكتاب .

ولكن البروفيسير (هـ .كان) يعد واحدًا من أشهر الباحثين فى التاريخ ، وأكثرهم صبرًا ، وحرصًا على الدقة .

لذا ، فقد بذل الرجل جهدًا مضنيًا بحق ، حتى وضع دراسة دقيقة للغاية عن تنبؤات (نوستراداموس) ، ثم راح بعدها يصوغ المنشورين المطلوبين .

وفى وقت واحد تقريبًا ، بدأت الطائرات البريطانية تلقى المنشورات ، على (أوروبا) و(ألمانيا) ..

وكانت مفاجأة أدهشت (جوبلز) ، وأغضبت (أدولف هتلر) غضبًا عارمًا ، خاصة وأنها تشير إلى هزيمة الرايخ الثالث واندحاره ، وإلى انتحار (هتلر) نفسه ..

وقرر (جوبلز) أن يواجه الرد بآخر أكثر عنفًا ..

وفى مقر المخابرات النازية ، بدأ عملية دراسة جديدة لتنبؤات (نوستراداموس) ، لتكون وسيلة لمقاومة الرد البريطانى .

والواقع أن رباعيات (نوستراداموس) قابلة للتفسير على ألف وجه ، طبقًا للزاوية التى تنظر منها إليها فهى مكتوبة على شكل رباعيات شعرية ، تمتزج فيها اللاتينية والبروفنسالية ، والإيطالية ، والإغريقية بعبارات رمزية غير مباشرة ، تربطها علامات فلكية ، لتكون وسيلة لتحديد زمن حدوثها بالتقريب ..

لذا ، فقد أعاد النازيون ، تفسير الرباعيات ، التى اهتم بها البريطانيون ، لإثبات هزيمة (ألمانيا) النازية .

ومرة أخرى ، تساقطت المنشورات النازية ، ولكن على (بريطانيا) وحدها هذه المرة ..

وعاد البروفيسير (هـ . كان) يضع منشورات مضادة جديدة .

ومع تعدد المنشورات وكثرتها من الجانبين فقدت تأثيرها على العامة والجنود فى الجيشين بل وتحولت إلى وسيلة للفكاهة والسخرية .

وعلى الرغم من هذا ، كان قرار إيقافها صعبًا على الجانبين .

ففريق (جوبلز) خشى أن يوقف حرب المنشورات هذه ، حتى لا يفسح المجال لنفس الحرب ، عند الجانب البريطانى ..

والعكس بالعكس ..

ولكن (هتلر) حسم الأمر ، كما يحدث عادة ..

فلأنه يدرك جيدًا تأثير التنبؤات القديمة على الناس ، وخاصة فى (أوروبا) ، فقد أحنقه وأثار سخطه أن يتداول العامة منشورات (نوستراداموس) هذه ، وأمر بإيقافها فورًا ..

وانزعج (جوبلز) بشدة ، وحاول باستماتة أن يقنع الفوهلر بخطأ هذا ، ولكن (هتلر) بدا صارمًا وغاضبًا للغاية ، وهو يكرر أمره بإيقاف هذه الحملة فورًا ، ثم يقرن الأمر ببقاء (جوبلز) فى منصبه هذه المرة .

وأسقط فى يد (جوبلز) خبير الدعاية المحنك ، وأدرك أنه مضطر لإيقاف حملة التنبؤات القديمة ، بناء على أوامر الفوهلر ، على الرغم من ثقته فى أن هذا سيحدث تأثيرًا عكسيًا بالغ الخطورة ..

واجتمع وزير الدعاية النازى مع فريقه ومستشاريه ، للبحث عن مخرج من هذه الأزمة ، حتى استقر أمرهم على حل واحد ..

التخلى عن المنشورات الدعائية ، التى تحوى تنبؤات (نوستراداموس) إلى أخرى تحمل دعاية جديدة ، بدلاً من إيقافها دفعة واحدة ..

ولقد اقتنع (جوبلز) تمامًا بالفكرة ..

ولكنه لم يعرضها على الفوهلر قط ؛ ربما خشية أن يرفضها ؛ فيضعه فى مأزق بلا حل .

وتم التنفيذ بعد يومين فحسب ..

وكانت مفاجأة للبريطانيين الذين باغتتهم الطائرات الألمانية بمنشورات جديدة لم يستعدوا لمواجهتها قط .

ولكن فكرة فريق (جوبلز) كانت عبقرية بحق ، فقد أجبرت المنشورات الجديدة - بما تحويه من أمور مدروسة - الخبراء البريطانيين ، على إيقاف حملة التنبؤات المضادة ، وخوض الحرب الجديدة .

وهدأ (هتلر) بعد أن غاب اسمه من المنشورات البريطانية الجديدة ، وراح يخطط للضربة القادمة المفاجئة ، على الجبهة الروسية .

وكانت تحوى أيضًا حرب منشورات جديدة ، بعد أن عرفت المخابرات الألمانية الطريق ، وأدركت أن الحرب ليست دائمًا عسكرية ..

فهناك دومًا حرب أكثر خطورة ، وأكثر قدرة على تحطيم معنويات الخصوم ، وبث روح اليأس فى نفوسهم ..

حرب الورق ..

* * *

عملية سارين ..

أوشكت الحرب العالمية الثانية على نهايتها ، أو كادت ..

القوات النازية تلقت ضربة قاصمة ، فى الجبهة السوفيتية ، وبدأت تراجعها المأساوى ، عبر الجليد الروسى الرهيب ..

قوات الحلفاء هبطت فى (نورماندى) ، وبدأت مرحلة تحرير (أوروبا) ، بدءًا من فرنسا ، وراحت مع السوفيت يطوقان ألمانيا ، ويهددانها بمصير بشع ، لم يَجُل بخاطرها ، حتى فى أحلك كوابيسها ..

ووسط كل هذا ، وعلى الرغم منه ، لم يتراجع الزعيم النازى (أدولف هتلر) عن لهجته التهديدية الجوفاء ، ولا صرخاته ووعيده ، خاصة وهو يؤكِّد أنه يستعد لاستخدام سلاح سرى جديد ، سيقلب مسار الحرب كلها ، ويعيد النصرْ إلى جيش الرايخ الثالث ...

فى البداية ، تصوَّر قادة الحلفاء ، ورجال مخابراتهم ، أن (هتلر) يطلق تهديدات جوفاء فحسب ، وأنه لا يملك ما يمكنه أن يهدِّد به ، و ...

ولكن فجأة ، انهالت الصواريخ على العاصمة البريطانية ..

مئات من صواريخ (ف - 1) ، و(ف - 2) ، راحت تنسف المدينة القديمة ، وتهدم منازلها على رءوس سكانها ، وأصحابها ، وحكوماتها ..

وارتجفت القلوب فى عنف ..

فعلى الرغم مما نألفه عن الصواريخ ، فى زمننا هذا ، كانت آنذاك سلاحًا جديدًا مخيفًا ، لم يعرفه العامة ، أو حتى الخبراء ، إلا فى روايات الخيال العلمى فحسب ، إلى أن جاء العبقرى (فون براون) ، وحوّلها من خيال إلى حقيقة ..

حقيقة دمرت نصف (لندن) ، فى ليلة واحدة ..

وهنا ، أدركت أجهزة المخابرات أن (هتلر) ، لم يكن مهووسًا ، عندما تحدَّث عن سلاح سرى ..

بل ، وراحت جهودهم كلها تتكثّف ؛ للتوصُّل إلى جواب مهم للغاية ..

تُرى أهذا هو السلاح السرى ، الذى تحدَّث عنه الفوهلر ، أم أنه مجرد مقدِّمة مخيفة له ..

فى تلك الأثناء ، كان الأمريكيون يعلمون أن علماء النازية كانوا يجاهدون ، للتوصُّل إلى الطاقة النووية ، التى يجرون هم أيضًا تجاربهم السرية عليها ، منذ فترة ليست بالقصيرة ، إلا أنهم كانوا واثقين من أن افتقاد المعلومات كان يعنى أن بلوغ ذلك الهدف ، من الجبهة الألمانية ، أمر شبه مستحيل ، فى تلك المرحلة بالتحديد ..

ولكن تحريات المخابرات البريطانية كانت تشير إلى وجود سلاح سرى آخر ..

سلاح رهيب ..

وجديد ..

وفتاك ..

ووسط التكهنات ، ومحاولات كشف الأغوار ، وسبر الحقائق ، وصلت إلى المخابرات البريطانية معلومة ، عن قُرب إنتاج الألمان للجيل الثالث ، من صواريخهم المدمرة ..

جيل (ف ـ 3) ..

ووفقًا لمعلومات جاسوس رفيع المستوى ، كان (ف ـ 3) يختلف كثيرًا عن نظيريه السابقين ، إذ كان أكبر حجمًا ، وأكثر قوة ، وأبعد مدى بكثير ، حتى إنه يمكن إطلاقه من قلب (برلين) ، ليعبر المحيط كله ، إلى (واشنطن) مباشرة ..

أما قوته التفجيرية ، فكانت مفاجأة ..

مفاجأة محيرة للغاية ..

فعلى الرغم من مداه وقوته ، لم ترد معلومة واحدة ، تشير إلى أنه يحمل رأسًا متفجرًا !!..

لماذا سيعبر المحيط إذن ؟!..

لماذا يعتبره النازيون سلاحهم السرى ، لو أنه لن يسبب الدمار نفسه ، الذى أحدثته الصواريخ السابقة ؟!..

السر يكمن إذن فى المادة التى سيحملها (ف ـ 3) ..

وهذا ما ينبغى أن يسعوا جميعًا لمعرفته ...

وهكذا ، أطلقت المخابرات البريطانية جيشًا من رجالها ، وجواسيسها ، وعباقرتها ، ومحلليها ؛ لجمع أية معلومة ممكنة ، مهما صغر شأنها ..

ولأن الأحداث كانت تجرى بسرعة مدهشة ، فقد جند البريطانيون والأمريكيون نخبة من أفضل رجالهم ومحلليهم ؛ للتعامل مع ذلك الموقف الدقيق ..

وبسرعة ، راحت المعلومات تتوافد ... وتتوافد .. وتتوافد ..

وكما يحدث فى لعبة (البازل) الشهيرة ، راح الرجال يجمعون كل معلومة ، ويرصونها بدقة إلى جوار المعلومات الأخرى ، لتتضح الصورة رويدًا رويدًا ، وتظهر الحقائق لحظة بعد أخرى ..

وأخيرًا ، اكتملت الصورة ..

وبدت مفزعة مخيفة ، إلى أقصى حد ..

فالصاروخ (ف ـ 3) سيحمل بالفعل أخطر سلاح سرى ، توصل إليه الألمان ، فى الأشهر الأخيرة من أبشع حرب عرفها التاريخ ..

الغـاز ..

غاز عديم اللون والرائحة ، لا يمكنك أن تشعر بوجوده ، إلا أنه ما إن يدخل الجهاز التنفسى ، حتى يصيبه بالتهابات حادة ، تؤدى إلى صعوبة فى التنفس ، وارتشاح فى الرئة ، وتضخم فى الحويصلات الهوائية ، فينهار الشخص ، ويلقى مصرعه خلال أقل من ساعة ، مع آلام مبرحة ، تلتهم كيانه كله ..

غاز اسمه (سارين) ...

لم تكن غازات الأعصاب ، أو الغازات السامة سلاحًا مجهولاً أو مستحدثًا ، فى ذلك الحين ، إذ استخدمها الألمان أيضًا ، فى الحرب العالمية الأولى ، وحققوا بواسطتها انتصارات فائقة ، فى مراحلها الأولى ، إلا أنها كانت من أنواع أبسط ، تطلق معها سحبًا من الدخان ، ورائحة نفاذة ، تنبه الأعداء إلى ضرورة ارتداء الأقنعة الواقية ، والقتال بما تدربوا عليه ..

ولكن (سارين) كان أخطر بكثير ..

جرام واحد منه ، كان يكفى لتلويث هواء مدينة صغيرة بأكملها ، مع انتشار سريع غير محسوس ، بحيث تكون أول أعراضه هى الانهيارات الرئوية ، والوفاة السريعة ..

ولو حمل ثلاثة صواريخ ، من طراز (ف ـ 3) ، عبوات من غاز (سارين) ، وانفجرت فى ثلاث مدن بريطانية ، فقد يبيد هذا نصف البريطانيين بضربة واحدة ..

ويا له من سلاح !..

والواقع أن أجهزة مخابرات الحلفاء قد أصيبت بالهلع ، عندما توصّلت إلى تلك الحقائق ، ووجدت أنه من المحتم أن تنشط أكثر وأسرع ، لكشف كل ما يتعلق بهذا الأمر ، قبل أن يبلغ الألمان نقطة اللا عودة ، ويبدءون فى استخدام أخطر أسلحتهم ..

كان من الواضح أن مشروعهم لم يكتمل بعد ، وإلا لاستخدموا (سارين) على نطاق واسع ، خاصة وأن الزحف السوفيتى يقترب من عاصمة رايخهم ..

لذا ، أصبح الوقت هو أهم عامل حيوى ..

على الإطلاق ..

وبسرعة ، اجتمع رجال المخابرات البريطانية ، مع عدد محدود من المكتب الإستراتيجى الأمريكى ، الذى أصبح فيما بعد نواة المخابرات الأمريكية ، وراحوا يُعدُّون خطة لمنع (ألمانيا) من إنتاج صواريخ (ف ـ 3) ، التى يمكنها حمل (سارين) إليهم ..

فى البداية ، فكَّر الأمريكيون فى غارة عنيفة على مصنع شركة (آى .جى .فاين) ، التى تقوم بتركيب وتصنيع الغاز القاتل ، إلا أن البريطانيين فاجئوهم بأن المصنع موجود فى قلب أحد جبال (ألمانيا) ، ومحاط بأكثر من مليونى طن من الأسمنت المسلح ، الذى لن تخترقه قنبلة معروفة ..

ولأن القنبلة الذرية لم تكن قد اكتملت بعد ، حاول البريطانيون ابتكار قنبلة جديدة ضخمة ، ذات قوة تدميرية عنيفة ..

ولقد شنوا غارة بواسطتها بالفعل ..

وسقطت القنبلة الرهيبة على الجبل ، وسببت دمارًا شديدًا للغاية ..

إلا أنها لم توقف مشروع (ف ـ 3) ..

ولا إنتاج غاز (سارين) ..

وهنا ، أدركوا جميعًا أن عليهم البحث عن وسيلة جديدة ، و ...

« وسيلة بشرية !.. »

ألقى الاقتراح ضابط مخابرات شاب ، اشتهر فى الأروقة البريطانية السرية بأنه صاحب خيال جامح ، وابتكارات ظاهرها الجنون ، وباطنها عبقرية أدهشتهم جميعًا ، خاصة وأنه ينتمى إلى أسرة نبيلة ، يئست يومًا من أن تضعه فى منصب يتناسب وقدراته ..

وفى شىء من العصبية ، استقبل أحد الأمريكيين اقتراحه ، قائلاً :

- أى سخف هذا ... مصنع (فاين) محاط بحراسة ألمانية شديدة للغاية ، وكل العاملين فى داخله تم انتقاؤهم بعناية تامة ، ويخضعون لمتابعة ومراقبة دائمين ، ومن المستحيل أن تنجح فى تجنيد أحدهم ، أو زرع عميل بينهم ، أو ...

قاطعه الضابط الشاب (آيان فليمنج) ، الذى حظى فيما بعد بشهرة واسعة ، باعتباره مبتكر أشهر شخصيات الجاسوسية (جيمس بوند) ، وهو يقول فى حماس :

- ومن قال : إننا سنفعل هذا أو ذاك؟!

تبادلوا جميعًا نظرة دهشة ، قبل أن يتساءل ضابط بريطانى أكبر رتبة من (فليمنج) :

- ماذا سنفعل إذن؟!

مال الشاب إلى الأمام ، وأجاب فى حزم :

- نهاجم .

صدم جوابه الموجودين جميعًا ، وثار عليه الأمريكيون فى غضب عنيف ، إلا أنه حافظ على هدوئه الشديد ، وانتظر حتى أفرغوا كل ثورتهم فى وجهه ، ثم بدأ يشرح فكرته ..

وهنا ، صمتوا جميعًا ..

فعلى الرغم من أن خطته قد بدت مجنونة تمامًا ، إلا أنها نجحت فى جذب اهتمامهم وانتباههم ..

والأهم ، أنها كانت ممكنة التطبيق ..

على الرغم من خطورتها ، التى تقترب من حافة الانتحار ..

ولكن الهدف كان شديد الحساسية والخطورة ، والوقت يمضى بسرعة لا يتصوَّرها أحد ، والنتائج أخطر من أن يلتهمها تردُّد أو قلق ..

ثم إن هذا كان الاقتراح الوحيد المقدم ..

لذا ، فقد تم وضع الأمر موضع التنفيذ فورًا ..

وخلال ثمان وأربعين ساعة فحسب ، تمت دراسة الموقف مرة أخرى ، ووضع الخطة كلها ، فى وجود (فليمنج) ..

وبعدها ، شنت الطائرات البريطانية غارة عنيفة ، على موقع مصانع (آى .جى .فاين) ..

ولأوَّل مرة ، فى تاريخ الحروب ، قام رجال الكوماندوز البريطانيون بعملية هبوط بالمظلات ، فى قلب الغارة ..

ستة من البريطانيين ، بينهم أمريكى واحد ، هبطوا على مسافة كيلومتر واحد من المصانع ، وشنوا عليها هجومًا صاعقًا ، قبل حتى أن تتوقف القاذفات الثقيلة عن القصف ..

وكانت أخطر عملية انتحارية ، فى تاريخ الحرب العالمية الثانية ..

أو ربما فى تاريخ الحروب كافة ..

فالذين قاموا بالعملية ، كانوا معرضين للموت ، بنفس القنابل ، التى تنهال على الهدف ..

ولهذا ، كان وقع المفاجأة على الألمان مذهلاً ..

كانوا يختبئون من قصف جوى ، فوجدوا البريطانيين ينقضون عليهم فى مخابئهم ..

وبسرعة مدهشة ، مع عامل المفاجأة الشديد ، سيطر البريطانيون على المكان ..

وبخطة مدروسة بمنتهى الدقة ، انتشر الرجال السبعة فى المصنع الرئيس ، وراحوا يزرعون المتفجرات فى أماكن خاصة ، تم تدريبهم عليها فى سرعة ..

كانت المدة المقترحة للغارة ، هى ثلث الساعة فقط ، ولقد نجح

الرجال فى زرع متفجراتهم ، والانسحاب بتكنيك مدروس ، قبل الوقت المحدود بدقيقة واحدة ، بعد أن خسروا فردًا واحدًا فقط ..

ومع نهاية الغارة ، وانسحاب القاذفات البريطانية الثقيلة ، دوت عدة انفجارات أخرى عنيفة ..

انفجارات نشأت من قلب الجبل ..

من قلب مصنع غاز الموت ..

لم تنسف المتفجرات خزانًا واحدًا ، من خزانات المواد الكيماوية ، المستخدمة فى إنتاج (سارين) ؛ حتى لا تتسبَّب فى كارثة بيئية عنيفة ، وإنما نسفت كل أجهزة التصنيع والمعامل ..

وكانت حالة رهيبة من الفوضى والاضطراب ..

حالة استغلها البريطانيون ؛ للاختفاء فى أماكن مختارة مسبقًا ، والاطمئنان إلى نجاح العملية بشكل نهائى ..

وفى (لندن) ، عرف (فليمنج) النتيجة ..

لقد تم إيقاف مشروع (سارين) و(ف ـ 3) ، لفترة طويلة ..

فترة قد لا تملكها (ألمانيا) النازية فعليًا ..

وعلى الرغم من أن الألمان قد تحركوا فى وحشية وجنون ؛

بحثًا عن منفذى العملية ، إلا أنهم عجزوا عن هذا تمامًا ؛ بسبب تكثيف الهجوم على (برلين) ، من الشرق والغرب ..

وبعد فشل السلاح السرى ، توقف (هتلر) عن تصريحاته تمامًا ، واختبأ فى مخبأ سرى ، فى نفس الوقت الذى حمى فيه المنشقون أفراد الكوماندوز البريطانيين ، حتى أطبق الحلفاء على (برلين) من كل جانب ..

وانتحر (هتلر) ؛ ليضع نهاية للرايخ الثالث ، ولأحلام وطموحات (ألمانيا) كلها ..

أما سلاحه السرى ، فقد أصبح مجرد تاريخ ، يتحدَّث عنه العديدون ، دون أن يدركوا أنه كان يحمل يومًا ما اسمًا واضحًا .. اسم (سارين) .

* * *

عملية فنلو

ساد القلق أوروبا كلها ، فى تلك الأيام العصيبة ، من نهايات عام 1938م ، وبدايات 1939م ، ففى تلك الآونة ، كانت كل أجهزة المخابرات الأوروبية ، وبالذات جهاز المخابرات البريطانى ، المعروف باسم (آى - إم - 6) ، تبذل قصارى جهدها ؛ لتحديد أهداف (هتلر) الأساسية ، التى تشف عنها خطبه الملتهبة ، وتوعّداته العصبية ..

وتحت قيادة الأدميرال سير (هوج سنكلير) ، راح جهاز المخابرات البريطانى يدس جواسيسه ، فى (ألمانيا) و(أوروبا) ، لجمع كل المعلومات الممكنة عن نوايا (هتلر) وطموحاته ، واستعداداته لشن أية حروب قادمة ..

وجاءت المعلومات مخيفة .. وإلى أقصى حد ..

فالزعيم النازى يعيد بناء آلته الحربية ، على نحو لم تعرفه أية دولة ، فى (أوروبا) كلها ..

دبابات .. طائرات .. مدافع ميدان .. أسلحة خفيفة .. ذخائر ..

كل شىء يتم إنتاجه بالمئات ، وبأسلوب لا يمكن أن تسعى إليه دولة ، لمجرد الحفاظ على أمن وسلامة حدودها ، بل دولة تستعد لشن حرب .. بل حروب ..

وهنا ، اجتمع (سنكلير) برجاله ، وعلى رأسه نائبه (ستيورات .ج . فنرز) ؛ لبحث ودراسة ذلك الموقف المعقد ، والخطير إلى أقصى حد ..

وفى ذلك الاجتماع ، استعرض رجال المخابرات البريطانية كل ما لديهم من معلومات ، وناقشوا كل التفاصيل والاحتمالات ، قبل أن يتراجع (سنكلير) فى مقعده ، ويقول فى حزم :

ـ باختصار أيها السادة ، نحن فى وضع بالغ التوتر والخطورة ، ولو لم نتدخل لفعل شىء ما ، فى الوقت المناسب ، فسيشعل ذلك المجنون النار فى (أوروبا) كلها .. بل وربما فى العالم أجمع .

اعتدل نائبه (فنرز) وهو يقول فى اهتمام :

ـ السؤال : الآن هو ما الذى يمكن أن نفعله ؟!..

تبادل الكابتن (س . باين بست) ، والميجور (هـ .ر. ستيفنز) نظرة صامتة ، قبل أن يتنحنح الأول ، ويرفع يده طالبًا الكلمة ، ثم يقول فى خفوت :

ـ أعتقد أن لدينا ـ (ستيفنز) وأنا ـ حلاً لهذه المعضلة .

سأله (سنكلير) فى لهفة :

ـ وما هو ؟!

استدار (بست) ببصره إلى (ستيفنز) ، الذى تنحنح أيضًا فى توتر ، قبل أن يجيب ، فى حزم واقتضاب :

ـ المنشقون .

و اندفع (بست) يشرح الأمر فى حماس ، قائلاً :

ـ كلنا يعلم أن أسلوب ومبادئ الحزب النازى ، لا تلقى قبولاً لدى الجميع ، ولكن أسلوب (هتلر) الديكتاتورى الدموى ، يمنع الكل من إبداء اعتراضاتهم ، وخاصة فى صفوف الجيش ، لذا فقد كوّن بعض ضباط الجيش الألمانى تنظيمًا سريًّا ، يدبر حاليًا مؤامرة خفية ، للإطاحة بالزعيم (أدولف هتلر) وحزبه .

قال (سنكلير) ، فى حذر أكثر :

ـ كلنا نعلم هذا ، ولكن ليس لدينا دليل واحد ، على صحة وجود هذه المؤامرة المزعومة ، حتى هذه اللحظة .

تبادل (بست) و(ستيفنز) نظرة صامتة أخرى ، قبل أن يفرد الأخير قامته على مقعده ، قائلاً بكل الحزم :

ـ نحن لدينا يا سيّدى .

وكانت مفاجأة مدهشة .. للجميع ..

* * *

سرت موجة عنيفة من التوتر ، فى كيان ذلك العميل البريطانى ، الذى لم تفصح الوثائق عن اسمه أبدًا ، وهو يعود إلى منزله ، فى قلب (برلين) ، فى الخامسة من مساء ذلك اليوم ، من بدايات يناير 1939م ..

كان ألمانى الملامح ، والجنسية ، والأصل أيضًا ، إلا أنه ، ومنذ صعود الحزب النازى إلى الحكم ، شعر بغصة مؤلمة فى حلقه ، واستبصر مصيرًا أسود ينتظر بلاده ، فى ظل ديكتاتورية (أدولف هتلر) ورجاله ؛ لذا فقد قرَّر أن يسعى بكل كيانه وقوته ، لمنع حدوث هذا بأى ثمن ، ومن هذا المنطلق ، كان من الطبيعى أن تلتقطه عيون خبراء جهاز المخابرات البريطانى ، وأن تصل إلى (لندن) عدة تقارير بشأنه ، بين عشرات التقارير الخاصة بكل المعارضين لنظام الحكم النازى ، فى (لندن) ، وعلى يدى (سنكلير) ورجاله ، بدأت عملية فرز وتصنيف ودراسة كل التقارير ، الواردة من (برلين) ، وباقى بلدان (ألمانيا) ؛ للبحث عمن يمكن إقناعهم ، وتجنيدهم للعمل لحساب المخابرات البريطانية ، فى قلب النازية ..

ولقد نال ذلك الألمانى اهتمام وتقدير الجميع ، وتم انتخابه للقيام بتلك المهمة ، التى لم يكن يعلم بأمرها ، أو حتى يتصوَّر إمكانية حدوثها .. والمؤسف أن الوثائق ، التى تم الكشف عنها ،

حتى لحظة كتابة هذه السطور ، لم تتضمَّن اسم ذلك الألمانى ، أو وسيلة تجنيده ، باعتبارها من الأسرار العليا ، التى لن يتم الكشف عنها ، قبل عام 2015م ، أى بعد مرور خمسة وسبعين عامًا ، على نهاية الحرب العالمية الثانية .. ولكن ما يهمنا هنا ، هو أنه قد تم تجنيده بالفعل ، وأنه قد صار واحدًا من أفضل عملاء المخابرات البريطانية ، فى قلب (برلين) ..

ولأن الرجل كان مقتنعًا ، بأن القضاء على (هتلر) ورجاله هو الوسيلة المثلى ، لإيقاف ذلك المد النازى ، الذى يقود بلاده إلى الهاوية ، فقد راح يتعاون مع المخابرات البريطانية بكل طاقته وحماسه ، وبدأ يجمع المعلومات ، ويرسل التقارير والصور ، على نحو لم ينجح فيه عميل آخر ، فى ذلك الموقع .. وربما إلى هذا تعود أهمية وخطورة ذلك العميل ، ويعود حرص المخابرات البريطانية على عدم ذكر اسمه ، وتفاصيل عملية تجنيده ؛ إذ لم يمض عام واحد ، حتى صار أهم عملاء (لندن) ، فى قلب (برلين) ، ولأن وظيفة الرجل كانت تمنحه نوعًا من الحصانة والثقة ، فى المجتمع النازى ، فقد كان يمارس لعبة الجاسوسية فى هدوء وثقة ، وبنشاط جم ، ويعود كل يوم إلى منزله ، وجيوبه تحمل عشرات الصور والوثائق والمعلومات ، و ... ولكن دوام الحال من المحال ؛ ففى ذلك اليوم ، فى بدايات

ينـاير 1939م ، شعر ذلك العميل بـأن الأمـور لا تسير علـى مـا يرام .. هناك حتمًا من يراقبه ومن يتبعه ، وهذا لا يمكن أن يعنى سوى أمر واحد فقط لا غير .. لقد انكشف أمره بوسيلة ما ..

وبكل قلق الدنيا ، راح الرجل يحث الخطـى ، محـاولاً بلـوغ أى شارع جـانبى؛ ليتخلّص من كل مـا تحويـه جيوبـه ، من أوراق وصور ، تكفى لإعدامه فى قلب أكبر ميادين (برلين) ، بلا أدنـى شفقة أو رحمة ، وفى كل لحظة تمضى ، كان يوقـن أكثر وأكثر من أنه مراقب ومتبوع ... رجلان .. بل ثلاثـة رجـال ، يسيرون خلفه طوال الوقت ، دون أن يحاول أحدهم استيقافه ، ولو لحظـة واحدة ، فزاد العميل من سرعته ، واتجه نحو أوّل شارع جانبى ، وتبخّرت مع مبادرته هذه أية ذرة للشك فـى أعماقـه ، مـع زيـادة الرجـال الثلاثــة لسـرعتهم خلفـه .. إنهـم يطاردونــه إذن .. وبسرعة ، دلف إلى ذلك الشارع الجانبى ، والتقط كل محتويـات جيب معطفه ، و ...

« لن نسمح لك بأن تفعل هذا .. »

اخترقت أذنه تلك العبارة الصارمة القاسية ، مـع تلـك الأصـابع الفولاذية ، التى قبضت على معصمه ؛ لتمنعه من إلقاء ما لديـه ، فى نفس اللحظة التى برز فيها رجل ضخم الجثـة أمامـه ، يتطلّـع إليه بنظرة وحشية شرسة ، قائلاً بكل خشونة الدنيا :

ـ لقد انتهى أمرك .

ومع آخر حروف كلماته ، شـعر العميل بضربـة علـى مؤخـرة رأسه ، غاب بعدها عن الوعى تمامًا ..

ووفقًا لتقريره ، لم يـدر كم مضـى عليـه فـاقد الوعـى ، ولكنـه عندما أفاق ، وجد نفسه مقيّدًا بإحكام إلى مقعد ثقيل ، داخـل قبـو رطب ، مضاء بمصباح واحد باهت ، وجدرانه ملوثّة ببقع داكنة ، افترض على الفـور أنهـا بقـع مـن الـدم ، فـى حيـن يجلـس رجـل واحد ، فى ركن القبو ، وقد أولاه ظهره ، وعلى الرغم من هذا ، فلم يكد يفتح عينيه ، حتى فوجئ بالرجل يلتفت إليه ، ويصيح فى خشونـة فظة :

ـ لقد استعاد وعيه .

ولم تمض دقيقة واحدة ، حتى هبَّ من مقعده فجـأة ، وضرب الأرض بقدمه فى قوة ، ويده ترتفع أمامه ، صائحًا :

ـ هايل (هتلر) .

وعندئذ ، أدرك العميل أن ضابطًا من الضباط الكبـار قـد وصـل إلى المكان ، فرفع عينيه يتطلّع إلى ذلك الزى الرسمى ، الذى ملأ بصـره كلـه ، قبـل أن يتطلّـع إلـى وجـه الضـابط (شـلنبرج) مباشرة ..

ومنذ اللحظة ، التى التفت فيها عيونهما ، ولسبب لم يفهمه قط ، ولم يستطع حتى شرحه فى تقريره ، أدرك العميل أن (شلنبرج) هذا سيكون له دور كبير ، فى المرحلة القادمة ، والعجيب أنه كان على حق فى شعوره هذا ، إلى حد مذهل ...

« اتركنا وحدنا .. »

انطلق صوت (شلنبرج) بذلك الأمر الصارم ، الذى استقبله الرجل بتحية عسكرية قوية ، وأسرع ينفذه دون أدنى اعتراض أو مناقشة ، حتى أصبح الضابط النازى الوسيم وحده فى القبو ، يتطلّع فى صمت صارم ، إلى العميل ، الذى سرت فى جسده قشعريرة باردة كالثلج ، وحاول أن يقول شيئًا ، أى شىء ، ولكن لسانه انعقد فى حلقه ، فلم يستطع النطق بحرف واحد ، حتى سأله (شلنبرج) فجأة :

ـ أنت تعمل لحساب البريطانيين .. أليس كذلك ؟!

حدّق العميل فيه طويلاً فى صمت ، وقد امتلأت نفسه برهبة عجيبة ، جعلته غير قادر على التفوه بحرف واحد ، فجذب (شلنبرج) مقعدًا ، كما فعل الضخم من قبل ، وجلس على مسافة متر واحد منه ، وتطلّع إلى عينى العميل مباشرة ، وهو يقول : بنفس الصرامة ، التى بدت وكأنها جزء من شخصيته :

ـ اسمعنى جيدًا يا هذا .. ما لدى نحوك ليس مجردً شكوك ، أو حتى افتراضات واستنتاجات .. لقد كشفت أمر علاقتك بالبريطانيين ، منذ ستة أشهر كاملة ، وقمت بمراقبتك شخصيًا ، وعلى مسئوليتى الخاصة ، ورأيتك تلتقى برجالهم ، وتحصل على الأسرار والوثائق والمعلومات والصور من أجلهم ، وعلى الرغم من هذا فقد واصلت مراقبتك بنفسى ، حتى زالت من أعماقى كل ذرة من الشك ، وهنا .. هنا فقط ، اتخذت قرارى باعتقالك ، إياك أن تحاول النفى أو الإنكار .. قلت لك : إننى قد راقبتك بنفسى ؛ لم أشأ أن يعلم هؤلاء الأوغاد بأمرك .. أوغاد النازية .

صعقت العبارة العميل ، فحدّق فيه بكل ذهوله ، دون أن يخطر بباله لحظة واحدة أنه يشهد مولد أخطر عملية مخابرات ، فى تاريخ الحرب العالمية الثانية ... وبكل ذهوله ، هزّ رأسه ، وكأنما يحاول إيقاظ نفسه مما يسمعه ، لو أنه مجردً حلم ، وعاد يُحدّق فى (شلنبرج) ، الذى يُقدّم له عرضًا يستحيل رفضه ، فلقد اقترب منه ، ومال نحوه ، وتطلّع إلى عينيه مباشرة ، حتى خُيّل للرجل أنه قد اخترق كيانه حتى النخاع ، وهو يقول بمنتهى الصرامة :

ـ أريد موعدًا مع رجال المخابرات البريطانية .

وكانت مفاجأة للعميل .. مفاجأة مذهلة .

وفى نهار أحد أيام أوائل (فبراير)، عام 1939م، وعلى الرغم مما بدا عليه مبنى جهاز المخابرات البريطانى (إم - أى - 6)، من هدوء وصمت، فى تلك الساعة، إلا أن إحدى حجراته كانت تشهد نشاطًا مكثفًا، ومناقشات حامية متصلة، منذ غروب شمس اليوم السابق، فبمنتهى الدقة، راح مدير المخابرات آنذاك (هوج سنكلير)، يراجع مع نائبه (فنرز)، ورجليه (بست) و(ستيفنز) تفاصيل ذلك العرض المدهش، الذى عاد به عميلهم الألمانى، من قلب (برلين)، ويدرسون كل الاحتمالات، وكل الملابسات، بما فيها احتمالات الخداع والتحايل، وخاصة بعد أن أعلنهم (شلنبرج) بأنه أحد المنشقين عن النظام النازى، فى قلب جهاز مخابراته الرهيب، حتى قال (سنكلير) فى حزم:

- إننا أمام احتمالين، لا ثالث لهما، فإما أن نكون أمام أكبر خدعة فى عالم المخابرات، أو أمام أكبر فرصة فى التاريخ؛ لمساندة نظام مناوئ للحكم النازى، ولست أنوى إضاعة الفرصة أبدًا.

ثم التفت إلى (بست) و(ستيفنز)، مستطردًا:

- فليكن .. ضعا خطة حذرة، وابدأا الاتصال .. فورًا ..

وكانت هذه هى البداية ..

* * *

تطوَّرت الأمور بسرعة، فى الأشهر القليلة التالية، على نحو مخيف، جعل الاتصال بالميجور الألمانى (شلنبرج)، ومجموعته من المنشقين العسكريين، أمرًا حتميًا لا يقبل الجدل، أو حتى التأجيل لحظة واحدة.

ففجأة بدأ الفوهلر الألمانى (أدولف هتلر)، فى تنفيذ مخططاته الاستعمارية التوسعية؛ لمد نفوذ (ألمانيا) النازية، إلى (أوروبا) كلها، لم يكن هذا مفاجئًا للجميع فى حد ذاته، إلا أن البداية جاءت دون أن يتوقَّعها أحد بحجة استعادة (ألمانيا) لما فقدته فى الحرب العالمية الأولى، بسبب معاهدة (فرساى) للاستسلام ..

وعلى الرغم من وضوح الصورة وقوتها، التزمت معظم بلدان (أوروبا) بالحذر، ورفضت إعلان الحرب على (ألمانيا)، ما لم تحتم الظروف هذا ..

ولقد التقى (بست) و(ستيفنز) بالميجور (فالتر شلنبرج) شخصيًا، فى مدينة (برن) السويسرية المحايدة، وقضيا معه بعض الوقت، الذى انتهى باقتناعهما به، وبحماسه الشديد، فى مقاومة النظام النازى، وبذل أقصى جهد لإسقاطه ..

وبخطوط بسيطة، ودون الدخول فى التفاصيل، شرح لهما (شلنبرج) أسلوب تنظيم المجموعة، وقدراتها، واحتياجاتها، مؤكدًا

إن كل ما يطلبونه هو بعض الدعم المادى ، مع وعد من البريطانيين بعدم استغلال ضعف (ألمانيا) ، خلال فترة إسقاط النظام النازى ، للانقضاض عليها واحتلالها ..

ومن (برن) ، عاد (شلنبرج) إلى (برلين) ، فى حين اتجه (بست) و(ستيفنز) مباشرة إلى (لندن) ، دون أن يدركا أن ما حملاه معهما سيقلب الأمور كلها رأسًا على عقب .. وبمنتهى العنف .

* * *

* من الأمور التى يجهلها العديدون ، أن عمل أجهزة المخابرات ليس عسكريًا بالدرجة الأولى ، ولكنه يعد أحد أعمال السيادة والسياسة ، ليس لوسائله ، ولكن لنتائجه ، التى هى فى نهايتها نتائج سياسية محضة ، مهما اتخذت من صور وسيطة ، خلال مرحلة التنفيذ ؛ ولهذا السبب ، كان من الطبيعى أن يحمل مدير المخابرات البريطانية (هوج سنكلير) تقارير (بست) و(ستيفنز)؛ ليضعها كلها أمام رئيس الوزراء البريطانى آنذاك (نفيل تشامبرلين) ..

وفى ظروف أوروبية مشتعلة كهذه ، كان من الطبيعى أن يلغى رئيس الوزراء البريطانى كل مواعيده ، وأن يجتمع طويلاً بالأدميرال (سنكلير) ؛ ويستمع إلى كل التفاصيل ، ويقرأ بنفسه

كل التقارير ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يتطلع طويلاً إلى (سنكلير) ، فى صمت وتفكير عميقين ، ثم يعتدل فجأة ، قائلاً فى حزم :

ـ فليكن يا سير (سنكلير) .. سنمسك العصا من منتصفها كما يقولون .. سنبقى على خط الاتصالات ، بيننا وبين (شلنبرج) ومجموعته ، ولكننا لن نمنحهم التمويل الكافى فى الوقت الحالى ، فى حين سنواصل مباحثاتنا السياسية مع الحكومة النازية ، حرصًا على حسن سير الأمور ، ولكن تذكَّر يا سير (سنكلير) .. حتى يصدر أمر واضح مباشر ، بالاتصال بالمنشقين العسكريين الألمانيين ، وتمويلهم ، لن تكون لنا صلة رسمية بما يحدث .

ومنذ اتخذ رئيس الوزراء البريطانى قراره ، بإمساك العصا من منتصفها ، بدأت عملية الاتصال بالمنشقين العسكريين الألمان تتخذ مسارًا مميَّعًا إلى حد ما ، على الرغم من تواصل الاتصال بالضابط الألمانى (شلنبرج) ، الذى شكا أكثر من مرة ، من ضعف التمويل ، وإضاعة الوقت فى روتينيات بيروقراطية معقَّدة ، دون القيام بإجراءات حاسمة ، أو اتخاذ قرارات حازمة ..

وعلى الرغم من استمرار (بست) و(ستيفنز) فى عملهما ، ومن التقائهما بالألمانى (شلنبرج) مرتين أخريين ، خلال الفترة من أوائل مارس ، وحتى أوائل سبتمبر 1939م ، إلا أنهما قد فقدا

الحماس للعملية إلى حد ما ، خاصة وأن شيئًا ما فى (شلنبرج) لم يكن يروق للميجور (ستيفنز) ، على عكس زميله (بست) ، الذى كان يرى أن ذلك الألمانى نموذج مثال لأى رجل مخابرات ، أيًا كانت هويته ، فهو رياضى ، ممشوق القوام ، هادئ الحديث ، يطلّ الذكاء من عينيه فى وضوح ، ويتروّى ليفكّر جيدًا ، قبل أن يدلى بأى رأى .. ولكن اختلافهما هذا كان محصورًا بينهما فحسب ، فلم تتضمنه تقاريرهما الرسمية ، أو يبلغا به رؤساءهما ، الذين استشفوا الأمر من أسلوبهما فى الحديث عن (شلنبرج) ، كما أشار نائب مدير المخابرات (فنرز) ، فى أحد تقاريره السرية ، التى لم تنشر إلا بعد سنوات طوال ..

ثم فجأة ، تطوّرت الحرب ، وتطوّرت معها كل الأمور .. ففى أغسطس 1939م ، عقد (هتلر) مع الاتحاد السوفيتى ميثاق عدم الاعتداء ، وأصبح حرًا فى قطع مفاوضاته مع دول (أوروبا) ، ثم هاجم (بولندا) ، فى الأوّل من سبتمبر ، مما دفع (إنجلترا) ، وغالبية دول الكومنولث ، و(فرنسا) إلى إعلان الحرب على (ألمانيا) رسميًا ، فى الثالث من سبتمبر ..

ومع إعلان الحرب ، تم استدعاء (هوج سنكلير) لمقابلة رئيس الوزراء (تشامبرلين) فورًا ، ودون إضاعة لحظة واحدة ..

وفور دخول (سنكلير) إلى مكتب (تشامبرلين) ، بادره هذا الأخير فى حماس وحزم ، بأن الاتصال بأولئك المنشقين الألمان صار أمرًا حيويًا للغاية ، ثم أصدر أوامره ببدء العملية فورًا ..

ومع صدور قرار رئيس الوزراء البريطانى ، بتنشيط وإحياء عملية الاتصال المباشر ، مع (شلنبرج) ورجاله ، عاد النشاط والحماس يدبان فى نفسى الكابتن (بست) والميجور (ستيفنز) مرة أخرى ..

وبعد اجتماع دام ثلاث ساعات متصلة ، بين (سنكلير) و(فنرز) ، ورجلى المخابرات ، تقرّر الاتصال بالألمانى ، وإبلاغه بتطوّر الموقف ، وبضرورة عقد لقاء مباشر ، فى أقرب فرصة ممكنة ؛ لتحديد خطوات المرحلة القادمة ، وتقديم كل التسهيلات والخدمات ، ووسائل التمويل الممكنة ، وهنا اقترح (بست) ألا يتمّ لقاء (شلنبرج) وحده ، وإنما الإصرار على مقابلة بعض الضباط ، المشاركين معه فى تلك الخلية المنشقّة؛ كضمان لصدق مزاعمه قبل التعامل معه بهذا الانفتاح ..

ولقد وافقوا جميعًا على هذا الاقتراح ، دون استثناء واحد ، ولكن مع تحفّظ (فنرز) ..

وعن طريق عميل ألمانى آخر ، تم إبلاغ (شلنبرج) بالأمر ، وبأهمية الوقت البالغة هذه المرة ..

وفى الأول من نوفمبر 1939م ، وصلت إلى المخابرات البريطانية رسالة من (شلنبرج) ، بخطه وتوقيعه ، والكود السرى المتفق عليه ، للتأكد من صحة الرسالة ، مع تحديد موعد للقاء بالمجموعة القيادية للضباط المنشقين ، فى الثامن من نوفمبر عند النقطة الحدودية ، الموجودة فى بلدة (فنلو) الهولندية ، على مسافة أمتار قليلة ، من الحدود الألمانية ...

وكالمتبع ، كانت الرسالة ، المكتوبة بشفرة خاصة ، تحدد وسيلة التعارف ، والإشارة السرية ، ومكان اللقاء بالتحديد ..

وفى هذه المرة ، كان الاجتماع طويلاً .. طويلاً للغاية ؛ فلقد استغرق أربع عشرة ساعة كاملة ، أعاد خلالها رجال المخابرات البريطانيون مراجعة وفحص وتقييم كل سطر ، وكل كلمة ، بل وكل حرف ، فى تقارير (بست) و(ستيفنز) ، مع إعادة دراسة الموقف كله ، بمنتهى الدقة والحذر ، وعاد احتمال الخداع يطرح ، ولكن حدوث المقابلة على أرض هولندية محايدة ، جعل الاحتمال ضعيفًا ، ثم إن رئيس الوزراء أصدر أمرًا بتنفيذ العملية ، ولم تعد هناك أية إمكانية للتراجع .

لابد وأن تتم عملية (فنلو) ... وفورًا ..

* * *

انطلقت زفرة ملتهبة كالحمم ، من صدر (ستيفنز) ، وهو يتطلع عبر زجاج السيارة الصغيرة ، إلى الجزء الواضح من الطريق ، الذى يقود إلى تلك النقطة الحدودية الهولندية ، فى بلدة (فنلو) الصغيرة ، عند الحدود الألمانية ، فى ليلة الثامن من نوفمبر عام 1939م ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، محاولاً إجبار نفسه على الاسترخاء ، على الرغم من توتر الموقف ، ولكنه لم يكد يفعلها ، حتى لاح ضوء مصباحى سيارة من بعيد ، أضيئا وانطفأا مرتين متعاقبتين ، فاعتدل الاثنان فى مقعديهما ، وقال (بست) فى انفعال :

ـ لقد وصل .

نطقها ، على الرغم من أنه كان يشعر فى أعماقه بقلق مبهم .. قلق عجيب ، جعله يشعر أن هذا اللقاء بالذات ، سيختلف عن كل ما سبقه ، وستكون له نتائج خطيرة .. خطيرة للغاية .

وعلى الرغم من أن عقارب الساعة لم تتحرك لدقيقة واحدة ، بعد الإشارة المتفق عليها ، إلا أن تلك الثوانى قد بدت أشبه بدهر كامل ، بالنسبة لضابطى المخابرات البريطانيين ، اللذين شملهما صمت ثقيل مهيب ، وهما يحدقان فى الظلام ، فى انتظار وصول (شلنبرج) ومجموعته ، فى أية لحظة ، والكوخ الخشبى لنقطة الحدود الهولندية يبدو لهما واضحًا ، من مكمنهما هذا ، بكل ما نال حراسه من تعب وملل ، و ...

وفجأة ، انقضت سيارة ألمانية الصنع على الكوخ ، لتحطمه مع حاجز الحدود تمامًا ، وتتحطم معه أيضًا ، وفى لحظة واحدة ، وبتناسق مذهل ، وثب أربعة رجال من السيارة ، وراحوا يطلقون النار على حرس الحدود الهولنديين ، بغزارة وشراسة لا حدود لهما ، وخاصة بالنسبة لبلد محايد مثل (هولندا) ..

وكمحترفين ، سحب (بست) و(ستيفنز) مسدسيهما ، ودفع كلاهما باب السيارة المجاور له ، واندفعا محاولين التدخل ، أو حماية نفسيهما على الأقل .. ولكن فجأة ، وجدا كومة من فوهات المدافع الآلية فى وجهيهما ، مع هتاف صارم ، يقول بالألمانية ، دون أية محاولة للترجمة :

ـ حركة واحدة ، وننسفكما بلا رحمة .

ولم يكن هناك سبيل للمقاومة ، أو حتى للتكفير فيها ، مع ذلك الفارق الملحوظ ، فى العدد والسلاح ؛ لذا فقد استسلم رجلا المخابرات البريطانية ، وألقيا سلاحهما أرضًا ، وفى لحظة واحدة ، انشقت الأرض عن سيارة ألمانية أخرى ، دفع المسلحون رجلى المخابرات البريطانية داخلها ، لتنطلق بهما ، تحت حراسة مشددة ، عبر الحدود الألمانية ، وانعقد لسانا البريطانيين تمامًا ، وخفضت قلوبهم فى عنف ، عندما عبرت بهما السيارة حاجز الحدود المحطم بالفعل ، وانطلقت نحو آخر مكان يتمنيان الذهاب إليه ، فى تلك الآونة .. نحو (برلين) ..

وعلى الرغم من أن المسافة ، التى تفصل الحدود الهولندية عن (برلين) ، ليست بالبسيطة ، فقد كانت أوامر الفوهلر تحتم وصول ضابطى المخابرات البريطانيين إلى العاصمة ، فى أسرع وقت ممكن ، بعد وقوعهما فى قبضة رجاله ؛ لذا فما إن تجاوزت السيارة الألمانية الحدود بأسيريها ، حتى كانت فى انتظارها طائرة خاصة ، ثم نقل (بست) و(ستيفنز) إليها معصوبى الأعين ، ومقيَّدى المعصمين خلف ظهريهما فى إحكام ، لتقلع الطائرة فورًا ، فى اتجاه (برلين) .. ومع هبوطها هناك ، حملت سيارة خاصة ، محاطة بحراسة مكثفة ، على نحو مبالغ ، ضابطى المخابرات البريطانيين إلى سجن خاص ، فى قلب بيت الثعالب نفسه .. وهناك ، وسط رجال (الجستابو) وجهاز (إس دى) ، أدرك (بست) و(ستيفنز) أنهما قد سقطا فى قبضة العدو ، وأن مصيرهما سيكون رهيبًا .. حتمًا .. قبل حتى أن يسمعا صوتًا ، يقول فى صرامة قاسية :

ـ ارفعوا العصابات عن عيونهما .

ومع قوله ، رفع بعضهم العصابات السوداء عن عيون (بست) و(ستيفنز) ، ولثوان ، بهرهما الضوء ، فأغلقا عيونهما قليلاً ، ثم فتحاها ، لتتسعا عن آخرهما ، وهما يحدقان فى ذلك الضابط النازى ، الذى وقف أمامهما فى زهو ظافر ، وهو يقول :

- مرحبًا بكما فى أرضنا .

فذلك الضابط كان (شلنبرج) .. الميجور (فالتر شلنبرج) .. شخصيًا ..

* * *

امتقع وجه رئيس الوزراء البريطانى (نفيل تشامبرلين) ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، بكل ذعر وارتياع الدنيا ، وهو يُحدِّق فى وجه سير (هوج سنكلير) ، مدير المخابرات البريطانية ، هاتفًا بصوت مرتجف :

- اختطفوهما ؟!

أومأ (سنكلير) برأسه إيجابًا فى مرارة ، وهو يقول :

- نعم يا سيادة رئيس الوزراء .. المخابرات الألمانية خدعتنا ، من خلال ضابطها (شلنبرج) ، وتعاملت معنا بحنكة ومهارة وصبر ، طوال عشرة أشهر كاملة ، وبعبقرية مدهشة ، جعلتهم يوقعون برجلينا فى النهاية .

عضَّ رئيس الوزراء شفته السفلى ، وهو يهزّ رأسه ، قائلاً :

- بل يوقعون بنا نحن يا رجل .. إنها فضيحة .. مصيبة .. كارثة ، لن تمضى بسلام أبدًا .. اثنان من كبار ضباط مخابراتنا ،

يسقطان فى قبضة الألمان ، بهذه السذاجة المدهشة .. يا للكارثة !.. كل أسرارنا أصبحت فى يد العدو .

وسقط مدير المخابرات البريطانى .. بعنف ..

ولأول مرة فى حياته ، منذ التحق بالمخابرات البريطانية ، تم استدعاء (ستيوارت ج . فنرز) ، إلى مكتب رئيس الوزراء شخصيًا ، الذى سأله فور دخوله :

- ما مدى سوء الموقف فى رأيك ؟!

مطَّ (فنرز) شفتيه ، وهزَّ رأسه ، قائلاً :

- الموقف بلغ أقصى درجات السوء ، يا سيادة رئيس الوزراء ؛ فسقوط عميل للمخابرات ، تم تدريبه على نحو جيد ، يعدّ خسارة كبيرة لأى جهاز ، أما سقوط ضابط مخابرات ، فى قبضة جهاز معاد ، فهو كارثة كبرى ، بكل المقاييس .

أعاد الجواب (تشامبرلين) إلى شحوبه وامتقاعه ، فبقى على مقعده صامتًا كالحجر لفترة طويلة ، قبل أن يتساءل ، بصوت سمعه (فنرز) بالكاد :

- هل تقترح شيئًا ، لتفادى الانهيار الكامل ؟!

أجابه (فنرز) فى سرعة ، وكأنه كان ينتظر السؤال ويتوقَّعه :

- بالتأكيد .. لابد وأن ننسى أمر (بست) و(ستيفنز) ، وكل ما لديهما من معلومات ، وأن نعيد بناء وتنظيم كل شىء على نحو جديد ، بحيث لا تعود لمعلومات النازيين عن نظمنا أية قيمة .. سنغيِّر وسائلنا ، وأقسامنا ، وأسلوب تعاملنا مع المعلومات ، وكذلك أسلوب تعامل رجال المخابرات معها .. كل ضابط سيعرف ما يخصّه منها فقط ، من الآن فصاعدًا ، ولا أحد سيطالع عمليات الآخرين ، إلا للضرورة القصوى؛ لتفادى حدوث أية كوارث مماثلة مستقبلاً وأسماء عملائنا أنفسهم ستوضع فى خزانة خاصة ، فى مكتب مدير الجهاز وحده ، بحيث لا يعرف الضباط سوى الأسماء الكودية وحدها ، وسنعمل فورًا على تجنيد عدد جديد من العملاء ، فى مختلف بلدان (أوروبا) ، و ...

قاطعه (تشامبرلين) ، وهو يعتدل ، ويلتقط ورقة معدَّة مسبقًا أمامه قائلاً :

- هذا يكفى .. ستتولى أمر جهاز المخابرات البريطانى ، حتى يشفى (سنكلير) من مرضه ، أو ... أو تتغيَّر الأمور ..

وبلهفة حقيقية ، التقط (فنرز) القرار ، قائلاً :

- أعدك بألا أخذلك أبدًا ، يا سيادة رئيس الوزراء ..

ولقد كان (فنرز) صادقًا للغاية ، فى عبارته الأخيرة هذه ؛ فقد

بدأ عملية الإصلاح الهيكلى لجهاز المخابرات البريطانى (إم - آى - 6) ، فور وصوله إلى مكتبه ، كرئيس مؤقَّت للجهاز ..

وفى الرابع والعشرين من نوفمبر ، توفى (سنكلير) ، متأثرًا بتلك الهزيمة البشعة ، التى اختتم بها ملفه ، وأصبح (ستيورات ج فنرز) هو الرئيس الفعلى للمخابرات البريطانية .

وفى الوقت ذاته ، كان الكابتن (س . باين بست) ، والميجور (هـ . ر . ستيفنز) ، قد انهارا من وطأة التعذيب الوحشى الرهيب ، الذى تعرَّضا له ، على يد (شلنبرج) الهادئ الوسيم ، وطاقم خبراء جهاز (إس - دى) ، وراحا يدليان بما لديهما من معلومات ، ويبوحان بكل ما فى جعبتهما من معارف وأسرار .. وكان لديهما الكثير بالفعل .. والكثير جدًّا ..

ولقد أدى ما حصل عليه الألمان ، عبر خدعتهم هذه ، إلى القضاء على معظم أفراد شبكة جاسوسية (إم - آى - 6) ، فى (أوروبا) كلها ، وقد كشف ضابطا المخابرات البريطانية أيضًا عن عملاء بلجيكيين وهولنديين ..

وفى بيان أدلى به (هنريش هملر)؛ لتبرير احتلال (ألمانيا) لدولتى (هولندا) و(بلجيكا) ، فى مايو 1940 ، استخدم رئيس جهاز (إس - دى) تلك المعلومات ، التى تم انتزاعها من رجلى المخابرات البريطانيين ، لتأكيد كلماته وقوته ..

وفى الوقت ذاته ، أعلنت (ألمانيا) للعالم كله ، أن المخابرات البريطانية قد تآمرت لقتل (هتلر) ، وأنه قد نجا من الحملة بأعجوبة ..

ولقد تمت مكافأة (شلنبرج) بسخاء ، ومنحه (هتلر) بنفسه الصليب الحديدى ، من الطبقة الأولى ، وهو أعلى وسام للشجاعة ، فى (ألمانيا) كلها ، تقديرًا لدوره فى عملية (فنلو) ، مما رشحه فيما بعد للقيام بعملية لاختطاف دوق (وندسور) ، فى عملية مدهشة أخرى ، ربما يتم نشر وقائعها ، فى القريب العاجل جدًا ..

أما (تشمبرلين) ، فقد حطمته تلك العملية تمامًا ، وبخاصة لما تسبَّبت فيه من خسائر حربية فادحة ، وهزائم متوالية ، أجبرته على الاستقالة ، وإفساح الطريق أمام منافسة (وينستون تشرشل) ، الذى اعتلى كرسى رياسة الوزراء ، مؤيِّدًا تلك التغيرات الجذرية ، التى أجراها (فنرز) ، ومصرًا على التصدى للخطر النازى ، حتى أسقطه فى عام 1945م ..

ولكن حتى هزيمة (ألمانيا) ، وخسارتها للحرب العالمية الثانية ، لم تنجح فى محو ما قام به جهاز مخابراتها ، مع الأشهر الأولى للحرب ، ليحفر اسمه فى تاريخ عالم المخابرات إلى الأبد ، بتلك العملية التى قلبت الدنيا كلها رأسًا على عقب ..

عملية (فنلو) .

* * *

فى العمق ..

على الرغم من الحرب الطاحنة ، التى تدور رحاها فى (أوروبا) كلها ، وجيوش النازى تكتسح كل ما أمامها بلا رحمة ، ظلت (سويسرا) هادئة ، آمنة ، محايدة كعادتها ، فى تلك الفترة الحرجة ، فى أربعينات القرن العشرين ..

وعلى أرضها ، تعايش الخصوم ، بصورة رسمية شرعية ، دون قتال أو تناحر ، احترامًا للمبدأ المحايد ، الذى انتهجته (سويسرا) ، عبر تاريخها الطويل ، حتى إنها كانت المكان الوحيد فى العالم تقريبًا ، الذى يمكن أن يجلس فيه دبلوماسى ألمانى ، مع آخر إنجليزى ، على مقهى واحد ، دون أن يلفت هذا انتباه أحد ..

هذا على السطح فحسب ..

أما فى العمق ، فقد كانت الصورة تختلف تمامًا .. فعلى نحو غير رسمى ، كانت (سويسرا) تزخر بجواسيس الطرفين ، وبمحاولات لا حصر لها ، لكشف الأسرار فى الجانبين ، وتجنيد كل من يمكن تجنيده فى المعسكرين ..

ثم إن وجود خط سكك حديدية مباشر ، يربط بين (سويسرا) و(ألمانيا) ، كان يغرى الإنجليزى دومًا ، بمحاولة دفع بعض

عيونهم وجواسيسهم ، إلى قلب المعسكر النازى ، لجمع المعلومات من الداخل ..

فى عمق العدو ..

وكانت معظم هذه المحاولات تبوء بالفشل الذريع ..

بعضها بسبب الرقابة الصارمة ، ووسائل التفتيش الدقيقة ، التى يتبعها الألمان عند حدودهم ، والبعض الآخر يتم كشفه داخل الأراضى الألمانية نفسها ، مع أى خطأ بسيط ، أو فى أثناء عمليات الفحص الدورية ..

لذا فقد كان الشغل الشاغل للإنجليز هو البحث عن وسيلة مضمونة ، لزرع جاسوس فى العمق الاستراتيجى النازى ، لتعويض النقص فى البيانات والمعلومات الدقيقة ، ومعرفة نيات وأهداف العدو ، قبل أن يضعها موضع التنفيذ ..

وتوالت المحاولات ..

وتوالى الفشل ..

ومع انتصارات الألمانى المتلاحقة ، وغاراتهم العنيفة على (لندن) ، تضاعفت أهمية زرع عميل فى العمق ، وصار من المحتم أن يجد الإنجليزى وسيلة لهذا ، مهما كان الثمن .

و ...

فجأة ، ودون مقدمات ، أتاهم حل عجيب ، على طبق من فضة ..

كان صباحًا لم تشرق فيه الشمس ، وانهمرت فيه الأمطار غزيرة ، على مدينة (برن) السويسرية ، عندما ارتفع رنين الهاتف ، فى مكتب مستر (جورج كاهل) ، القائم بالأعمال البريطانية ، فالتقطت سكرتيرته السماعة بحركة آلية ، قائلة بلهجتها الإنجليزية الحازمة :

ـ من المتحدث ؟!

بدا عليها الاهتمام بعض الوقت ، مما جذب انتباه مستر (كاهل) ، الذى لاحظ حالة الدهشة ، التى أعقبت اهتمامها ، فأشار بيده يتساءل عن المتحدث ، وسمعها تقول فى توتر ، وهى تضع يدها على مسماع الهاتف :

ـ شخص يتحدث الإنجليزية بلكنة ألمانية ، ويصر على التحدث معك شخصيًا .

غمغم الرجل فى حيرة قلقة :

ـ بلكنة ألمانية ؟!

ثم مد يده ، والتقط منها سماعة الهاتف ، وقال فى هدوء بارد :

ـ (جورج كاهل) .. من المتحدث ؟!

أتاه ذلك الصوت ، الذى وصفته سكرتيرته بدقة ، وهو يقول فى هدوء عجيب :

ـ اسمعنى جيدًا يا مستر (كاهل) .. أنا ألمانى ، كما ولابد أنك قد أدركت من لهجتى ، ولكننى لست نازيًا على الإطلاق ، وإن كنت أحتل منصبًا مهمًا ، داخل القيادة الألمانية .

كانت تلك المعلومات القليلة السريعة ، بالغة الأهمية والخطورة ، حتى إن حاجبى مستر (كاهل) قد انعقدا عن آخرهما ووثب حذر غريزى إلى عقله ، وانسكب مع صوته وكلماته ، وهو يقول:

ـ وما شأنى أنا بهذا ؟!

ظل صوت الألمانى هادئًا للغاية ، وهو يقول :

ـ دعك من هذه اللعبة المضحكة يا مستر (كاهل) ، فأنا أعلم ، بحكم منصبى ، إنك على اتصال مباشر بمكتب المخابرات البريطانية السرى فى (سويسرا) .

معلومة أخرى مباغتة ، جعلت قشعريرة باردة تسرى فى جسد (كاهل) ، قبل أن يستعيد صرامته ، قائلاً :

ـ فلنفترض أن هذا صحيح .. ما الذى تريده منى بالضبط ؟!

فى هذه المرة ، كانت المفاجأة أكثر مما يحتمل مستر (كاهل) ، حتى إنه هتف فى انفعال :

ـ تلتقى بمن ؟!

تجاهل الألمانى السؤال تمامًا ، وهو يقول فى حزم صارم :

ـ سأتصل مرة ثانية ، فى تمام التاسعة مساء .. وتذكروا جيدًا .. سأعود إلى (برلين) فى السابعة والنصف من صباح الغد .. إنها فرصتكم الأخيرة .

لم يكد (كاهل) ينهى الاتصال مع ذلك الألمانى المجهول ، حتى أسرع يجرى اتصاله بمكتب المخابرات البريطانية السرى فى (برن) ..

ولم يمض نصف الساعة ، حتى كان رجل المخابرات البريطانى (توماس مان) ، مع فريق من رجاله فى مكتبه ، يسألونه فى اهتمام بالغ عن مضمون الحديث الهاتفى ، ويستمعون إليه فى صبر وهو يعيده مرة ، وثانية .. وثالثة ..

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشر ظهرًا ؛ لذا فقد اجتمع الرجال فى مكتب (كاهل) ، لدراسة مغزى ذلك الاتصال الهاتفى ، قبل أن يتراجع (توماس) فى مقعده ، ويقول فى حزم :

ـ هناك احتمالان ، لا ثالث لهما .. إما أن ذلك الألمانى سيطلب اللجوء السياسى إلينا ، نظير ما يحمله من معلومات ، عن القيادة العسكرية النازية ، أو ...

صمت لحظة ، ثم مال إلى الأمام ، وأضاف بمنتهى الصراحة :

- أو أنه يعرض التعاون المستقبلى معنا .

تبادل الرجل نظرة صامتة ، قبل أن يقول أحدهم :

- الاحتمالان مفيدان لنا ، ولكننى أتمنى صحة الاحتمال الثانى .

غمغم (توماس) :

- كلنا هذا الرجل .

ثم استعاد حزمه ، وصرامته ، وهو يتابع :

- ولكن المهم أن نعرف أولاً من هذا الرجل ، وما موقعه فى القيادة النازية ، وكيف بلغ ذلك الموقع ، دون أن يكون نازيًا حتى النخاع ؟!

قال رجل آخر :

- كل نظام به عدد من المتسلقين ، الذين يمكنهم التظاهر بالانتماء له ، فقط ليفوزوا بالغنائم أو المناصب الكبرى .

تساءل رجل ثالث فى قلق :

- وهل يمكن أن نثق فى رجل كهذا ؟!

أشار (توماس) بيده ، قائلاً فى صرامة : هذه الأسئلة سابقة

لأوانها .. المهم الآن أن نعرف من ذا الذى نتحدث إليه ؟!

قال أحد الرجال : فور اتصاله سوف ..

قاطعة (توماس) فى صرامة :

- إننا لن ننتظر اتصاله .

ثم نهض من مقعده ، متابعًا فى حزم :

- (برن) بلدة صغيرة ، وعدد الألمان الذين يزورونها لقضاء إجازاتهم محدود ، ومازالت أمامنا تسع ساعات ، حتى موعد اتصاله القادم ، ولن نضيع هذه الساعات التسع عبثًا .. هل تفهمون ؟!

كان قوله هذا تكليفًا لرجاله ، بالسعى لمعرفة هوية ذلك الألمانى ، قبل أن تحين لحظة اتصاله التالية ..

ومن المؤكد أن الرجال قد أبلوا بلاءً حسنًا بحق ، ففى تمام التاسعة ، وعندما أجرى الألمانى اتصاله ، التقط (توماس) سماعة الهاتف ، وقال فى هدوء ، وهو يدور بمقعده فى استرخاء :

- مرحبا يا (فون داين) إننى أنتظر مكالمتك .

جاوبه الصمت بضع لحظات ، قبل أن تأتيه ضحكة عصبية ، قال الألمانى بعدها :

- كنت واثقًا من أنكم ستعملون بأقصى طاقتكم ، ولهذا منحتكم تلك الفترة الطويلة ، قبل اتصالى الثانى ، لأتأكد من أن التعاون معكم لن يكون محفوفًا بالخطر .

لم يكد (توماس) يسمع عبارة التعاون معكم هذه ، حتى تفجر بداخله كل الاهتمام ، وإن كتم هذا عن صوته الهادئ ، وهو يقول :

- ما الذى تريده بالضبط يا سيد (فون داين) ؟!

أجاب الألمانى فى سرعة وحزم :

- هذا يحتاج إلى لقاء مباشر .

ومنذ هذه اللحظة ، بدأت الأمور تتحرك بسرعة كبيرة ، أكثر من المعتاد ..

فبترتيبات أمنية مشددة ، واحتياطات على أعلى مستوى ، التقى (توماس مان) بالألمانى (رودلف فون داين) فى منزل آمن ، فى قلب (برن) ..

كان الرجل بالفعل موظفًا كبيرًا ، فى قسم المعلومات الخاص ، فى القيادة العسكرية النازية ، وعضوًا فى الحزب النازى ، على الرغم من بغضه الشديد لأسلوب الحكم القهرى الديكتاتورى ، الذى التهم خمسة من أفراد عائلته المقربين ، دون رحمة أو شفقة ..

وبمنتهى الوضوح ، كان يطلب العمل لحساب المخابرات البريطانية ..

فكانت فرصة نادرة للبريطانيين ، لا يمكن تجاوزها أو التغاضى عنها ، ولكن هذا الأسلوب المباشر لا يروق أبدًا لنظم المخابرات ، لما يثيره فى نفسها من الشك والحذر والريبة ..

ولقد أكد (فون داين) أنه ليس خائنًا لوطنه (ألمانيا) وإنما يسعى لهزيمة النظام النازى ، الذى يقود وطنه إلى الهلاك .

ولم يناقش الإنجليزى قط فى هذا الأمر ، ولكنهم أجروا كل ما يمكنهم من تحريات عنه ، قبل أن يقرروا التعاون معه فعليًا ..

وفى زيارته التالية ، لقضاء إجازة قصيرة سريعة فى (سويسرا) ، بدأ (فون داين) تدريباته ، على يد (توماس) ، ليدلف بقدميه إلى ذلك العالم الغامض المثير ..

عالم الجاسوسية ..

وعاد (فون داين) إلى (برلين) وحقيبته تحوى الحبر السرى ، وكتيب الشفرة وكل ما يحتاجه عالمه الجديد .

ومنذ أول أيام عودته ، بدأ (فون داين) يتحدث عن تلك السويسرية الحسناء التى وقع فى غرامها منذ اللحظة الأولى ، وراح يصف حسنها وجمالها ، ورقتها ..

وبعد عودته بأسبوع واحد ، وصله خطاب معطر من (برن) يمتلئ بعبارات الحب الملتهبة ويحوى صورة للحسناء السويسرية ، وقعتها بطلاء شفتيها ..

وأصبح الخطاب حديث المكان كله ، قبل مرور ساعة واحدة على استلام (فون داين) له .

وحساسية منصبه وموقعه ، فـى القيـادة الألمانيـة ، كـانت خطاباته تخضع للفحص والمراقبة ؛ لذا فقد بدأ يرسل لمحبوبته السويسرية خطابات الحب ، ويستقبل خطاباتها ، دون أن تحوى الخطابات الواردة ، أو المرسلة ، أى شىء يمكن أن يثير الشبهات .

وبالتدريج اعتاد رجال الفحص والمراقبة خطابات (فون داين) وأصبحوا يكتفون بفتح المظاريف ، ثم إعادة إغلاقها برباط لاصق خاص ، يحمل ما يشير إلى أن الخطاب قد خضع للفحص ..

وبدأ البريطانيون يختبرون نظم الرقابة الألمانية ، مع خطابات (فون داين) ..

ولقد استخدموا فى هذا أساليب عبقرية ومبتكـرة بحق ، ووسـائل غاية فى البساطة والحنكة ، كشمعة بيضاء صغيرة ، يتم وضعها بين طيات الخطاب ، أو ذرات فى السكر فى خطاب آخر ..

ومع الوقت ، تأكدت المخابرات البريطانية فى روتينية عملية الفحص ، وعدم جديتها ..

وهنا ، بدأ سيل المعلومات ينهمر ..

كل ما يقع تحت يد (فون داين) ، كان يتحول إلى رسائل مشفرة ، بالحبر السرى ، يكتبها الألمانى فى الليل ، ثم يتركها لتجف ، قبل أن يحمل دفتره الخاص إلى مقر عمله ، ويكتب رسالته إلـى محبوبته السويسرية الوهمية ، بالحبر العادى ، تحت سمع وبصر الجميع ، فى جرأة يحسد عليها ..

وفى إجازته القصيرة ، كـان يسـافر إلـى (برن) بحجـة لقـاء محبوبته ، حيث يستقبله (توماس) ، فـى المنزل الأمن المتفق عليه ، ليدربـه على مهـارات جديدة ، أو يناقشـه فى بعض مـا أرسله من معلومات ، أو يملى عليه بعض الأوامر الجديدة ..

ومع إعلان (ألمانيا) الحرب على (روسيا) تضاعفت أهميـة وجود (فون داين) فى القيادة الألمانيـة ، ممـا دفـع البريطـانيين إلى القيـام بعمليـة انتحاريـة ، لنقل جهاز اتصال لاسلكى بعيـد المدى ، إلى داخل الأراضى الألمانية ، بحيث يتمكن (فون داين) من العثور عليه ، ونقله خفية إلى منزله ..

وفى اللقاء التالى ، بدأت عملية تدريب الألمـانى على إرسـال واستقبال البث اللاسلكى المشفر ..

وبدأت (ألمانيا) مرحلة الهزائم ..

أمور عديدة راحت تنهار على نحو مقلق ، يوحـى بوجود تسرب شديد فى المعلومات ، من داخل القيادة العسكرية نفسها ..

وكان هذا يعنى وجود جاسوس فى العمق ..

جاسوس لابد من البحث عنه والعثور عليه ، مهما كان الثمن ..

وبأوامر من (هملر) شخصيًا ، بدأت عملية فحص دقيقة ، لكل خطاب يصل أو يرسل من القيادة ..

وكان هذا يشمل خطابات (فون داين) أيضًا ..

ولكن ذلك الألمانى كان عبقريًا بحق .. وبكل المقاييس ، فقد انتبه إلى حالة التوتر ، التى سادت القيادة ، فتوقف فورًا عن إرسال المعلومات ، أو استخدام الحبر السرى ، وإن لم يتوقف عن إرسال خطابات الغرام الملتهبة ، إلى تلك السويسرية المزعومة ، التى واصلت إرسال خطاباتها إليه بدورها ..

ولن (هملر) كان أيضًا عبقريًا فى مضماره ، فقد راح يفحص بنفسه ملفات كل العاملين فى القيادة الألمانية ، واستعان فى هذا بأحد أفضل رجاله ..

(إيريك فون كلايست) ..

ولأن الرجلين من عباقرة المخابرات عبر التاريخ ، فقد راحا يتبعان أسلوب الفرز والاستبعاد ، لحصر العالمين ، الذين يحتمل تورطهم فى الأمر ..

وعلى الرغم من منصب (فون داين) ، وتاريخه فى الحزب النازى ، انتقاه (فون كلايست) من بين المشتبه فيهم ؛ نظرًا لما أصاب عائلته ، تحت الحكم النازى .

وبدأت عملية مراقبة دقيقة ، وسرية للغاية ، لتضييق دائرة الاشتباه ..

وأثناء علمية المراقبة ، وقع (فون داين) فى أول وأكبر خطأ فى حياته ..

لقد بث بعض المعلومات اللاسلكية ..

والتقط أحد أجهزة المراقبة البث ، وتم حصر نطاق الإرسال ، وراجع (فون كلايست) المعلومات مع أسماء المشتبه فيهم ..

وفى الثالثة صباحًا ، بعد ثلاثة أيام بالتحديد ، اقتحم رجال المخابرات الألمانية منزل (فون داين) ، وألقوا القبض عليه ، وهو يبث بعض المعلومات العسكرية بالفعل ..

وكانت خسارة كبيرة للبريطانيين ، أن تم إلقاء القبض على (فون داين) ، وإعدامه بعد محاكمة قصيرة ..

ولكن من المؤكد أن ما أرسله من معلومات ، خلال فترة عمله الطويلة ، كان قد وضع الألمان فى موقف لا يحسدون عليه ، بعد أن بلغ منحنى هزائمهم أقصاه ، وأصبح اندحارهم التام مسألة وقت فحسب ..

هذا لأنه كشف أسرارهم كلها أمام خصومهم ، وطعنهم طعنة نجلاء .. فى العمق .

* * *

قانون الحروب ..

على عكس البداية القوية ، التى شهدها العالم كله ، للحرب العالمية الثانية ، عندما انطلقت جيوش (هتلر) من عقالها ؛ لتجتاح أمامها أعتى وأقوى الجيوش القديمة ، فى (أوروبا) كلها ، وتسقط أعلام (فرنسا) و(هولندا) ، و(بولندا) ، تحت أقدام القوات الألمانية النازية ، التى سيطرت فى عامين فحسب ، على رقعة هائلة من الأرض ، تفوق مساحة دولتها الأصلية بسبع مرات على الأقل ، ثم تتجه بكل عنفوانها نحو (روسيا) ، فى نفس الوقت الذى تدك فيه قواتها العاصمة البريطانية دكًا ، لم يأت منتصف عام 1942م ، حتى بدا من الواضح أن ساحة المعركة تشهد تحولاً خطيرًا ، وانقلابًا جذريًا ، يوحى بانقلاب دفة الأمور ، وببدء رد الفعل ، فى اتجاه قوات المحور ، مع الضربات العنيفة ، التى تلقتها الجيوش النازية ، وسط ثلوج (روسيا) ، والتى أجبرتها لأول مرة على التراجع ، ونقل سياستها من الهجوم إلى الدفاع ، وتحويل اتجاهها من الشرق إلى الغرب ..

وفى (لندن) ، راحت المخابرات البريطانية تنظم العملية تلو الأخرى ؛ لتوجيه ضربات قوية قاصمة للقوات النازية ، وتجند الجواسيس والعملاء ، لسرقة الوثائق والمعلومات ، ومفاتيح الشفرة ، التى تساعد على دحر العدو النازى ، وتعميق اندحاره أكثر وأكثر ..

ومن بين رجال المخابرات البريطانية ، حظى الماجور (ويليام تروت) بمنتهى الثقة ، لنجاحاته المتوالية ، فى جلب أكبر كم من الأسرار والمعلومات ، من قلب الكيان النازى ، حتى اعتبره جهاز المخابرات النازى العدو رقم واحد للرايخ الثالث ، على كل الجبهات ..

ولأن (أدولف هتلر) لم يكن يقبل أبدًا بتفوق غير الآريين ، فقد أحنقه كثيرًا نجاح (ويليام تروت) ، مما جعله يستدعى قائد الجستابو والمخابرات (هملر) ، ليسند إليه مهمة واضحة ومحددة ..

القضاء على الماجور (ويليام تروت) .. وبأى ثمن ..

ولأن (هملر) رجل مخابرات محترف ، ولأنه يؤمن تمامًا بمبادئ الرايخ الثالث ، وقواعد النازية ، وبزعيمه (أدولف هتلر) ، اعتبر أن ما تلقاه هو أمر مقدس واجب التنفيذ ، وبأقصى سرعة ..

فى البداية ، جال بخاطره القيام بعملية انتحارية عنيفة ، يتسلل خلالها فريق من رجال الكوماندوز النازيين ، بالتسلل إلى العاصمة البريطانية ، حيث يتعقبون (تروت) ، وفقًا لمعلومات استطلاعية مسبقة ، ثم ينقضون عليه فى منطقة يتم اختيارها بدقة ؛ ليمطروه برصاصتهم ، ويزيحونه مع نجاحاته المتواصلة من طريق المد النازى إلى الأبد ..

ولكن خطة كهذه كانت تحوى عشرات من نقاط الخطر والمجازفة ،

كما أن الفريق الذى سينفذها ، لا تكتب لـه العودة حتمًا ، ممـا يعنى خسارة مجموعة من أكثر رجال الكوماندوز كفاءة ، فى عملية قد لا يتحقَّق الغرض منها ، لأى سبب كان !..

لذا ، كان من الضرورى البحث عن وسيلة أخرى ..

وسيلة أكثر منطقية ، وأكثر مخابراتية أيضًا ..

وفى اجتماع عاجل ، ضم معاونيه الثلاثة فحسب ، طرح (هملر) تكليف الفوهلر وأوامره ، وطلب الآراء والمقترحات ..

ووسط مجموعة من الآراء المعقَّدة ، غير القابلة للتنفيذ ، نهض رجل المخابرات النازى الشاب (رودلف راينهارد) ، ليقول فى حزم :

ـ تحريات عملائنا فى (لندن) ، تؤكِّد أنهم يعملون على حماية (تروت) هذا طوال الوقت ؛ لأنهم يدركون مدى خطورته بالنسبة لنا ، ويثقون فى أننا سنبذل كل طاقتنا للوصول إليه ؛ لـذا فعمليـة التخلُّص منه لابد وأن تتم بأسلوب دقيق وبارع للغاية .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ وبتضحية كبيرة أيضًا .

سأله (هملر) فى اهتمام :

ـ وما الذى تقصده بالتضحية بالضبط ؟!

التقط (راينهارد) نفسًا عميقًا ، ليجيب بمنتهى الحزم :

ـ أقصد تضحية كبيرة .. كبيرة للغايـة .. تضحية تتناسب مع الهدف .

وعندما شرح خطته ، أدرك الجميع أنهـا بـالفعل خطـة دقيقـة ، وبارعة ..

وأن التضحية التى يقصدها كبيرة بالفعل ..

وإلى أقصى حد ..

وفى (لندن) ، وبعد أسبوع واحد من هذه الأحداث ، كان المـاجور (ويليام تروت) يتلقَّى التهنئة من رفاقه ، بعد نجاح عمليـة جديـدة ، حصل عملية بوساطتها على مفتاح شفرة اتصالات الطيران النازى ، عندما دلف أحد الرجال إلى الحجرة ، وهو يقول فى اهتمام :

ـ هناك رجل يطلب مقابلة أحد المسئولين هنـا ، ويلحّ فـى الطلب على نحو عجيب ، ويرفض الانصراف مؤقتًا ، حتى لـو تحدَّد لـه موعد تال .

سأله أحد رفاق (تروت) :

ـ وما سبب المقابلة الذى أعلنه ؟!

هزَّ الرجل رأسه ، قائلاً :

ـ إنه لا يعلن أسبابه ، إلا أنه يؤكِّد أن الأمر عاجل وخطير للغاية .

تبادل الرفاق نظرة صامتة ، قبل أن يقول الماجور (كاربنتر) :

ـ فليكن .. سألتقى به فى مكتب الاستقبال ، فى الطابق السفلى .

لم تمض دقيقة واحدة ، حتى كان الماجور (كاربنتر) يلتقى بالرجل ، الذى بدا شاحبًا متوترًا ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيِّدى .. لقد بذلت جهدًا كبيرًا ، حتى أصل إلى هنا ، دون أن ينكشف أمرى ، وربما لا يمكننى أن أعود مرة أخرى .

تراجع الماجور (كاربنتر) فى مقعده ، متسائلاً :

ـ ماذا لديك بالضبط يا رجل ؟!

ازدرد الرجل لعابه فى صعوبة ، وزاغت عيناه على نحو واضح ، وهو يقول :

ـ إننى أعمل فى قصر اللورد (وينتر بورن) .

أومأ (كاربنتر) برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ اللورد (وينتربورن) من رجال مجلس العموم ، وهو ..

قاطعه الرجل ، فى عصبية شديدة :

ـ وهو جاسوس نازى .

انتفض (كارنبتر) على مقعده فى عنف ، على الرغم من بروده المعروف ، وحدَّق فى وجه الرجل بدهشة عارمة ، قبل أن ينعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ سامع يا هذا ... فى زمن الحرب ، لا يحق لك أن تلقى الاتهامات على هذا النحو ، وبخاصة عندما يتعلَّق الأمر برجل له مكانته السياسية والاجتماعية ، ولم يتطرَّق إليه الشك قط ، مثل اللورد (دينتربورن) .

كرَّر الرجل فى عناد وعصبية أكثر :

ـ سيِّدى .. إننى أعمل فى قصر اللورد منذ أكثر من عشرة أعوام ، وهو رب عملى وولى نعمتى ، ولقد تردَّدت كثيرًا قبل أن آتى إليكم للإبلاغ عنه ، ولكننى كنت أتمزَّق بين ولائى له ، وانتمائى لوطنى خاصة وأن .. وأن ...

اضطرب كثيرًا ، عند هذه النقطة ، وتضاعفت عصبيته أكثر وأكثر ، وبدا وكأن الكلمات قد احتبست فى حلقه ، مما جعل (كاربنتر) يستحثه ، قائلاً :

ـ وأن ماذا يا رجل ؟!

ازدرد الرجل لعابه فى صعوبة بالغة ، وبدا وكأنه يجاهد تردُّده ، قبل أن يندفع قائلاً فى توتر :

ـ خاصة وأنه قد تلقى أوامر نازية ، بالتخلُّص من أحدكم .

تراجع (كاربنتر) فى مقعده ، هاتفًا :

ـ من أحدنا ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال فى سرعة ، وكأنما يخشى أن يغلبه خوفه ، ويمنعه من الاستطراد ، لو تردَّد لحظة واحدة :

ـ نعم .. أحدكم .. إنه ماجور يدعى (توت) .. (ويليام تروت) .

وتراجع (كاربنتر) فى مقعده أكثر وأكثر ، وانعقد حاجباه بمنتهى الشدة ، وقد أيقن تمامًا من أن الرجل صادق فى قوله وشكوكه ؛ إذ إن عددًا من رفاقه قد تلقوا دعوة إلى العشاء ، على مائدة اللورد (وينتر بورن) ، وعلى رأسهم زميله الماجور (تروت) ..

وكان من الضرورى إبلاغ (تروت) بالأمر فورًا ، ولم تكن دهشته بأقل من دهشة (كاربنتر) ؛ لذا فقد عاد يستجوب الرجل مرة .. وثانية .. وثالثة ، قبل أن يطلب منه الصمت تمامًا ، ويجنده للعمل لحسابه ، داخل قصر اللورد (وينتربورن) ، فى نفس الوقت الذى بدا فيه يجمع كل المعلومات الممكنة عنه ، من هذا المنظور الجديد ..

والواقع أنها كانت صدمة عنيفة لجهاز المخابرات البريطانى كله ،

فاللورد (وينتر بورن) لم يكن عضوًا فى مجلس العموم البريطانى ، وواحد من كبار رجال المجتمع فحسب ، وإنما كان أيضًا أحد أعضاء لجنة الدفاع ، المسئولة عن متابعة نفقات الجيش البريطانى ، واتفاقياته الاقتصادية ، والعسكرية أيضًا ، وكشف أنه يعمل لحساب المخابرات النازية ، يعنى أن كل ما يتعلَّق بالجيش البريطانى ، كان مكشوفًا إلى حد كبير للنازيين ، طوال السنوات الماضية ..

وهذا ما أثبتته التحريات الجديدة ، وبخاصة تلك التى أكدَّها عميل رفيع المستوى ، فى قلب الجهاز النازى ، عندما أرسل بعض البرقيات ، التى أرسلها (وينتربورن) للمخابرات النازية ، والتى تحوى معلومات ، لم يكن بوسع أحد معرفتها ، إلا لو كان عضوًا فى لجنة الدفاع بالفعل ..

وكتداع طبيعى ، لهذه الصدمة العنيفة ، كان على جهاز المخابرات البريطانى أن يلجأ إلى حلين ، لا ثالث لهما ؛ فإما أن يتم إلقاء القبض على اللورد (وينتربورن) مباشرة ، وتوجيه تهمة التجسُّس لحساب المخابرات النازية فى زمن الحرب إليه ، أو الانتظار حتى يتم جمع كافة المعلومات والدلائل القوية ، التى تثبت تورطه ، ثم إلقاء القبض عليه بعدها ، على نحو لا يسمح له بالاعتراض ، أو ادعاء البراءة ، بأى حال من الأحوال ..

ولأن الرأى العام البريطانى ، لم يكن ليتقبَّل الأمر أبدًا ، دون

أدلة قوية واضحة ، تم الاتفاق على تبنى الوسيلة الثانية ، وقبول دعوة اللورد (وينتربورن) ، تحت مظلة من المعلومات ، وإلقاء القبض عليه ، متلبسًا بمحاولة التخلُص من (تروت) ، مما يضفى شرعية ومصداقية قويتين على الموقف ، ويوفّر كل الأدلة المنشودة ..

وعبر الرجل ، الذى أبلغ عن الأمر ، والذى أطلق عليه البريطانيون فى وثائقهم اسم (جون) ، تم ترتيب الموقف كله ..

فاللورد (وينتربورن) ، وفقًا لأقوال (جون) ، كان سيدس للماجور (تروت) سمًا بطىء المفعول ، فى الشراب الذى سيتناوله فى الحفل ، بحيث يبدأ تأثير ذلك السم بعد اثنتى عشرة ساعة ، فيصاب (تروت) بأعراض تتشابه مع أعراض الأزمات القلبية ، ويلقى مصرعه على مكتبه ، وسط رفاقه ، وعلى نحو لا يتطرّق إليه الشك قط ..

وتم وضع خطة دقيقة ؛ لتفادى حدوث هذا ، بالتنسيق مع (جون) ، بحيث يستبدل كأس (تروت) ، فى اللحظة الأخيرة ، دون أن ينتبه (وينتربورن) إلى هذا ، ثم يسلم الكأس الأصلية إلى (كاربنتر) ، الذى يقوم بتحليل محتوياتها ، وإثبات محاولة القتل بالسم بطىء المفعول ..

وفى مساء السبت التالى ، لبى الرجال دعوة اللورد (وينتربورن) بالفعل ، واستقبلهم الرجل بمنتهى الحرارة والترحاب ، وقضى معهم بعض الوقت ، فى حديث مستفيض ، حول تطورات الحرب ، وتراجع الجيوش النازية ، وتوقعات هزيمة (هتلر) فى المستقبل ، بل وامتدّ الأمر إلى محاولات التكهن بمصير الفوهلر ، بعد الهزيمة والاندحار ، وبمصير (ألمانيا) كلها من بعده ..

ثم حان وقت تناول الشراب المنعش ، والتى تسبق مأدبة الطعام مباشرة ، وظهر (جون) مع باقى الخدم ، وهم يحملون الكئوس ، وبدا من الواضح أن اللورد يتابعهم فى اهتمام بالغ ، وخصوصًا (جون) ، الذى اتجه مباشرة نحو (تروت) ، الذى يحمل فى الحفل كالمعتاد اسمًا مستعارًا ، وانحنى يقدّم له كأسه ، قائلاً :

ـ كأسك يا سير (سكوت) .

وبحركة بارعة متفق عليها ، اتخذ (جون) وقفته ، بحيث يحول بين اللورد ورؤية ما يحدث ، فى حين التقط من طيات ثيابه كأسًا أخرى ، ناولها للماجور (تروت) خفية ، وهو يدس الكأس الأصلية فى نفس الجيب الخفى ، من سترته الكبيرة الفضفاضة ..

وفى هدوء يستحق الإعجاب ، انسحب (جون) من الحجرة ، والتقى فى ممر جانبى بالماجور (كاربنتر) ، فناوله الكأس الأصلية فى حذر ، مغمغمًا :

ـ هل أديت دورى كما ينبغى يا سيِّدى ؟!

أجابه (كاربنتر) فى حزم ، وهو يفرغ محتويات الكأس فى قنينة صغيرة ، ثم يدسّها فى جيبه :

ـ بالتأكيد يا (جون) .. بالتأكيد .

فى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته ، كان اللورد (وينتر بورن) يرفع كأسه أمام ضيوفه ، قائلاً فى حماس :

ـ نخب انتصار (بريطانيا) المنتظر .

شاركه الجميع النخب ، ومن بينهم (تروت) ، الذى رفع كأسه البديلة إلى شفتيه ، وجرعها حتى الثمالة ..

وفى مساء الليلة نفسها ، فى وكر الثعالب ، وهو الاسم الذى يطلقونه على مقر جهاز المخابرات النازى ، انعقد حاجبا (هملر) ، وهو يستقبل مساعده الشاب (راينهارد) ، قائلاً :

ـ هل وصلت أخبار من (لندن) ؟!

ابتسم (راينهارد) ، وهو يجيب فى حزم :

ـ بالتأكيد يا جنرال .. لقد كانت أمامنا عقبة كبرى ، ألا وهى أن عملاءنا لم ينجحوا أبدًا فى معرفة الهوية الحقيقية للماجور (ويليام تروت) ، نظرًا للسرية المطلقة ، التى يحيطونه بها ، فى جهاز المخابرات البريطانى ، ولكن خطتنا الدقيقة ، وتضحيتنا الكبرى بأهم عملائنا ، فى لجنة الدفاع البريطانية ، دفعتهم إلى كشف هوية (تروت) ، وما إن تعرَّفه عميلنا الثانى ، حتى دس له السم فى كأسه ، وبرقيته تؤكِّد أنه قد جرع كأسه كلها ..

تألَّقت عينا (هملر) ، وهو يقول :

ـ وماذا عن عميلنا ؟!

أجابه (راينهارد) بنفس الحزم :

ـ ما إن يلقى (تروت) مصرعه ، حتى لا تعود له أية أهمية .. فليظفر به البريطانيون لو شاءوا ، أو فليمزقوه إربًا لو أراده ، فلن يعنينا أمره بعدها .. هذا هو القانون أيها الجنرال .. قانون الحروب .

ولقد كان (راينهارد) صادقًا ، فى كل حرف نطق به ، ففى الليلة نفسها ، ومع منتصفها تمامًا ، أصيب (ويليام تروت) بأزمة قلبية عنيفة ، بسبب ذلك السم ، الذى دسَّه له (جون) ، بعد أن كشف هويته ، فى حين لم يثبت الفحص وجود أية سموم ، بطيئة أو سريعة ، فى محتويات الكأس الأصلية ..

ولقد تم إلقاء القبض على اللورد (وينتربورن) ، بتهمة الخيانة فى زمن الحرب ، وتم إعدامه رميًا بالرصاص ، بعد تصديق مجلس العموم البريطانى على الحكم ، الذى صدر بناءً على كومة من الوثائق والأدلة ..

أما (جون) ، فقد فرّ من القصر ، بعد أن تأكّد من شرب (تروت) للسم مباشرة ، وانطلقت المخابرات البريطانية للبحث عنه ، بعد مصرع هذا الأخير ، فى طول (لندن) وعرضها ، حتى تم الإيقاع به فى ضاحية بعيدة ، وألقى القبض عليه ، وتم استجوابه لستة أسابيع كاملة ، قبل أن يتم إعدامه أيضًا رميًا بالرصاص ، وفقًا للقانون نفسه ..

القانون الذى لا يعرف الرحمة أو الهوادة ..

قانون الحروب .

* * *

قاهر الجواسيس ..

من المؤكّد أن العالم كله ، على اتساع رقعته وتاريخه ، لم يشهد مرحلة طويلة متصلة ، من الحروب العنيفة ، والمصادمات الشديدة ، التهبت خلالها ساحة الجاسوسية ، وازدهرت ، وأنجبت آلاف العمليات المثيرة ، التى تبهر العقول ، وتحبس الأنفاس ، وتخلب الألباب ، من فرط جرأتها ، وعبقريتها ، وأساليبها المدهشة المبتكرة ، مثل الحرب العالمية الثانية ..

ولأن لكل فعل رد فعل ، مساويًا له فى القوة ، ومضادًا له فى الاتجاه ، كان من الطبيعى أن ينشأ تيار مضاد ، وأن تولد ساحة حرب جديدة ، قوامها رجال صنعوا من أنفسهم وعبقريتهم جبهة جديدة قوية ، مهمتها الرئيسة هى مواجهة الجواسيس ، وأساليبهم ، وابتكاراتهم ، لكشف أمرهم ، والإيقاع بهم ، ومنعهم من تحقيق مآربهم ..

كل جانب ، بزُّوا وتفوّقوا ، وسجلوا تاريخهم بحروف من جهد وعرق ودم ، فى هذا العالم الغامض المثير ..

وعلى رأس كل هؤلاء ، استقرّ أقوى خبير لمكافحة الجاسوسية ، عرفته تلك الفترة الحافلة ..

(إيريك فون كلايست) ..

و(فون كلايست) يشترك مع (أدولف هتلر) ، الزعيم النازى الكبير ، فى أن كليهما نمساوى الأصل ، بدأ كشخص بسيط ، ثم التحق بالحزب النازى ، وترقَّى فيه بسرعة ، حتى بلغ أرفع مناصبه ..

ففى الوقت الذى أصبح فيه (أدولف هتلر) مستشارًا للحزب ، حصل رفيقه (هملر) على منصب رفيع فى مخابرات النازى ، وكان (فون كلايست) هو ذراعه اليمنى ، وعقله المُفكر ، والشخص الوحيد الذى يمنحه ثقته وأذنه ، ويسند إليه أصعب وأدق المهام ، فى عالم مكافحة الجاسوسية ..

ولقد كان (فون كلايست) جديرًا بهذا دون أدنى شكّ ، كما تشهد ملفات وسجلات مكافحة الجاسوسية ، فى (ألمانيا) النازية ..

وعلى عكس باقى رجال الجستابو ، فى (ألمانيا) النازية ..

وعلى عكس باقى رجال الجستابو ، والمخابرات الألمانية ، لم يكن (فون كلايست) يؤمن بالعنف ، أو باستخدام القوة ، لانتزاع المعلومات أو الاعترافات ، من كل من يتم إلقاء القبض عليه ، بتهمة الجاسوسية ، فقد كان يؤمن تمامًا بأن كل ما يمكن أن تفعله القوة ، هى أن تمنحك اعترافًا ، لا يمكنك أن تثق فى صحته ، بأكثر مما تثق فى قدرة صاحبه على تحمُّل الألم والعذاب ..

فبالنسبة له ، كان انتزاع الاعترافات والمعلومات فن ، ولعبة يستمتع بكل لحظة منها ، كما لو أنها رقعة شطرنج فارسية أصلية ، بين لاعبين ماهرين ، لا يشعر أيهما بالنصر والظفر ، إلا إذا كان خصمه قويًّا ماهرًا مثله ..

وتاريخ (فون كلايست) يحوى العديد من القضايا ، التى أثبت فيها براعته ، وسعةَ حيلته ، وذكاءه المفرط ..

ولعل أشهر هذه القضايا قضية المعلومات ، التى كانت تتسرَّب من مقر الجيش فى (باريس) ، حيث يعمل العشرات من الباريسيين ، فى وظائف مدينة معاونة ..

فمع تسرُّب المعلومات المستمر ، قامت المخابرات النازية بحصر كل المشتبه فيهم ، من العاملين فى المقر الرئيس ، وتم إخضاعهم لنظام أمنى محكم تمامًا ، حيث يتم تفتيشهم بمنتهى الدقة ، فى دخولهم وخروجهم ..

ولكن كل هذا لم يُسفر عن شىء ..

وعندما تواصل التسرُّب ، على الرغم من كل الإجراءات ، وحتى بعد أن تم فحص أزياء العاملين شبرًا شبرًا دون جدوى ، قرَّر (هملر) إسناد هذه المهمة لجواده الأسود الرابح دومًا ..

(إيريك فون كلايست) ..

وعلى متن طائرة حربية خاصة ، سافر (فون كلايست) ، من (برلين) إلى (باريس) ، حيث استقبله رجال (الجستابو) والمخابرات وهم يرتجفون ، متصوِّرين أنه سيكون نسخة طبق الأصل من رئيسه (هتلر) ، فى عصبيته وعجرفته وقسوته ؛ لذا فقد أدهشهم أيما دهشة ، بمظهره الواثق القوى الهادئ ، وقامته الممشوقة ، وذلك البريق المهيب ، المطلّ من عينيه ، وهو يهبط من الطائرة ، بعد رحلته المباشرة ، بزى عسكرى أنيق ، ونشاط جم ، ليقول بلهجة من اعتاد أن يأمر فيُطاع :

ـ دعونا نبدأ العمل فورًا ، فكل دقيقة تمضى ، قد تعنى المزيد من تسرُّب الأسرار ..

كان هذا أمرًا مدهشًا إضافيًا ، فالرجال كانوا يتصوَّرون أنه سيحتاج ولو إلى ساعة واحدة من الراحة ، قبل أن يبدأ عمله ، وكانوا قد أعدُّوا مأدبة حافلة ، ولكن (فون كلايست) لم يبد قط ، فى حياته كلها ، اهتمامًا بالطعام وشهواته ؛ لذا فقد أصرَّ على بدء العمل مباشرة ، وانتقل مع رجال المخابرات النازية إلى مقر القيادة الباريسى ، وطلب مواجهة كل المشتبه فيهم فورًا ، على أن يرتدى كل منهم ملابس الانصراف ، وكأنه سيغادر المقر إلى منزله ..

وعلى الرغم من أن الرجال لم يفهموا ما يرمى إليه (فون كلايست) ، إلا نهم نفذُوا أوامره بمنتهى الدقة ، ووقفوا يراقبون

ما سيفعله ، بمنتى الدقة ، والاهتمام ، بعد كل ما بلغهم من براعته ومهارته ، فى كشف الجواسيس ..

كانوا يتوقعون استجوابات صارمة ، ونظرات نارية ، وأصوات جهورية ؛ لذا فقد أدهشهم (فون كلايست) كثيرًا ، عندما جلس صامتًا هادئًا ، يراقب المشتبه فيهم بعينين كالصقر ، دون أن ينبس ببنت شفة ، أو يرتسم على وجهه أدنى انفعال ..

كان من الواضح أنه يفحصهم ويسبر أغوارهم ، بكل خبرته وذكائه وتاريخه ، و ... « فكرة ذكية بالفعل .. »

نطقها (فون كلايست) بغتة ، وهو ينهض من مقعده ، ويتجه نحو موظف باريسى طويل القامة ، يرتدى معطفًا سميكًا ، له أزرار معدنية كبيرة ..

وبهدوء واثق ، وعينين تتألقان ببريق النصر ، وضع (فون كلايست) يده على كتف الباريسى ، قائلاً فى رصانة ظافرة :

ـ دعنى أهنئ رؤساءك على عبقريتهم .

حاول الرجل أن يعترض ، ولكن (فون كلايست) استوقفه بإشارة صارمة قاسية من يده ، قبل أن يمدَّ أصابعها إلى أحد أزرار المعطف ، ويديره فى خفة وسرعة ..

وقبل أن يستوعب رجال المخابرات النازية الأمر ، سقط غطاء

الزر الكبير ، وسقطت من داخله أوراق صغيرة ، مكتوبة بحروف دقيقة للغاية ، حاملة أدق أسرار القيادة ، فى الأسبوع المنصرم ..

وفى نفس الوقت ، الذى اتسعت فيه عيون الرجال دهشة وانبهارًا ، التقط (فون كلايست) معطفه ، وأشار إليهم بيده فى حزم ، قائلاً :

- هيا .. دعونا نعود إلى المطار .

كان رجلاً فذًّا ، من نوع مدهش ، حتى إن الرجال قد رافقوه فى انبهار ، إلى المطار ، ولم يتمالك أحدهم نفسه ، فسأله :

- ولكن كيف توصّلت إلى الأمر بهذه السرعة يا سيّدى .. إنك لم تلق حتى سؤالاً واحدًا ..

ابتسم (فون كلايست) فى هدوء رصين واثق ، وهو يشير إلى رأسه ، قائلاً :

- لم أكن بحاجة إلى أية أسئلة .. الأمر كله تم حله هنا .. بالعقل والمنطق ، والخبرة ..

بهذه البساطة ، عبّر عن وجهة نظره ، قبل أن يستقل الطائرة الحربية ذاتها ، فى طريق العودة إلى (برلين) ، دون أن يلقى نظرة واحدة على (باريس) ، على الرغم من أنه قد كشف على التو واحدة من أبرع وسائل نقل المعلومات ، التى ابتكرتها المخابرات

البريطانية ، والتى أدى كشفها إلى الإيقاع بعشرات الجواسيس البريطانيين ، فى كل البلاد ، التى وقعت تحت الاحتلال النازى ..

ولكن من الضرورى أن نشير هنا إلى أن البريطانيين قد وجدوا حلاً عبقريًّا بسيطًا ، للحفاظ على وسيلتهم ، وحمايتها فى الوقت ذاته ، بعد أن كشفها (فون كلايست) ، ومن الطريف أن كل ما فعلوه هو أنهم قد عكسوا اتجاه فتح الأزرار ، وعندما كان الألمان يحاولون فتحها كما تعلموا ، كانوا فى الواقع يحكمون إغلاقها ..

ولم تكن هذه هى القضية الوحيدة ، التى كشفت عبقرية (فون كلايست) ، فذات مرة ، تم إلقاء القبض على جاسوس بريطانى فى (بولندا) ، بعد أن حامت حوله الشبهات بشدة ، ولكنه أصرّ على إنكار التهمة ، على الرغم من كل ما تعرّض له ، بل وبدا وكأنه لا يعرف أو يفهم كلمة إنجليزية واحدة ..

ومن الواضح أن ذكاء الجاسوس قد استهوى (فون كلايست) ، وخاصة بعد أن عجز عمالقة (الجستابو) عن انتزاع المعلومات منه ، مع خبرتهم وقسوتهم ..

وسافر (فون كلايست) إلى (وارسو) ، والتقى بذلك الجاسوس البريطانى ، فى مقر (الجستابو) ..

كان شابًا بسيط المظهر ، بولندى الملامح ، يرتدى ثياب فلاح

عادى ، ويقف فى احترام وخوف واضحين ، إلا أن كل هذا لم يخدع النازى المخضرم ، وخاصة مع بريق الذكاء الواضح ، الذى لمحه فى عينى الشاب ، والذى جعله يبتسم فى أعماقه ، ويشعر بنشوة المواجهة والصراع ، وهو يقول :

ـ تتصورّ أنك قادر على خداعى .. أليس كذلك ؟!

نطقها بإنجليزية سليمة تمامًا ، ولكن الشاب ظلّ صامتًا ، ساكنًا ، دون أن تبدو عليه أدنى دلالات الفهم ، فاعتدل (فون كلايست) ، وقال فى حزم ، وباللغة البولندية هذه المرة :

ـ اسمع يا هذا .. أنا واثق من أنك بريطانى جاسوس ، على الرغم من كل ما تحمله من أوراق سليمة ، وتاريخ تم صنعه بدقة بالغة ، ولكن ثق أننى سأكشف أمرك ، إن عاجلاً أو آجلاً .. هل تعلم لماذا ؟!

تطلّع إليه الشاب فى بلاهة مصطنعة ، فتابع فى صرامة :

ـ لأننى الأكثر ذكاءً ..

خُيّل إليه أنه قد لمح بريقًا ساخرًا فى عينى الشاب ، على الرغم من ملامحه البسيطة المستكينة ، فأضاف فى قوة :

ـ والأيام القادمة ستثبت هذا .

ومنذ تلك اللحظة ، وعلى عكس أسلوبه المعتاد ، راح (فون كلايست) يستجوب الشاب مرة ، ومرة .. ومرات ..

وفى كل مرة كان يلقى الأسئلة نفسها ، ويحصل على الأجوبة نفسها ..

الشىء الوحيد ، الذى كان يتغيَّر فى كل مرة ، هو الكلمة الإنجليزية ، التى كان يُقحمها عمدًا ، هنا أو هناك ، وسط أسئلته ، حتى يتأكَّد مما إذا كان الشاب يعرف الإنجليزية على عكس ما يدَّعى أم لا ، باعتبار أن هذا وحده يحسم قضية ما إذا كان جاسوسًا من عدمه ..

كان (فون كلايست) واثقًا فى أعماقه من أن الشاب جاسوس ، إلا أنه ، وبحكم شخصيته ، كان يحتاج إلى دليل قاطع ..

وإلى انتصار قوى واضح ، يُغذى فى أعماقه ذلك الشعور المنعش ، الذى يسعى إليه دومًا ، فى كل قضية يتولّى أمرها ..

ولكن الشاب كان ذكيًا بارعًا بالفعل ..

فعلى الرغم من أنهم كانوا يتركونه ليوم كامل بلا نوم أو راحة ، قبل أن يخضع للاستجواب ، إلا أن عقله ظلّ يقظًا دومًا ، فلم يقع فى الفخ مرة واحدة ، بل وكان يبدى دهشة وحيرة متقنين ، عندما يدس (فون كلايست) أية كلمة إنجليزية ، وسط حديثه البولندى ..

وبدت القضية أكثر تعقيدًا للجميع ، وأكثر إقناعًا ، بالنسبة لرجل المخابرات الألمانى الفذّ .. وذات يوم ، وبينما الشاب مستغرق فى النوم ، انتشر بعض الدخان فى السجن ، وارتفعت أصوات تصرخ فى فزع :

ـ حريق .. حريق ..

كانت الصرخات تنطلق بالإنجليزية ، وبأصوات مرتفعة للغاية ، مما أيقظ الشاب من نومه ، ولكنه لم يغادر فراشه ، وإنما راح يهمهم بكلمات بولندية ساخطة ، وهو يدسّ رأسه فى فراشه ، وكأنما يحاول استعادة نومه ..

ثم انطلقت الصرخات نفسها مرة أخرى بالبولندية ، فقفز الشاب من فراشه مذعورًا ، وراح يصرخ فى رعب ، ويدق باب زنزانته بقبضته ، مناشدًا الألمان إخراجه ، قبل أن يلتهمه الحريق ..

وكان هذا انتصارًا جديدًا للشاب ، بذكائه ، وحنكته ، وثقته ، وجرأته ..

وكان على (فون كلايست) أن يجلس ، ويُفكّر ، ويدرس الموقف كله مرة أخرى ..

وفى الصباح التالى ، استدعى الألمان ذلك الشاب ، وأوقفه فى منتصف حجرة الاستجواب ، وراح يدور حوله بعض لحظات ، قبل أن يستقر خلف مكتبه ، ويقول فى يأس :

ـ إما أنك عبقرى ، على نحو لم نشهده من قبل ، أو أنك برىء بالفعل .

تطلّع إليه الشاب فى صمت مستكين ، فتابع فى مرارة :

ـ دعنى أعترف بأنك قد هزمتنى ، وانتصرت علىّ فى هذه اللعبة .. ولما كان من المستحيل أن ينتصر علىّ جاسوس بريطانى ، مهما بلغت براعته ، فهذا يعنى أنك برىء بالفعل ..

وتنهّد فى أسىً واستسلام ، وهزّ رأسه فى حسرة ، ثم رفع عينيه إليه ، قائلاً :

ـ لقد انحسم الأمر .. أنت حر .

تراقصت ابتسامةَ على شفتى الشاب ، وانطلقت من صدره تنهيدة ارتياح ، تألّقت معها عينا (فون كلايست) ، ونهض من خلف مكتبه ، واستعاد ابتسامته الظافرة ، وهو يقول بالإنجليزية :

ـ عجبًا !.. المفترض أنك لا تفهم الإنجليزية ، فكيف إذن شعرت بالارتياح ، على الرغم من أننى قد نطقت كلمة (أنت حر) بالإنجليزية ؟!

تجمّدت عينا الشاب ، وهو يتطلّع إليه بنظرة حادة ، مستعيدًا كل كلمة نطق بها ، ثم لم يلبث أن استرخى فى وقفته ، وابتسم ، قائلاً بالإنجليزية :

ـ أهنئـك .

تألَّقت عينا (فون كلايست) فى ظفر أكثر ، وهو يقول :

ـ كنت أعلم أنك ستفقد بعض حذرك ، عندما أغمرك بنشوة النصر .

قالها ، وترك رجال (الجستابو) يستجوبون الشاب ، ليستقل طائرته ، عائدًا إلى (برلين) ، وفى جعبته نصر جديد ..

وعلى الرغم مما سبق ، إلا أن أبرع قضية ، كشف أمرها (فون كلايست) ، فى عالم الجاسوسية المضادة ، لم تحظ بالشهرة الكافية ..

ربما لأن النصر قد تحقق فيها بسرعة أكثر من اللازم ..

فذات يوم ، ألقى (الجستابو) القبض على محاسب ألمانى ، يعمل فى قسم الحسابات والمراجعة ، فى مقر قيادة القوات فى (برلين) ، واتهمته بالتجسُّس لحساب البريطانيين ، بناءً على معلومة مؤكدة ، أرسلها أحد جواسيس (برلين) فى (لندن) ..

ووفقًا للمعلومة ، كانت بحوزة المحاسب رسالة ، تحوى أوامر بالغة الأهمية والخطورة ، مرسلة إلى رئيس شبكة جاسوسية بريطانية فى ألمانيا ، يمكن من خلالها تحديد اتجاهات وأهداف القيادة البريطانية ، فى المرحلة القادمة من الحرب ..

ولما كانت (ألمانيا) قد تورَّطت بالفعل ، فى ذلك الحين ، فى حربها مع (موسكو) ، بكل ما حمله هذا من مسئوليات واستنزافات اقتصادية جديدة ، كان من المهم جدًّا أن تعرف ما

تنتويه الجبهة البريطانية ، فى الفترة التالية ، لاتخاذ كل الاحتياطات الخاصة بهذا الشأن ..

ولقد عثر رجال (الجستابو) على عدد من الخطابات بالفعل ، فى حقيبة المحاسب وجيوبه ، وتم عرضها كلها على قسم الشفرة ، الذى فشل فى إثبات وجود أية كتابات خاصة ، أو أحبار سرية عليها ، أو حتى شفرة جديدة متقنة ..

وعندما عجز الكل عن تحديد وكشف الأمر ، أسند (هملر) المهمة إلى ذراعه اليمنى ، ورجله العبقرى فى هذا المضمار ، (إيريك فون كلايست) ..

وما إن تلقَّى (فون كلايست) التكليف ، فى السادسة والنصف صباحًا ، حتى ارتدى زيه العسكرى ، واتجه فورًا إلى قسم الفحص ، وطلب الاطلاع على الرسائل كلها ، وراح يقرأ كلاًّ منها فى عناية واهتمام ..

وفى الثامنة تقريبًا ، انتخب من بين الرسائل كلها رسالة بعينها ، انعقد حاجباه ، وهو يطالعها فى دقة بالغة ، قبل أن يتوقَّف عند آخر شىء يمكنك أن تتصوَّره ..

عند النقطة ، التى توضع فى نهاية الرسالة ..

لسبب ما ، بدت له مختلفة عن باقى الخطاب ، وكأنما كتب

صاحبه الكلمات كلها بقلم ما ، ثم أتى بقلم آخر ، ووضع النقطة فى نهاية الخطاب ..

وبفحص تلك النقطة ، التى لم تجذب انتباه أحد ، أيقن (فون كلايست) من أنها لم توضع بقلم ما ، وإنما هى عبارة عن صورة ضوئية دقيقة جدًا ..

وبسرعة ، وضع (فون كلايست) النقطة تحت الميكروسكوب ، وقام بتكبيرها ألف مرة ، و ...

وبدت الكلمات البيضاء واضحة ، وسط الدائرة السوداء ، حاملة رسالة كاملة ، بكل ما بها من أوامر ، وطلبات وتعليمات ..

وانبهر الكل ، حتى (أدولف هتلر) نفسه ، بتلك العبقرية المذهلة ؛ لذا فقد كان هو من أطلق على (فون كلايست) ذلك اللقب ، الذى ظلّ يحمله بفخر ، حتى آخر عمره ..

لقب (قاهر الجواسيس) .

* * *

قلب الزعيم ..

منذ عام 1929م ، وعقب الانتخابات ، التى أسفرت عن فوز ساحق وغير متوقَّع للحزب النازى ، بدأ (أدولف هتلر) يتسلَّل إلى أعماق الشعب الألمانى ، الذى ذاق مرارة هزيمة مؤلمة ، فى الحرب العالمية الثانية ، وبات متشوقًا لانتصار ما ، يعيد إليه كرامته ، ويعيده إلى أمجاده التاريخية القديمة ..

وعبر سلسلة خطب حماسية ، وتحت إشراف عبقرى دعائى ، وهو (جوزيف جوبلز) ، تحوَّل (هتلر) إلى شعلة من نار ، ليس فى (ألمانيا) وحدها ، ولكن فى معظم عواصم (أوروبا) ، التى حرص أن تبلغها إذاعاته ، بكل اللغات المعروفة ، حتى بات ذكر اسمه مقرونًا بالاحترام والتوقير ، ودليلاً على الوطنية والنزاهة والثقة ..

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية ، والانتصارات الساحقة ، التى حقَّقها ، الجيش النازى ، جن جنون الشعب والجيش بالزعيم ، وتحوَّل مع سياسة (جوبلز) ، إلى ما يشبه الآلهة ، حيث تم وصفه دومًا بالكامل ، الذى لا ينقصه شىء .. أى شىء ..

ولم تمض سنوات قليلة ، حتى تأجَّج هذا الشعور ، فى نفس

كل مواطن وجندى ألمانى ، مع اجتياح (هتلر) لأوروبا ، واتجاهه إلى (آسيا) و(أفريقيا) ، وهجومه على الاتحاد السوفيتى ، على الرغم من وجود معاهدة عدم اعتداء بينهما ..

ولأن الحلفاء قد أدركوا مدى خطورة موقع (هتلر) ، فى قلب الشعب الألمانى ، وتأثير ألوهيته المصطنعة فى الجيش ، أصبح على قمة اهتماماتهم محاولة تحطيم الأسطورة ، وإسقاط (أدولف هتلر) ، من جبال الآلهة ، إلى مصاف البشر ..

وبكل الوسائل الدعائية الممكنة ، حاولت المخابرات الإنجليزية والروسية البحث عن ثغرة ما ، تبيح لها نشر ما يزيل صفة الكمال ، عن الزعيم النازى ، لعل هذا يخفف من الحماس ، ويساعد على كسر وتحطيم الروح المعنوية ، فى زمن الحرب ..

ومن أجل بلوغ هذا الهدف ، راح جهازا المخابرات يتبادلان كل ما يقع تحت أيديهما ، من وثائق ومعلومات ، بحثًا عن تلك الثغرة ..

وذات يوم ، وقعت فى يد ضابط المخابرات السوفيتى (يورى بولياكوف) معلومة بدت تقليدية للوهلة الأولى ..

معلومة تقول : إن الجهد الشديد ، الذى يبذله (هتلر) ، قد أدّى إلى إصابته ذات يوم بأزمة قلبية ، وهو يجلس فى مكتبه ، وتم استدعاء طبيبه الخاص ، فى سرية بالغة ، حيث أجرى له

بعض الإسعافات العاجلة ، وأوصى له بالراحة والاسترخاء ، لأسبوع على الأقل ، وقدّم تقريرًا سريًا لقائد (الجستابو) (هملر) ، فى هذا الشأن ..

فى البداية ، لم يتوقّف (بلياكوف) طويلاً ، أمام تلك المعلومة ، واكتفى بمراجعتها ، مع ما ورد معها من معلومات ، ولكنه ما إن انتهى ، حتى عاد يطالع المعلومة مرة أخرى ، وطرح على نفسه سؤالا ..

لماذا أخفوا الخبر عن الشعب ؟!..

المعلومة تقول : إنهم لم يخفوها عن الشعب فحسب ، وإنما على جنرالات الجيش ، وجنرالات القيادة أيضًا ..

وهذا ربما يعنى الكثير ..

والكثير جدًا ..

ظلّ (بلياكوف) يدرس الأمر فى ذهنه طوال الليل ، ثم قرّر فى النهاية إرسال المعلومة إلى البريطانيين ، لعلهم يفيدون منها أكثر ..

وعبر برقية مشفّرة ، عبرت (أوروبا) كلها ، وصلت المعلومة إلى مقر المخابرات البريطانية ، واتخذت مسارها المعتاد ، لتستقر أخيرًا فى يد سير (هوجو سنكلير) ..

وهنا يبدو الفارق واضحًا ، بين المخابرات السوفيتية ، والبريطانية ..

فقد قضى سير (سنكلير) ساعة كاملة يتأمَّل المعلومة ، ويدرس الموقف من كل الوجوه ، قبل أن يطلب عقد اجتماع لمعاونيه ، وما إن ضمَّتهم مائدة الاجتماعات ، حتى طرح عليهم المعلومة .

راح كل واحد منهم يدلى بدلوه ، و(سنكلير) يستمع إليهم فى اهتمام بالغ ، حتى قال أحدهم :

- لو أن الأمر بيدى ، لما أوليت هذا الأمر اهتمامًا ، إلا إذا فكرنا فى أن نستغل ضعف قلبه ؛ لنصيبه بأزمة ثانية ، لعلها تكون قاتلة .

هنا ، اعتدل (سنكلير) ، وقال فى صرامة :

- هل تعتقد هذا ؟!

غمغم صاحب الاقتراح :

- إنه رأيى الشخصى .

وهنا ، غادر (سنكلير) مقعده ، على قمة المائدة ، وقلَّما يفعل ، وراح يدور حول المجتمعين ، وهو يقول ، وكأنه يحدِّث نفسه :

- عندما وصل (كريستوفر كلومبوس) ، إلى أولى الجزر الأمريكية ، كانت أوَّل مرة فى التاريخ ، يرى فيها الوطنيون أناسًا ، ذوى بشرة بيضاء ، أو سفنًا بهذه الضخامة ؛ لذا فقد اعتبروا (كلومبوس) وبحَّارته آلهة ، أتت من نهاية العالم ؛ لترشدهم إلى الصواب ، وبسرعة ، خضعوا لهم ، واستجابوا لأوامرهم ورغباتهم ، وغمروهم بالهدايا والعطايا ، ولم يجرؤ أحدهم على مخالفتهم قط ، وظلَّ الأمر على هذا النحو ، حتى تمرَّد رجال (كلومبوس) ، فارتكب أكبر خطأ ، فى حياته كلها ؛ إذ أمر بجلد الرجل علنًا ، وهنا أدرك الوطنيون أن ذوى البشرة البيضاء ليسوا آلهة ، وأنهم مثلهم ، يتألمون ، ويتوجعون ، ويعاقبون ، وتنزف منهم نفس الدماء الحمراء .. وهنا انكسرت عصا الطاعة دفعة واحدة ، وبدأ الوطنيون فى التمرُّد والعصيان .

سأله أحد الرجال :

- ماذا تعنى بقصتك هذه يا سيِّدى ؟!

توقَّف (سنكلير) عن الدوران ، ليقول فى حزم :

- ما أعنيه هو أن وضع (هتلر) لا يختلف كثيرًا عن وضع (كلومبوس) ، وكما حطمت دماء البشرة البيضاء ألوهيته ، يمكننا أن نفعل المثل مع (هتلر) ، بنشر تقريره المرضى على الشعب .

قال أحد الرجال فى حماس :

- يمكننا أن نكتب منشورًا بهذا ، وتلقيه طائراتنا على الشعب الألمانى ، و ...

قاطعه (سنكلير) فى صرامة :

ـ مجرَّد دعاية سلبية ، يمكن دحضها بخطبة حماسية من (هتلر) ، أو منشور دعائى مضاد من (جوبلز) .

سأله آخر :

ـ ماذا ينبغى أن نفعل إذن ؟!

تألَّقت عينا (سنكلير) ، وهو يجيب :

ـ أن نحصل على التقرير الأصلى .

بهت الجميع لقوله ، وبدا لهم ما يقترحه أمرًا بالغ الصعوبة ، عسير المنال إلى حد كبير ، إلا أنه واصل فى حماس هادئ :

ـ عندما يقع التقرير الرسمى فى يدنا ، يمكننا أن نطبع منه ملايين النسخ ، وتلقيها طائراتنا على الشعب الألمانى ، فى طول (ألمانيا) وعرضها .. بهذا نصدم الشعب الألمانى ، وندفعه للاستيقاظ من سباته ، ومواجهة الحقيقة البشرية لزعيمه الملهِم .. هذا سيوجِّه ضربة قاصمة للروح المعنوية النازية ، وربما يفتِّت الجبهة الداخلية تمامًا ، مما سيكون له تأثير إيجابى ضخم ، على مسار الحرب كلها .

صمت الرجال بضع لحظات ، قبل أن يقول أحدهم فى قلق :

ـ ولكن ذلك التقرير ، كما تقول المعلومة ، يندرج تحت الوثائق السرية للغاية ، والتى يحتفظ بها (هملر) فى خزانته الخاصة ،

فى مقر (الجستابو) ، المعروف باسم (بيت الثعالب) ، والوصول إلى تلك الخزانة شبه مستحيل ، ولقد فشلنا أكثر من ثلاث مرات ، فى بلوغ موقعها ، فما بالك بمحتوياتها .

أدار (سنكلير) عينيه ، فى وجوه الجالسين ، قبل أن يعاود الدوران حولهم ، وهو يقول :

ـ القاعدة الثابتة الوحيدة ، التى تيقنت منها ، عبر ثلاثين عامًا من العمل بالمخابرات ، هو أنه لا وجود لكلمة مستحيل ، فى قاموس أجهزة المخابرات .. كل مشكلة لها حل ، وكل نظام أمنى ، مهما بلغ إحكامه ، به ثغرة ما ، واللعبة كلها تدور حول البحث عن تلك الثغرة ، واستغلالها إلى أقصى حد ؛ لتحقيق الهدف ، الذى قد يبدو من زاوية أخرى مستحيلاً .

غمغم أحد الرجال :

ـ وكيف نتجاوز الثغرة هذه المرة ؟!

توقَّف (سنكلير) ، وأعمل فكره بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ ما دمنا لا نستطيع بلوغ تلك الوثيقة ، داخل خزانة (هملر) الخاصة ، فلابد وأن نجبرهم هم على إخراجها .

سأله أحدهم فى لهفة :

ـ وكيف هذا ؟!

عادت عينا سير (هوجو سنكلير) تتألّقان ، وتراقصت فى ركن شفتيه ابتسامة خفيفة ، قبل أن يجيب :

ـ هذا هو السؤال .

فى تلك الليلة ، لم ينم الرجال طويلاً ؛ إذ امتدّ اجتماعهم مع (سنكلير) حتى الساعات الأولى من الصباح ؛ ليضعوا خطة الحصول على التقرير الطبى الرسمى ، والسرى لقلب الزعيم النازى ..

ومع نسمات الصباح الأولى ، وعبر برقية شفرية مطوّلة ، بدأت العملية ...

وقبل أن يمضى أسبوع واحد ، فوجئ (هملر) باستدعاء خاص وعاجل من الفوهلر ، فهرع إلى مكتبه ، واستقبله (هتلر) فى غضب ، وهو يهتف به فى ثورة :

ـ ماذا أصابك يا (هملر) ؟!.. كيف يمكن أن تفقد أوراقًا بهذه الخطورة ؟!

لم تكن لدى (هملر) أدنى فكرة ، عما يتحدَّث عنه الفوهلر ؛ لذا فقد سأل فى حيرة :

ـ أية أوراق أيها الزعيم ؟!

دقَّ (هتلر) سطح مكتبه بقبضته ، وهو يقول بثورته الصارمة :

ـ ذلك التقرير الطبى اللعين .. كان ينبغى أن تمزّقه فورًا ، لا أن تحتفظ به ؛ ليحصل عليه أعداؤنا .

اتسعت عينا (هملر) ، فى دهشة واستنكار ، وهو يقول :

ـ مستحيل أيها الزعيم ... ذلك التقرير ، الذى تتحدَّث عنه ، يكمن فى أعماق خزانتى السرية الخاصة ، التى لا يعرف مكانها سواى ، والتى يستحيل أن يعثر عليها أحد .

صاح (هتلر) :

ـ خطأ .. تلك الوثيقة وقعت فى قبضة السوفيت .. لدى عميل خاص ، بالغ السرية والأهمية ، فى قلب جهاز مخابراتهم ، أبلغنى أنهم يناقشون الآن ، كيفية الاستفادة منها .

وعاد يطرق سطح مكتبه ، مضيفًا :

ـ هل تعلم ما يمكنهم فعله بوثيقة كهذه ؟!.. إنهم يستطيعون إثارة بلبلة لا حصر لها ، فى نفس الشعب الألمانى ، الذى يعتبرنى الزعيم الكامل ، الذى لا تشوبه شائبة ، ولا يعانى من أى نقص ، فى أى مضمار .

اعتدل (هملر) ، وقال فى حسم ، وقد زال منه أدنى شك :

ـ مستحيل أيها الفوهلر .. تلك الوثيقة فى خزانتى ، ولم يحصل عليها أحد .

صاح (هتلر) :

ـ كيف عرفوا فحواها إذن ؟!

أجابه فى حزم :

ـ هناك وسائل عديدة لهذا .

لوَّح (هتلر) بيده ، هاتفًا :

ـ ليست لديك وسيلة واحدة لإثبات هذا .

اعتدل (هملر) ، وشدَّ قامته ، قائلاً :

ـ لدى وسيلة حاسمة أيها الفوهلر .. الوثيقة نفسها .. سأحضرها فورًا ، لتطالعها بنفسك .

غادر مكتب الفوهلر على الفور ، واتجه إلى مكتبه ، وأخرج الوثيقة من خزانته ، وتأكد منها ، ثم حملها ، واتجه نحو الفوهلر مرة أخرى ..

وهناك ، انعقد حاجبا (هتلر) فى شدة ، وهو يطالع الوثيقة ، قبل أن يسأل فى توتر ، مكررًا :

ـ كيف عرفوا فحواها إذن ؟!

أجابه (هملر) ، محاولاً التخفيف من الموقف :

ـ ربما بلغتهم معلومة ما ، من أحد عيونهم ، ولكنهم ليسوا واثقين منها حتمًا ، وليس لديهم دليل واحد عليها ، مما يحجِّم إمكانية الاستفادة منها تمامًا .

هزَّ (هتلر) رأسه ، وقال :

ـ لابد وأن هذا هو التفسير بالتأكيد .

ارتاح (هملر) للوسيلة ، التى انتهى بها الأمر ، والتى أثبتت أنه كفء لموقعه ، وحمل الوثيقة ، عائدًا إلى سيارته ، وبينما يعبر ردهة مقر الحكم ، استوقفه أحد ضباط المخابرات ، ومال عليه يسأله ، عن أمر بدا بالغ السرية ، وعاجل للغاية .

وبينما يتحدثان ، فقد أحد جنود الحراسة وعيه فجأة ، فسقط يرتطم بضابط المخابرات ، الذى ارتطم بـ (هملر) بدوره فى عنف ، وكاد يسقطه أرضًا ، لولا أن سيطر الضابط على نفسه فى سرعة ، وأمسك (هملر) ، قائلاً فى انزعاج :

ـ أأنت بخير يا جنرال ؟!

أجابه (هملر) ، وهو يعتدل فى سرعة :

ـ بالتأكيد .

أدّى الضابط التحية النازية ، واستأذن فى الانصراف ، وترك (هملر) يمضى فى طريقه ، دون أن يدرك أن الجندى الذى فقد الوعى ، كان ينفذ عن جهل أوامر ضابط المخابرات ، الذى أقنعه بأن هذه خطة سرية ، أمر بها الفوهلر شخصيًا ، أما ضابط المخابرات نفسه ، فكان واحدًا من أهم عملاء المخابرات البريطانية ، فى قلب الجهاز السرى النازى ، وأن البريطانيين رأوا أن أهمية العثور على تقرير هتلر الطبى السرى ، أكثر أهمية وتأثيرًا من بقائه فى موقعه ، فدفعوه لتنفيذ الخطة ، ونشل الوثيقة من (هملر) ، على أن يغادر بها (ألمانيا) كلها بعدها ، ويلجأ إلى (بريطانيا) ..

وكانت خطة عبقرية وجريئة بالفعل ، لولا أمر واحد ..

فما إن ابتعد الضابط فى طريقه ، حتى تأجّجت شكوك (هملر) فجأة ، بحكم دماء التآمر ، التى تسرى فى عروقه ، وبحث عن الوثيقة بسرعة فى جيبه ، فلما لم يجدها ، صاح بالحراس :

ـ أوقفوا هذا الرجل .

أدرك ضابط المخابرات عندئذ أن أمره قد انكشف ، وحاول أن يعدو عبر باب (الرايخستاج) ؛ حتى يبلغ السيّارة التى تنتظره أمامه ، إلا أن بعض الحراس اعترضوا طريقه ، فى حين أخرج (هملر) مسدسه ، وقال فى غضب :

ـ خائن .

وبرصاصة واحدة ، أسقط الضابط ، الذى كان من سوء حظه أنه لم يمت على الفور ، وإنما تم نقله إلى جحيم (الجستابو) ، لاستخلاص كل ما يمكن من معلومات عنه ، ولم يعرف أحد مصيره بعدها قط ..

أما الوثيقة نفسها ، فقد رأى (هملر) ، بعد هذا الموقف ، أن الفوهلر كان محقًّا بشأنها ، فقام بإعدامها بنفسه ..

وهكذا خسر البريطانيون عملية عبقرية ..

عملية قلب الزعيم ..

النازى .

* * *

قلب المقـاومة ..

ديسمبر 1940م .. أخبار الحرب العالمية الثانية كله ، والجيش النـازى يبلـغ أوج انتصاراتـه السـاحقة فـى (أوربـا) ، وقادتـه يولون أبصارهم شطر الجليد السوفيتى ، و(إنجلترا) تلهث فى إرهاق ، مع عنف الهجوم الألمانى ..

أما فى (فرنسا) ، فقد بدت الصورة على السطح هادئـة مستقرة ، توحى بأن الشعب الفرنسى ، المنغمس طيلة عمره فى الفن والجمال ، قد استسلم للاحتلال ، وخضع للنظام النازى المستبد ..

ولكن الحقيقة كانت تختلف كثيرًا تحت السطح ..

وكلمة تحت السطح هذه ليست تعبيرًا مجازيًا ، أو نوعًا من المحسنات البديعية ، وإنما هى حقيقة واقعية ، عرفها العـالم كله ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ..

ففى قلب شبكة مترو الأنفاق الباريسية ، وتحت سطح العاصمـة الفرنسية ، كان مقرّ المقاومة الفرنسية ، أشرس مقاومـة شعبية واجهها النازيون ، فى كل دول (أوروبا) ، التى وقعت فى قبضتهم ..

ومن المستحيل أن يمرّ أى مؤرخ ، من مؤرخى الحرب العالميـة الثانية ، على المقاومة الفرنسية مرور الكرام ، أو يتجاوزهـا دون

التوقُّف عندها طويلاً ، فالنازيون لم يتصوَّروا ، أو يخطـر ببـالهم قط ، أن يلقـوا كل هـذه المقاومـة الشرسـة العنيفـة ، من شباب اشتهروا فى (أوروبا) كلها بـالتراخى والدعة والميوعـة ، مثـل الشباب الفرنسى ..

ولأن خسائر النازيين من المقاومة الفرنسية كانت عنيفـة وكبيرة ، أرسل (هتلر) إلى (باريس) أحد أفضل رجـال (الجستـابو) ، وهو الكولونيل (فون هام) ، بأوامر واضحة محددة ..

سحق المقاومة الفرنسية عن آخرها ..

وبأى ثمن ..

وفور وصوله إلى (باريس) ، اتجه (فون هام) مباشرة إلـى مبنى المخابرات النازية ، وطلب من رجاله إعداد حجرة لإقامتـه فى المبنى ، لأنه سيقيم بـه بصفـة دائمـة ، حتـى تنتهـى مشكلة المقاومة الفرنسية تمامًا .

ومنذ لحظاته الأولى ، أثبت الرجل أنه من طراز صلب عنيد ، فقد قضـى ليلتين كـاملتين دون نـوم أو راحـة ، يراجـع تقـارير المخـابرات عن المقاومـة ، وعملياتها ، وكل الإجـراءات التـى اتخذت لكشفها وإجهاضها ، والتقى بكل شخص تولَّى هذا الأمر ، وناقشه طويلاً بمنتهى الصبر ، حتى يجمع كل المعلومات الممكنة ..

وبعد أن انتهى من كل هذا ، اتجـه إلى حجرتـه ، وطلب عدم إيقاظه ، مهما كانت الأسباب ..

ولقد نفذ رجالـه أوامره بمنتهى الدقـة ، فلم يحـاول أحدهـم إيقاظـه ، طـوال العشرين سـاعة التاليـة ، علـى الرغـم مـن أن المقاومة الفرنسية قد نسفت سيارة من سيارات الدوريـة الألمانيـة ، وقتلت أحد ضباط النازى ..

وعندما استيقظ (فون هام) ، مفعمًا بالنشاط والحيويـة ، بعد هذا النوم العميق ، استمع إلى هذه الأخبار ، وهو يحلق لحيتـه ، ويرتدى زيه العسكرى ، ثم اتجه إلى حجرة الاتصالات ، وأرسـل برقية عاجلة مشفَّرة إلـى (برلين) ؛ ليستدعى الشخص الـذى يراه مناسبًا تمامًا لهذه المهمة الخاصة جدًّا ..

(هنريت بيرترخت) ..

وهنريت هذه امرأة فاتنـة ، ذات سحر خـاص ، سبق وأن عملت لحسـاب المخـابرات الألمانيـة فـى (هولنـدا) ، وحققت نجاحـات لا يستهان بها ، كما أنها حادة الذكاء ، تتحدَّث بطلاقة تامـة عدة لغات أوروبية ، بارعة إلـى حد مدهش ، فـى استخدام الأسلحة والقنابل ، بالإضافة إلى أهم صفاتها ، فى نظر (فون هام) ..

أنها امرأة قاسية كالصخر ، بلا قلب تقريبًا ..

وفى سرية تامـة ، وصلت (هنريت) إلـى (بـاريس) ، وتـم نقلهـا داخـل سيارة مغلقـة ، مـن المطـار إلـى مبنـى المخـابرات مباشرة ؛ لتلتقى بالكولونيل (فون هام) ..

ولم يعرف أحد أبدًا مـا دار بينهمـا ، فـى ذلك اللقاء المغلق ، الذى استغرق ست ساعات كاملـة ، ولكن المؤكَّد أن (هنريت) قد غادرت حجرة (فون هام) ، وهى تعرف تقريبًا كل مـا يعرفـه عن المقاومة الفرنسية ..

ولأن (هنريت) تجيد الفرنسية بطلاقة مدهشـة ، فقد بـدأ (فون هام) بزرعها فى (الحى اللاتينى) ، فـى قلب (بـاريس) ، لتندمج مع الفرنسيين ، باعتبارها واحدة من ضحايا النـازيين ، الذين قتلوا والديها بلا رحمة ..

ووفقًـا للخطـة ، لعبـت (هـنريت) دور الفرنسـية الغاضبـة المتمرِّدة ، التى تبغض النـازيين ، ولا تحـاول حتـى إخفـاء هـذا ، حتى إن جيرانها الفرنسيين راحوا يُحذرونها من اندفاعها ، فلمـا فشلوا فـى كبح جماحهـا ، بدءوا يتجنبونهـا ، خشـية أن تمتـدّ مشكلاتها إليهم ..

ومن الطبيعى ، والحال هكذا ، أن تصطدم (هنريت) ، التـى احتفظت باسمها ، ذى الإيقـاع الفرنسـى ، بسلطات الاحتـلال النـازى ،

وأن يتمَّ اعتقالها صوريًا مرتين أو ثلاثة ، عادت فى إحداها بعين متورِّمة ، وعلى الرغم من هذا فقد واصلت عنادها ، وغضبها ، ولم تتراجع عن ثورتها على الاحتلال النازى قط ..

ولكن العجيب أن كل هذا ، على الرغم من البراعة التى أدت بها (هنريت) دورها ، لم ينجح قط فى اجتذاب رجال المقاومة الفرنسية ، أو دفعهم إلى الالتقاء بها ، ومحاولة تجنيدها ..

ولقد أحنق هذا (فون هام) بشدة ، وجعله يعيد دراسة الموقف كله مرة ثانية ..

من الواضح أن رجال المقاومة الفرنسية أذكى مما يتصورَّ ، وأنه ليس من السهل أبدًا الإيقاع بهم ، مهما بلغت أناقة الفخ وبراعته ..

لذا ، كان من الضرورى أن يتمَّ تعديل الخطة ، على نحو عنيف وجرىء ، إلى أقصى حد ..

نحو لا يمكن إلا أن يقتنع به رجال المقاومة الفرنسية ، مهما بلغ حذرهم ، أو بلغت تلك الشكوك الغريزية ، التى تعربد فى أعماقهم ..

وفى تلك الليلة ، ألقى رجال (الجستابو) القبض على (هنريت) ، ليلتقى بها (فون هام) ، ويراجع معها تفاصيل الخطة الجديدة ..

والواقع أنها كانت خطة جريئة .. للغاية ..

وبعد ثلاثة أيام ، عادت (هنريت) إلى منزلها فى الحى اللاتينى ، وهى شاحبة منهارة ، وردَّد البعض أن رجال (الجستابو) قد اعتدوا عليها ، وعاملوها معاملة وحشية قاسية ..

وبينما يتحدَّث كل جيرانها عنها بمنتهى الشفقة والتعاطف ، خرجت (هنريت) إلى الشارع فى أبهى صورة وأجمل زينة ، وكأنما نسيت كل ما حدث ..

وعلى ناصية الشارع ، راحت تغازل الجنود الألمان علانية ، حتى توقَّف أحدهم لمغازلتها ، فمالت نحوه ، واختطفت مسدسه من غمده بغتة ، و ...

وأطلقت عليه النار ..

قتلت جنديًا نازيًا على قارعة الطريق ، وأمام عشرات الشهود من الطرفين ..

وانقضَّ الجنود عليها ، وأمسكوا بها فى غضب شرس ، وهى تقاوم فى عنف ، وتصرخ بهتافات حول (فرنسا) الحرة ..

وكم أدهش الناس أن النازيين لم يقتلوها فورًا ، على قارعة الطريق ، إلى جوار الجندى !!

ولكنها كانت أوامر (فون هام) ، الذى كان يدخر لها نهاية أكثر مأساوية ..

لقد حوكمت (هنريت) أمام محكمة عسكرية نازية ، رأسها هو نفسه ، وصدر ضدها حكمًا بالإعدام رميًا بالرصاص ، أمام قوس النصر مباشرة ..

وكانت لعبة بارعة بالفعل من (فون هام) ..

لعبة نجحت فى جذب انتباه رجال المقاومة الفرنسية بالفعل ..

ربما لغرابة الحكم ، أو لما يمثله الموقف من تحدٍّ لقدراتهم ، وهم الذين لم يفقدوا حاسَّتهم الفنية قط ، حتى فى أشق أيام القتال ..

وبعد ثلاثة أيام من صدور الحكم ، وأثناء نقل (هنريت) إلى قوس النصر ، لتنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص ، قام رجال المقاومة الفرنسية بعملية ناجحة ، قتلوا خلالها ضابطًا وجنديين ، ونجحوا فى اختطاف (هنريت) ، وإنقاذها من مصيرها الوهمى الزائف ..

ولقد كان (فون هام) يتوقَّع هذه المحاولة ، ويبنى عليها خطته كلها ؛ لذا فقد ضحى بالضابط والجنديين ، وبأية خسائر أخرى محتملة ، فى سبيل أن تصل (هنريت) إلى قلب المقاومة ..

أما (هنريت) نفسها ، فقد تظاهرت بالخوف والفزع ، عندما وضع رجال المقاومة عصابة سوداء على عينيها ، وراحوا يسيرون بها طويلاً ، فى ممرات مظلمة رطبة ، لم تدرك ماهيتها بالضبط ، حتى بلغوا قاعة واسعة ، تضيئها مشاعل قديمة ، وهنا أزاحوا العصابة عن عينيها ، لتجد نفسها أمام خمسة رجال وفتاة واحدة ، داخل إحدى قاعات مجارى (باريس) القديمة ، وسمعت رئيس المجموعة ، وهو شاب أحمر الشعر ، يغطى النمش وجهه ، وهو يقول لها مبتسمًا :

مرحبًا بك فى صفوف المقاومة يا عزيزتى (هنريت) ..

ولو أن (هنريت) تمتلك قلبًا ، لرقص فى تلك اللحظة ظفرًا وسعادة ، ولكانت تلك الفرحة التى افتعلتها حقيقية ، وهى تهتف :

هل تقبلوننى فى صفوفكم ؟!

ابتسم صاحب الشعر الأحمر ، وقال :

بالتأكيد يا (هنريت) .

ثم استدرك بصرامة مباغتة :

ولكن ينبغى أن تجتازى الاختبار أوَّلاً .

سألته فى حذر :

أى اختبار ؟

بدا لها غامضًا للغاية ، وهو يُجيب :

ستعرفين قريبًا .

أعادوا العصابة إلى عينيها ، وهى تعود عبر نفس الممرات الرطبة المظلمة ، ثم تلقَّفها اثنان من رجال المقاومة ، وحملاها فى سيارة صغيرة إلى منزل متواضع ، فى الريف الفرنسى ..

ولثلاثة أسابيع كاملة ، عاشت (هنريت) فى ذلك المنزل ، والرجلان يقومان على خدمتها ، حتى ظهرت فتاة ضئيلة الجسد ، قامت بقص شعرها الطويل ، وصباغته بلون أسود داكن ، ثم أخبرتها أنها ستعود إلى (باريس) ، باسم (برجيت موروا) ، وستعمل بعض الوقت خادمة فى منزل جنرال ألمانى ، من قادة الأمن فى العاصمة ..

وبالفعل ، عادت (هنريت) معها ، والتحقت بالعمل فى منزل الجنرال الألمانى ، لتدرك فعليًا مدى قوة المقاومة الفرنسية وبراعتها ..

وحتى تتقن اللعبة تمامًا ، راحت (هنريت) تنقل تفاصيل كل ما يحدث فى منزل الجنرال النازى ، لتلك الفتاة الضئيلة ، التى لم تفصح عن اسمها أبدًا ، ولكن الألمانية كانت تغفل عمدًا كل ما يبدو لها معلومة خطيرة ، وهى تنقل أسرار الجنرال ..

وأخيرًا ، وبعد شهرين كاملين ، لم تحاول الاتصال خلالهما بالكولونيل (فون هام) مرة واحدة ، بدا وكأن لعبتها قد أتت ثمارها ..

فذات ليلة ، فوجئت بذلك الشاب ذى الشعر الأحمر فى قبو منزل الجنرال ، وعلمت منه أنه أحد قادة المقاومة الفرنسية ، وأن اسمه هو (جودو) ..

وفى تلك الليلة ، طلب منها (جودو) أن تنضمَ إلى المقاومة ، ومنحها أسماء بعض من يمكنها الاتصال بهم ، مع خارطة لموقع القيادة ، داخل شبكة أنفاق المجارى القديمة .. وكان هذا أفضل من كل ما حلمت به (هنريت) ، منذ بدأت هذه المهمة ..

وقبل أن ينبلج الفجر ، كانت تتسلَّل من منزل الجنرال النازى ، إلى مبنى المخابرات النازية مباشرة ، حيث التقت بالكولونيل (فون هام) ، وسلَّمته كل ما لديها ..

وعلى الرغم من رصانة (فون هام) وصرامته المعهودتين ، إلا أنه لم يستطع كتمان فرحته وسعادته بما حقَّقته (هنريت) ، ولكنه طلب منها العودة فورًا إلى منزل الجنرال ، حتى لا ينكشف أمرها ..

وطوال ذلك اليوم ، راح (فون هام) يراجع قائمة الأسماء ، وملف كل اسم منها ، ويُطالع خريطة أنفاق المجارى القديمة ألف مرة ..

وفى صباح اليوم التالى ، كان قد وضع خطته ..

وكانت خطة مباشرة للغاية ..

فرقتـان من الجنود تتوغـلان فـى أنفـاق المجـارى القديمـة ؛ لتصفية كل عناصر المقاومة الفرنسية وقياداتها ..

ثم اعتقال كل الأسماء الواردة بالقائمة ..

ولأنه يؤمن بأن السرية أساس النجاح ، فقد احتفظ بالتفاصيل كلها فى رأسه ، ووقّع أوامر الاعتقال ، دون عرض الأمر على الآخرين أو استشارتهم ، ثـم أصدر أوامره ببدء عمليـة تصفيـة المقاومة ..

وفـى منتصف النهـار بـالضبط ، اقتحمت الفرقتـان الألمانيتـان أنفاق مجارى (باريس) القديمة ..

ووفقًا للخريطة التى سلّمها (جودو) للجاسوسة (هنريت) ، تم حصار موقع قيادة المقاومة بمنتهى الإحكام ، ودون ترك منفذ واحد للفرار ..

وبإشارة متفق عليها ، تم اقتحام القاعـة من مدخليهـا فـى آن واحد ، وبقدر هـائل من العنـف والشراسـة ، وانطلقت المدافـع الآلية النازية تحصد كل شىء فيها بلا هوادة أو رحمة ..

ثم كانت المفاجأة المذهلة ..

لقد كـانت القاعـة خاليـة تمامًـا ، إلا من صندوق كبير ، فـى منتصفها بالضبط ..

صندوق يحمل شحنة من المتفجرات ..

وجهاز توقيت بدائيًّا ..

وقبل أن يتراجع النازيون ، أو حتى يبتعدوا ، دوى الانفجار ..

وكان انفجارًا عنيفًا ، أطاح بالفرقتين الألمانيتين عن آخرهما ، وارتجت معه (باريس) كلها تقريبًا ، وتفجّرت النيران والدخان ، من شدة التضاغط ، عبر فتحـات المجارى القديمـة ، فـى معظم أحياء العاصمة الفرنسية ..

وجنّ جنون (فون هام) ، عندما بلغه مـا حدث ، واندفع كـالنمر الجريح ، يلقى القبض ، وبمنتهى الشراسة ، على كل من ورد اسمه فى القائمة ، التى سلمها (جودو) للجاسوسة (هنريت) ..

وكانت الضربة أكثر عنفًا هذه المرة ..

فعلى الرغم من أن هذا لم يرد فى ملفاتهم ، إلا أن كل من ورد اسمه فى قائمـة رجل المقاومـة الفرنسية (جـودو) ، كـان من الفرنسيين المتعاونين مع المحتلّ ..

هذا ما أكَّده رجال المخابرات النازية ..

وهنا بدت الحقيقة واضحة جَلِيَّة ..

لقد كانت خدعة متقنة بحق .. من رجال المقاومة الفرنسية ..

كان من الواضح أنهم قد كشفوا أمر (هنريت) منذ البداية ، وأن بقايا العبث فى أعماقهم جعلهم يديرون اللعبة على نحو ساخر للغاية ، لرد الكيد إلى صاحبه ..

وهكذا قادوا الجاسوسة النازية إلى وكر زائف ، أعدوا فيه فخًا للقوات الألمانية ، ومنحوها قائمة بأسماء المتعاونين مع المحتلّ ، ليثبتوا تفوّقهم وسخريتهم ..

ولأوّل مرة فى حياة (هنريت) ، أصابها ذعر حقيقى ، جعلها تطلب من (فون هام) إعادتها فورًا إلى (برلين) ..

وبأسرع وسيلة ممكنة ..

ولكن (فون هام) رفض الفكرة بشدة ؛ نظرًا لأن (هنريت) هى الوحيدة ، التى يمكنها تعرُّف رجال المقاومة الفرنسية ، الذين تعاملت معهم .

ولم يتصوَّر (فون هام) أن رجال المقاومة أيضًا يُدركون هذه الحقيقة ..

لذا ، فعلى الرغم من إحاطتها بحراسة خاصة مشدَّدة ، أُصيبت (هنريت) بحالة تسمُّم شديدة ، عجزت الوسائل الطبية المتاحة عن إسعافها ، فلفظت أنفاسها الأخيرة ، بعد يومين فحسب من حادث الانفجار ، وسافرت بالفعل إلى (برلين) ..

ولكن جثة هامدة ..

أما (فون هام) نفسه ، فقد راح يعمل بكل طاقته وقوته وغضبه ؛ لكشف مقر المقاومة الفرنسية ورجالها ، دون أن يحقِّق سوى انتصارات محدودة ، خلال عام كامل ، مما أحنق (أدولف هتلر) وأغضبه ، وجعله يأمره بالعودة فورًا إلى (برلين) ..

وفى يوم عودته ، وبينما يتجه موكبه إلى المطار ، تحت حراسة مشدَّدة ، ألقى أحدهم قنبلة على سيارته ، ونسفها معه نسفًا ، مع تحية من القلب ..

قلب المقاومة ..

الفرنسية .

* * *

قواعد اللعبة ..

بعد رحلة طويلة نسبيًا ، توقَّف القطار القادم من (سويسرا) ، عبر (لكسمبورج) ، عند الحدود الألمانية ، فى ذلك المساء ، من ليالى أغسطس 1940م ، ذروة الحرب العالمية الثانية ، التى أشعلها الرايخ الثالث فى (أوروبا) ، بأفكاره النازية ، وديكتاتورية زعيمه (أدولف هتلر) ، وعلى الرغم من أن معظم ركاب القطار كانوا يتمتعون بالجنسية السويسرية المحايدة ، التى لا ناقة لها فى الحرب ولا جمل ، إلا أن التوتر سرى فى ملامحهم وأجسادهم ، وخفق مع دقات قلوبهم ، عندما صعد رجال الجيش النازى إلى القطار ، وعلى رأسهم ضابط من ضباط (الجستابو) ، بزيه الأسود المخيف ، وذلك الصليب المعقوف حول ذراعه ، وراحوا يرمقون الكل بنظرات قاسية صارمة فظة ، تحمل ألف اتهام واتهام ، حتى للنساء والشيوخ والأطفال ..

كان تفتيشًا روتينيًا حدوديًا حتميًا ، فى زمن الحرب ، إلا أن النازيين كانوا يبالغون فى القيام به أيما مبالغة ، ويلقون القبض على كل من تراودهم ولو ذرة شك واحدة بشأنه ، ليتعرَّض إلى استجواب سخيف عنيف ، قد يضطره ، فى أحسن الأحوال ، إلى العودة إلى (سويسرا) ، وهو يحمد الله (سبحانه وتعالى) ويشكره ؛ لأنه لم يُلق فى سجون (برلين) الرطبة المظلمة ..

ومع فوهات المدافع الآلية ، والنظرات الصارمة القاسية ، تجمَّد الركَّاب فى مقاعدهم ، وراحوا يتابعون حركة النازيين فى حذر ، وعينا ضابط (الجستابو) الشلب ، بارد الملامح ، تفحص وجوههم ، وترصد حركاتهم وسكناتهم ، وحتى ارتجافة جفونهم ، و ...

وفجأة ، توقَّف ضابط (الجستابو) ، عند رجل وقور ، فى منتصف الأربعينات من عمره ، يرتدى معطفًا سميكًا ، له أزرار كبيرة مستديرة ، وانعقد حاجباه فى شدة وقسوة ، بدت واضحة فى صوته ، وهو يسأله :

ـ ما اسمك وجنسيتك ؟!

بدا الرجل مضطربًا متوترًا ، شأن أى شخص عادى ، فى ظروف مماثلة ، وغمغم فى عصبية :

ـ اسمى (جون أندرسن) ، وأنا سويسرى الجنسية ، والمفترض أن دولتنا محايدة ، و ...

قاطعه ضابط (الجستابو) بمنتهى القسوة :

ـ ولماذا ترتدى معطفًا بريطانى الصنع ؟!

بدت الدهشة على السويسرى ، وهو يغمغم مضطربًا :

ـ أهذه جريمة ؟!

صاح فيه الضابط ، بكل صرامة وقسوة الدنيا :

ـ أجب السؤال .

ارتبك السويسرى أكثر ، وبدا لباقى الركاب أن الموقف سيتوتر أكثر وأكثر ، عندما أجاب الرجل ، وكلماته ترتجف على شفتيه :

ـ أعلم أن المعاطف الألمانية ممتازة ، ولكن هذا المعطف رخيص الثمن ، ومصنوع من صوف جيِّد ، و ...

قاطعه ضابط (الجستابو) ، بصرخة هادرة مباغتة ، وهو يستلّ مسدسه الضخم ، على نحو انتفضت معه أجساد الركاب جميعهم :

ـ هراء .

ثم ألصق فوهة مسدسه الباردة بصدغ الرجل ، وهو يجذبه من معطفه بقسوة وخشونة ، مستطردًا :

ـ من سوء حظك أننا نحفظ هذه اللعبة جيدًا ، ونعرف ما الذى يعنيه ارتداء معطف كهذا .

وانقضَّت أصابعه القاسية بغتة ، على أزرار المعطف ، مضيفًا :

ـ بأزرار كهذه .

ارتجف جسد الوقور فى عنف ، وبدا وكأن خصلات شعره قد ازدادت شيبًا ، من فرط الرعب ، وهو يهتف :

ـ وما عيب الأزرار ؟!.. سأستبدلها بأزرار ألمانية ، لو أن هذا يريحكم .

ألصق ضابط (الجستابو) فوهة مسدسه بصدغه أكثر ، وهو يدير أحد الأزرار الكبيرة بأصابعه ، قائلاً :

ـ لا تتظاهر بالبراءة والسذاجة يا رجل .. نحن محترفون ، ونعلم جيدًا ما يمكن إخفاؤه ، فى أزرار كبيرة مجوَّفة كهذه ، و ...

وفجأة ، بتر عبارته ، وازداد انعقاد حاجبيه فى شدة ، وانتقلت أصابعه بحركة حادة وعصبية إلى زر ثان ... ثم ثالث .. ثم الرابع والأخير ..

وبعدها احتقن وجهه فى شدة ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ عجبًا .. المفترض أن ...

بتر عبارته مرة أخرى ، وتراجع بحركة حادة ، فلملم الوقور معطفه ، وهو يقول بكلمات مرتجفة مذعورة :

ـ هل .. هل تريدون منى التخلُّص من الأزرار ، أم من المعطف كله ؟!

اعتدل ضابط (الجستابو) ، وقال فى عصبية :

- لا تتخلَّص من شىء .

وأعاد مسدسه إلى غمده ، وهو يشيح بوجهه عن الرجل ؛ ليواصل جولته فى القطار ، وما إن انتهى منها ، حتى غادره ، وهو يشير إلى سائقه بمواصلة السير ..

وتحرَّك القطار نحو (برلين) ، وما إن تجاوز الحدود ، حتى مالت عجوز تجاور الوقور على أذنه ، هامسة :

- لا تخجل من ذعرك .. لقد كان يواجهك أنت ، وكاد قلبى أنا يتوقَّف من شدة الرعب .

منحها الوقور ابتسامة مجاملة ، لم تخل من التوتر ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويسبل جفنيه ، وكأنما يحاول إزالة انفعالات اللحظات السابقة ، ولكن الواقع أن المشاعر التى تدور فى أعماقه كانت تختلف عما تصوَّره كل ركاب القطار بلا استثناء ..

تختلف تمامًا ..

ففى أعمق أعماقه ، كانت تجلجل ضحكة ..

ضحكة ساخرة ظافرة عالية ..

وإلى أقصى حد ..

هذا لأن ما حدث منذ لحظات ، كان مجرَّد اختبار ..

اختبار لتقنية جديدة ، فى العالم الذى يحوى دومًا كل جديد وغامض ومثير ..

عالم الجاسوسية ..

فمع بداية الحرب العالمية الثانية ، كان من الطبيعى أن تنشط المخابرات البريطانية ، المعروفة باسم المكتب السادس ، أو (MI6) ، لجمع المعلومات من كل اتجاه ، ونقلها من وإلى (برلين) ، عبر مسارات شتى ، تتصل وتنقطع ، وفقًا لنشاط جهاز مكافحة الجاسوسية الألمانى (الجستابو) ، أو المخابرات الألمانية (SD) ..

ولأن الأمور لم تكن متطوِّرة ، كما هى الآن ، كان من الضرورى البحث عن أساليب ووسائل بسيطة وذكية ، لنقل الوثائق (الميكروفيلم) ، بحيث تمر تحت أنف الألمان ، دون أن تثير شكوكهم أو شبهاتهم ..

والحقيقة أن البريطانيين قد برعوا كثيرًا فى هذا المضمار ، على الرغم من أن كل ما استخدموه من تقنية بسيطة ، يعتبر الآن ساذجًا للغاية ، إلا أنه كان فى أيامها لمحة من العبقرية الحقيقية ، فقد استخدموا مقبض المظلة ، كمخبأ سرى ، لإخفاء

(الميكروفيلم) ، ويد المظلة لإخفاء الوثائق والصور ، والولاعات ، وعلب السجائر ، وحقائب النساء ، كتعمية لآلات التصوير الصغيرة ..

وبين كل هذا ، كانت خدعة أزرار المعاطف المجوَّفة ..

ففى تلك الأيام ، كانت المعاطف تصنع من صوف ثقيل ، وتزوَّد بأزرار كبيرة ضخمة ، وجد رجال المخابرات البريطانية أنها يمكن أن تحوى تجويفًا كافيًا ، لإخفاء (ميكروفيلم) دقيق ؛ لذا فقد بدءوا فى صناعة أزرار معاطف خاصة ، تحوى التجويف المطلوب ، وأمكنهم استغلالها بنجاح ، طوال النصف الأوَّل من عام 1940م ، لنقل (الميكروفيلم) ، الذى يحوى التعليمات أو المعلومات ، من وإلى (برلين) ، تحت سمع وبصر رجال (الجستابو) ..

ثم سقط جاسوس بريطانى ، فى قبضة النازيين ..

ومع سقوطه ، انكشف سر التقنية البريطانية العبقرية ، البسيطة الناجحة لنصف عام كامل ..

وجن جنون الألمان ، عندما أدركوا الخدعة ، وعندما علموا أن المعلومات كانت تنتقل ، تحت سمعهم وبصرهم طوال الوقت ، فى صورة بريئة أنيقة ، بل وفاخرة أيضًا ، فى بعض الأحيان ..

وأصابتهم عقدة أزرار المعاطف الكبيرة ، فراحوا يهاجمون كل من يرتديها ويديرونها بأصابعهم إلى اليسار ، فانفتحت بعضها ، وكشفت ما بداخلها ، وسقط عدد آخر من الجواسيس البريطانيين ..

وفى المخابرات البريطانية ، أدرك الرجال أن لعبتهم قد انكشفت ، وأسفوا كثيرًا لفقدان وسيلة مدهشة كهذه ، وكان عليهم أن يعتصروا أذهانهم ؛ للبحث عن وسيلة جديدة ، بنفس براعة الوسيلة السابقة ، ونفس بساطتها ، وشكلها الخدَّاع ..

وفى ذلك الوقت ، كان هناك شاب من أسرة بريطانية عريقة ، يعمل فى المخابرات البحرية ، ويملك عقلاً مدهشًا ، وخيالاً جامحًا ، كثيرًا ما استفزَّ رؤساءه ، الذين يفاجئون بعدها بأنه قابل للتنفيذ ، بل وناجح أيضًا إلى درجة مدهشة ..

والطريف أن الرئيس المباشر لذلك الشاب ، كان يثق فى عقليته وأفكاره المبتكرة ثقة مطلقة ، على الرغم من معرفته بتاريخه الطويل ، الذى حمل أمثلة موجعة على الاستهتار واللامبالاة ، والعبث الذى اشتهرت به طبقة النبلاء الرفيعة فى (إنجلترا) ..

ومن منطلق هذه الثقة ، عرض عليه رئيسه الأمر ، وسأله :

ـ هل تعتقد أنه باستطاعتك ابتكار وسيلة بارعة مماثلة يا (فليمنج) ؟!

صمت الشاب (آيان فليمنج) بضع لحظات ، وهو يتطلَّع إلى رئيسه المباشر ، الذى تربطه صداقة وثيقة بعائلته ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ بكل تأكيد .

ابتسم رئيسه ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ دعنا نرى عبقريتك إذن .

نطقها بلهجة عجيبة ، تجمع بين السخرية والتقدير ، فى مزيج يصعب تقليده ، أو حتى إلقاؤه ، ولكن (فليمنج) الشاب لم يبال ؛ إذ كان هو أيضًا من ذلك الطراز ، الذى يجمع فى أعماقه بين الغرور والثقة ، والأعصاب الباردة كالثلج ؛ لذا فقد حمل السؤال إلى حجرة مكتبه الصغيرة (جدًا) ، وحمل معه أحد تلك الأزرار المجوَّفة ، وراح يغلقه ويفتحه ، وهو يدير الأمر فى رأسه ، ويعتصر خلايا مخه الرمادية ، فى تحد خص به نفسه ، لمواجهة هذا الأمر اليسير ..

كان يحتاج إلى فكرة بسيطة ، وواضحة ، وأنيقة .. وعبقرية أيضًا ..

ولقد راح يفكِّر ، ويفكِّر ، و ...

وفجأة ، قفز من مقعده ، وقد سطعت فى ذهنه فكرة مدهشة ، وأمسك الزر الأجوف الكبير ، يحدِّق فيه لحظة ، قبل أن يختطف ورقة وقلمًا ، ويدوِّن فكرته ، ثم يعدو إلى مكتب رئيسه المباشر ، ليعرضها عليه ..

وكما يحدث فى كل مرة ، استنكر رئيسه الفكرة تمامًا فى البداية ، واستهجنها ، ووصفها بأنها تافهة وسخيفة ، وستنكشف من اللحظة الأولى ، إلا أن (فليمنج) الشاب كان عنيدًا مثابرًا ؛ لذا فقد راح يؤيِّد فكرته ، ويضرب الأمثلة عليها ، ويشرحها ، حتى اقتنع بها رئيسه تمامًا ، وقرَّر عرضها على رجال المكتب السادس فورًا ..

وفى مساء اليوم نفسه ، وبناءً على طلب ضابط مخابرات البحرية البريطانى ، تم عقد اجتماع خاص ..

وفى الاجتماع ، شرح الرجل فكرة (آيان فليمنج) ..

شرحها بنفس الاقتناع والحماس ، اللذين شرح بهما الشاب نفسه ، عندما كان فى مكتبه ، قبل ساعات مضت ..

والواقع أن الأمر بدا كالصدمة ، على وجوه الرجال ..

لقد وجموا جميعًا ، على نحو عجيب ، وانسدلت عليهم ستارة من الصمت ، وعيونهم كلها تحدّق فى ضابط المخابرات البحرية ، الذى بدا له هذا أشبه باستهجان صامت ، ستعقبه حتمًا عاصفة من اللوم والتقريع ؛ لأنه أضاع وقتهم الثمين فى فكرة حمقاء كهذه ..

ولكن سير (سنكلير) ، أشهر وأبرع رجال المخابرات البريطانية وأعرقهم ، فى ذلك الحين ، كان أوّل من رفع ستارة الصمت ، وهو يقول :

ـ فكرة عبقرية .

هنا فقط ، تنفّس ضابط المخابرات البحرية الصعداء ، واستعاد حماسه الأولى ، وهو يهتف :

ـ ويسيرة أيضًا .

أضاف رجل آخر :

ـ ولن تخطر ببال الألمان أبدًا .

أشار سير (سنكلير) بيده ، قائلاً :

ـ لا يمكنك الجزم .

مع عبارته ، انسدلت ستارة الصمت مرة أخرى ، واستدارت العيون كلها إليه ، فتابع فى حزم :

ـ لابد من تجربة الفكرة عمليًا .

وهكذا تقرَّر وضع فكرة (آيان فليمنج) موضع التنفيذ ، ودفعها إلى تجربة عملية ، من خلال ذلك العميل السويسرى ، الذى قدَّم نفسه لضابط (الجستابو) باسم (جون أندرسن) ..

وسافر (أندرسن) ، من (برن) إلى (برلين) ، وهو يحمل تلك الوسيلة الجديدة ، التى تفتق عنها ذهن (فليمنج) ..

وواجهه ضابط (الجستابو) مباشرة ..

ولكنه لم يكشف أمره .. أبدًا ..

وفور استقراره فى (برلين) ، أبرق (أندرسن) إلى عمته فى (لوزان) ؛ ليطمئنها على وصوله ، وكانت هذه البرقية تعنى أن الخدعة قد نجحت ، وأن فكرة (فليمنج) قد عبرت الحدود بتفوق ..

وعندما استدعى ضابط المخابرات البحرية مرءوسه الشاب ؛ ليبلغه بنجاح فكرته ، ابتسم هذا الأخير فى ثقة ، قائلاً :

كنت أعلم هذا .

والواقع أن الفكرة كانت مدهشة بحق ؛ إذ إن كل ما فعله (فليمنج) الشاب ، هو أن عكس اتجاه فتح الأزرار المجوّفة ..

فقط عكس الاتجاه ، بحيث إنه عندما يحاول الألمان فتحها ، يكونون قد أحكموا إغلاقها فى الواقع ..

ولقد اعتمد الشاب ، فى فكرته هذه ، على ما يُعرف باسم (الفعل الشرطى المنعكس) ؛ إذ إن الألمان قد كشفوا خدعة الأزرار المجوّفة ، وتدرَّبوا على كشفها ، واعتادت أيديهم إدارتها إلى اليسار لفتحها ، فور شكهم فى أمرها ، إذن فكل ما عليه هو أن يجعلها تُفتح إلى اليمين وليس إلى اليسار ، ولن تنتبه أصابعهم المدرَّبة إلى هذا أبدًا ..

ولقد كان تقديره سليمًا إلى درجة مدهشة ، ولم تنكشف خدعة الأزرار التى تُفتح عكس اتجاهها ، إلا مع سقوط عميل آخر ، فى أوائل عام 1945م ، وقبيل نهاية الرايخ الثالث بأشهر قليلة ..

والمدهش أن (فليمنج) ، والذى تحوَّل بعد انتهاء الحرب إلى

كاتب روائى ، وابتكر أشهر شخصية فى عالم الجاسوسية (جيمس بوند) ، لم يستخدم هذه الفكرة ، فى رواياته أبدًا ..

ربما لأنها بسيطة للغاية ، على نحو لن يبهر القارئ ، أو المشاهد فيما بعد ..

أو ربما لأنه كان يومًا رجل مخابرات محترفًا ، يدرك جيِّدًا القواعد ..

قواعد اللعبة ..

لعبة الجاسوسية .

* * *

لحظة المقاومة ..

لم تمض أشهر قليلة على اشتعال الحرب العالمية الثانية فى (أوروبا) ، حتى سقطت (بولندا) فى قبضة النازيين ..

وحبست (أوروبا) كلها أنفاسها ، مع ذلك الحدث الرهيب ، ليس لأن (بولندا) قد سقطت فحسب ، ولكن لأن سقوطها حدث بأسلوب لم تعرفه الحروب من قبل قط ..

فعلى عكس كل ما سبقها من مواجهات حربية ، لم يبدأ (هتلر) قتاله مع (وارسو) بهجوم تقليدى ، تشنه المدفعية والمدرعات ، ويتبعه المشاة ، وتؤازره الطائرات ..

لقد استخدم تكنيكًا جديدًا ، لم يعرف قبلها قط ، ولم يخطر ببال مخلوق واحد من جنرالاته ، الذين كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم ، أنهم أفضل كثيرًا منه ؛ باعتباره لم يدرس العسكرية قط ، مثلما فعلوا هم ..

لكن ما نسوه ، وتناساه العالم أجمع الآن ، هو أن (هتلر) لم يكن بسيطًا أو هينًا ، فربما لم يدرس العسكرية أبدًا ، إلا أنه قد

اشترك فى ثمانية وأربعين معركة ، خلال السنوات الأربع ، التى قضاها فى الحرب العالمية الأولى ، وأنه قد حصل على وسام الشرف ، من الطبقة الثانية ، عام 1914م ، ثم لم يلبث أن حمل وسام الشرف من الطبقة الأولى ، فى الرابع من أغسطس عام 1918م ..

ولأنه يبغض التقليدات ، فقد بدأ (هتلر) احتلاله لدولة (بولندا) ، قبل أن ينفذ هذا فعليًا ، بأربعة أشهر كاملة ..

ففى ذلك الحين ، وصل إلى (بولندا) صحفى يوغسلافى شاب ، يحمل اسم (حاستين فلوبير) ، بحجة عمل تحقيق صحفى كبير ، حول ذلك المد النازى فى (أوروبا) ، وتأثير خطب (أدولف هتلر) السياسية الحماسية ، التى تنتشر كالنار فى الهشيم ، بين شباب (أوروبا) ، الطامح إلى التغيير ، بكافة جنسياته ..

ومن خلال ذلك الهدف المعلن ، أصبح من حق (فلوبير) أن يتجوّل فى (وارسو) ، وأن يلتقى بمسئوليها السياسيين والعسكريين ، وبأفراد شعبها ، من كافة الطبقات ..

وبحكم طبيعته الصحفية ، كان (فلوبير) يسجل كل ما يمر به ،

أمام عيون الجميع ، ودون أن يحاول إخفاء هذا أو مواراته لحظة واحدة ..

بل ، وكان ينشر بعضه ، فى صحيفته اليوغسلافية أيضًا ..

أما المعلومات الكاملة ، والمؤيدة بالصور والوثائق والمستندات ، فقد كانت تصل إلى (هتلر) شخصيًا ، كل ثلاثة أيام ، بوسائل مخابراتية دقيقة ..

وفى حجرة مكتبه الخاصة ، اجتمع الفوهلر مع نائبه (هيس) ، وقائد (الجستابو) وجهاز المخابرات (هملر) ، ليراجعوا معًا تلك النتائج ، قبل أن يقول (هيس) فى حذر ، وهو يراقب انفعالات زعيمه :

ـ وفقًا لهذه المعلومات ، فالبولنديون على أهبة الاستعداد لمواجهتنا ، وستكون حربنا معهم عنيفة وشرسة .

أجابه (هتلر) فى صرامة مقتضبة :

ـ مطلقًا .

تطلّع إليه الرجلان فى حذر ، وكلاهما يخشى مجرّد إبداء الرأى ، نظرًا لما اشتهر به (هتلر) من ديكتاتورية ، وعناد ،

وتشبث بالرأى ، فى حين لم ينتبه هو قط إلى توترهما ، وهو يشير إلى خريطة (بولندا) ، قائلاً :

ـ كل ما ينبغى علينا معرفته ، هو أين تجتمع الحكومة البولندية ، ومتى ، وكيف يمكن عقد اجتماع لها ، يحضره كل قادة الجيش وجنرالاته وأركان حربهم .

تبادل الرجلان نظرة حائرة ، قبل أن يقول (هملر) :

ـ سأطلب من جاسوسنا أن يمدنا بتلك المعلومات ، فى أقرب فرصة ممكنة .

زمجر الفوهلر فى شراسة ، وهو يقول :

ـ بل فى نهاية الأسبوع ..

ثم عقد كفيه خلف ظهره ، وشد قامته فى قوة ، مضيفًا بكل الحزم :

ـ على أقصى تقدير .

وأسقط فى يد الرجلين ..

فعندما يضع (هتلر) موعدًا ، فهو لا ينساه ..

ولا يتنازل عنه أبدًا ..

وهذا يعنى حتمية الحصول على المعلومات المطلوبة ، فى نهاية الأسبوع ..

وعلى أقصى تقدير ..

وبسرعة ، عاد (هملر) إلى مكتبه ، وأرسل الأوامر مباشرة إلى جاسوسه الأوّل فى (وارسو) ..

إلى (حاستين فلوبير) ..

وعلى عكس ذلك التوتر فى (برلين) ، استقبل (فلوبير) الأوامر بمنتهى الهدوء فى (وارسو) ..

ووضعها موضع التنفيذ على الفور ..

وبسرعة ، وباستخدام جاذبيته ، ولباقته الصحفية المعروفة ، حدَّد موعدًا مع وزير الدفاع البولندى ؛ لإجراء حوار صحفى معه ، حول تلك الحشود الألمانية على الحدود ..

وفى براعة تحسب له ، راح يستدرج الرجل فى الحديث ، حول الاستعدادات والدفاعات ، حتى ألقى عليه سؤاله الحاسم :

- ومتى يحتاج الأمر إلى اجتماع شامل ، لكل القيادات العسكرية والسياسية ؟

وعلى الرغم من أن السؤال شديد الحساسية ، فى مثل تلك الظروف ، إلا أن الوزير أجابه بمنتهى الحزم ، وكأنما ينفث عن غضب وانفعال مكبوتين فى أعماقه :

- عندما نشر أن النازيين سيبدءون هجومهم بالفعل .

وعلى الرغم من أن هذا ما جاء يبحث عنه بالتحديد ، واصل (فلوبير) حديثه مع الوزير لعشر دقائق أخرى ، ثم انصرف ، وقد حصل على ثلث ما يبحث عنه ..

فالآن ، علم متى يجتمع القادة ..

بقى أن يعرف كيف .. وأين ..

لذا ، فأثناء خروجه ، لم يضع (فلوبير) وقته هباءً ، وإنما راح يتودَّد إلى (زوشا) ، السكرتيرة الحسناء لوزير الدفاع ، والتى لم تصدق أن شابًّا وسيمًا لبقًا مثله ، يلقى شباكه حولها ، فشجعته بابتسامة جذّابة ، وغمزة عين سريعة ، أمنت لهما لقاءً خاصًّا ، بعد ليلة واحدة ، فى حانة من حانات (وارسو) الشهيرة ..

ليلتها رقصا ، وضحكا ، وتحدثا ، وتغازلا ..

وعندما افترقا ، فى الثانية صباحًا ، كانت (زوشا) قد وقعت

فى غرامه حتى النخاع ، وباتت مستعدة لفعل أى شىء فى الوجود من أجله ..

ولأنه محترف ، لم يلق عليها (فلوبير) سؤالاً واحدًا مباشرًا ..

فقط راح يغازلها ، ويضاحكها ، ويستدرجها ، حتى باحت له بكلمة السر ، التى ينبغى أن يتلقاها القادة ، لتحديد الاجتماع العاجل ..

وقبل نهاية الأسبوع ، الذى حدده (هتلر) ، كانت قد باحت له بأخطر سر فى حياتها كله ..

بخطة استمرار الحكومة البولندية ..

تلك الخطة ، التى ينبغى أن ينفذها الجميع ، فى حالة تعرض البلاد للخطر ، أو لغزو أجنبى ..

وبواسطتها ، عرف (فوبير) أين ستذهب الحكومة ..

وأين ستجتمع ..

وتختفى ..

وفى الموعد المحدد تمامًا ، كانت كل هذه المعلومات أمام (هتلر) ، الذى تألَّقت عيناه ، وشدَّ قامته فى اعتداد ، ونقل بصره بين (هملر) و(هيس) ، قبل أن يقول فى ثقة :

ـ الآن فقط ، يمكننى أن أضمن لكم وقوع (وارسو) فى قبضتنا ..

وبأقل خسائر ممكنة ..

وبعد ساعة واحدة ، اجتمع الفوهلر بجنرالاته ..

وطرح خطته ..

وساد المكان وجوم شديد ..

وجوم سيطر على الكل ، وجعل وجوههم تشحب ، وأطرافهم تبرد ، وعقولهم تغلى فى رءوسهم ، من شدة توترهم .

فالخطة ، وفقًا لمنظورهم ، ولكل دراساتهم العسكرية ، كانت غير منطقية .. وغير مقبولة ..

بل ومجنونة أيضًا ..

وعبثًا ، حاول الجنرالات ، الذين يعتبرون أنفسهم أساتذة العسكرية ، إثناء (هتلر) عن خطته ، دون إثارة غضبه ..

ولكنه تشبث بالخطة ، وتحداهم جميعًا ، وأمر بالتنفيذ فعليًا ..

وبعد أيام ثلاثة ، تحركت القوات النازية ، على الحدود البولندية ، مما بدا للبولنديين أشبه بالتأهب للهجوم الشامل ..

وانطلقت صفارة الإنذار الكبرى ..

وبدأت (زوشا) إجراءات خطة الاستمرار ، وأبلغت الوزير ، الذى انطلق فى سيارة مغلقة إلى موقع بالغ السرية ، اجتمع فيه كل قادة (بولندا) ، السياسيين والعسكريين ، لدراسة الموقف ، وإصدار الأوامر اللازمة ..

وحده (فلوبير) ، ظل هادئًا فى حجرته ، وقد استنتج عقله الذكى المدرَّب ، طبيعة الخطة المدهشة ، التى وضعها عقل الفوهلر ..

ووسط كل هذا ، وبينما كل العيون مفتوحة على اتساعها عند الحدود ، لم ينظر مخلوق واحد إلى السماء ..

إلى حيث الخطر الحقيقى ..

ففى سماء (وارسو) ، وعلى ارتفاع شاهق ، حلَّقت طائرات ألمانية ضخمة ، حاملة مئات ، بل آلاف من قوات العاصفة النازية ..

وفى تتابع منتظم ، وبكافة تسليحهم وعتادهم ، هبط جنود وضباط

العاصفة النازيون بالمظلات ، على العاصمة البولندية ، فيما أطلق عليه الفوهلر فى خطته اسم (تكنيك الصاعقة) ، أو (بليتزكريج) ..

وكان اسمًا على مسمى بالفعل ..

فالقوات النازية لم تهاجم الحدود البولندية ..

بل ولم تطلق عندها طلقة واحدة ..

لقد هبطت كالصاعقة من السماء ..

وبينما يجتمع القادة العسكريون والسياسيون ، فوجئوا بالقوات النازية تنقض عليهم ، فى عقر دارهم ..

وفى مقر اجتماعاتهم السرية مباشرة ..

وسقطت (بولندا) فى قبضة النازية ..

وهنا ، وقع (فلوبير) فى أوَّل خطأ ، وأكبر خطأ ، فى حياته كلها ..

ففور دخول النازيين إلى (وارسو) ، أرادوا فرض رهبتهم وسطوتهم منذ اللحظة الأولى ؛ لذا فقد انتقوا عشوائيًا مجموعة من المواطنين ، وضعوهم أمام أول جدار صادفهم ، و ...

وأطلقوا عليهم النار ..

لحظتها كان (فلوبير) هناك ، يرصد الموقف كله ، وكان يمكن أن يواصل عمله كصحفى يوغسلافى حر ، لولا أن تملكه الزهو ، لكونه جزءًا من ذلك الانتصار الساحق ، فاتجه نحو القائد النازى ، وصافحه فى حرارة ، وقدم له نفسه ..

وكان هذا المشهد يكفى ..

فكما يحدث ، فى كل احتلال ، ظهرت فى (وارسو) مقاومة حرة ، رافضة للاحتلال ، لا يتأخر أفرادها لحظة واحدة ، فى التضحية بكل غال وعزيز ، من أجل أوطانهم وحريتهم ..

ولقد رصدت تلك المقاومة ما فعله (فلوبير) ، وأدركت من ابتسامته ، وحرارة المصافحة ، أنه لم يكن أبدًا مجرد صحفى ، وإنما كان جاسوسًا نازيًا ، أيًا كانت جنسيته ..

وفى أول اجتماعاتها ، قرَّرت المقاومة تلقين النازيين أوَّل درس ، وإعلان وجودها فى الوقت ذاته ، و ...

وقتل (فلوبير) ..

وفى ليلة باردة ، تناول (فلوبير) عشاءه مع القائد النازى ،

وأبلغه آخر ما توصَّل إليه من معلومات ، وطلب منه الإذن بالزواج من (زوشا) ، سكرتيرة الوزير السابق ، ثم غادر مقره ؛ ليلتقى مع حبيبته البولندية ، فى البار الذى شهد أوَّل لقاء لهما ..

وكانت (زوشا) فى انتظاره بالفعل .. مع رجال المقاومة ..

فعلى الرغم من حبها الحقيقى للشاب ، إلا أن (زوشا) لم تنس قط أنها بولندية ، تجرى فى عروقها دماء وطنها ، الذى لن تتردَّد فى التضحية من أجله بكل شىء فى الوجود ..

حتى بقلبها نفسه ..

واستقبلت (زوشا) (فلوبير) بابتسامة كبيرة ، وشاركته كأسين ، قبل أن تقترح عليه الذهاب إلى منزلها ، وما إن غادرا المكان ، حتى انقض عليه رجال المقاومة البولندية ، وكمموا فمه ، وحملوه فى سيارة صغيرة إلى أحد مقارهم السرية ، حيث فوجئ بموقفه ، وسمع بأذنيه الحكم بإعدامه ..

وهنا ، انهار (فلوبير) ، وتلاشت ثقته ، وسقطت لباقته ، وراح يتوسل ، ويتضرع ، حتى انتهت تضرعاته برصاصة استقرَّت فى رأسه ، وأنهت معها حياته الحافلة بالخيانة ..

وبكت (زوشا) ، كما لم تبك فى حياتها قط ، ولكنها كتمت أحزانها ودموعها ، وعادت إلى عملها ، بعد أن تعاونت مع رجال المقاومة ، فى إلقاء جثة الصحفى اليوغوسلافى أمام مقر القيادة النازية ..

وكان هذا إعلانًا بمولد المقاومة البولندية ، التى أذاقت النازيين الأمرين ، عبر سنوات الاحتلال الطويلة ..

وفى كل مرة ، كانت المقاومة توجه ضرباتها إلى النازيين ، كان جنونهم يشتعل ، ويقومون بحملات إعداد عشوائية غاضبة ..

وهنا تضربهم المقاومة ثانية .. وثالثة .. ورابعة ..

وعلى نحو مدهش ، قامت المقاومة البولندية بتنظيم نفسها ، بمنتهى الدقة والمهارة ، وصنعت من نفسها صفوفًا ، وكتائب ، وفصائل ، واختفت فى القرى ، والجبال ، والحقول ، وتوالت ضرباتها بلا انقطاع ..

وباعتراف النازيين أنفسهم ، كانت المقاومة البولندية أشبه بشوكة كبيرة حادة ، فى ظهر الجيش النازى طوال الوقت ..

وخصوصًا فى مرحلة اندحاره ..

فمع هزيمة الجيش النازى ، على يد السوفيت ، عند مشارف

(موسكو) ، بدأ الرايخ الثالث تراجعه وانسحابه ، وشن رجال المقاومة البولندية حربًا شرسة ومباشرة ، على النازيين المنهكين ..

ولقد حاول النازيون الرد على هذا ، بأسلوب دموى عنيف ، وبتصعيد حملات الإعداد العشوائية ، إلا أن المقاومة لم تتوقف ، ولم تتراجع ..

ثم انهار الرايخ الثالث ، وانتحر قادته ، وأعلنت (ألمانيا) استسلامها غير المشروط .

وتحرَّرت (بولندا) ..

تحرَّرت بسبب مقاومة ، بدأت مع قتل جاسوس ..

جاسوس يدعى (فلوبير) .

* * *

محيط الـدم ..

لم تكد الشمس تشرق ، فى صباح ذلك اليوم ، فى بدايات عام 1943م ، ذروة الحرب العالمية الثانية ، حتى انعكست أشعتها الذهبية على جسم المدمرة الألمانية الجديدة التى دخلت الخدمة منذ ثلاثة أشهر فحسب ، لتكبد الأسطول البريطانى الأمريكى وغواصاتها أكبر قدر من الخسائر ، منذ تلك الضربة اليابانية المباغتة ، لميناء (بيرل هاربور) ..

ففى شموخ وقوة ، راحت المدمرة الألمانية تمخر عباب المحيط ، وعلى متنها ذلك الجهاز الجديد الذى ابتكرته العقول الألمانية فى ذلك الحين ، والذى يمتلك قدرة مدهشة ، على كشف حركة الغواصات المعادية ، فى دائرة واسعة حولها ، وربما لأول مرة فى تاريخ حروب البحار والمحيطات .

وبالنسبة لتلك الفترة فى النصف الأول من الأربعينات كان جهاز كهذا يعتبر مجهزًا فى مضمار القتال البحرى ، الذى بلغ أوجه ، فى تلك المرحلة الحرجة فى الحرب ؛ إذ كان ابتكاره بداية لتدمير عدد لا بأس به من الغواصات البريطانية والأمريكية وإنقاذ عدد مدهش من المدمرات الألمانية واليابانية ، على نحو لم يسبق له مثيل .

وفى ذلك اليوم بالتحديد ، كانت المدمرة الألمانية تشق طريقها ، نحو منطقة قريبة فى الساحل البريطانى الغربى ، حيث تجمعت بضع غواصات بريطانية أمريكية استعدادًا للانطلاق نحو أهداف ألمانية ويابانية جديدة ، كما أكدت البرقية الشفرية السرية ، التى أرسلها جاسوس ألمانى رفيع المستوى فى قلب القيادة الحربية المشتركة فى (لندن) .

ولأن الغنيمة كانت ضخمة على نحو يسيل له اللعاب ، راح ضباط المدمرة النازية يبدءون استعداداتهم المكثفة حتى قبل الوصول إلى منطقة الهدف ، وأخذ القبطان يلقى أوامره هنا وهنا ..

وفجأة ، لمح أحد الضباط الجندى (رالف) وهو منهمك فى عمل ما ، عند مؤخرة المدمرة ، فصاح به فى صرامة :

ـ (رالف) .. ماذا تفعل هنا بالضبط ؟

وحسبما جرت العادة كان ينبغى أن ينهض (رالف) هذا فى سرعة ، وأن يرفع يده بالتحية النازية ، وهو يضرب كعبيه بعضهما ببعض فى قوة ليفسر لضابطه ما كان يفعله هناك فى ركن المؤخرة ..

وكان العجيب أن (رالف) قد واصل عمله بسرعة أكبر دون أن يلتفت لضابطه ، أو يوليه أدنى اهتمام مما أثار غضب الضابط وجعله يندفع نحوه ، صائحًا فى ثورة :

ـ انهض وأجب أيها الجندى .

واصل (رالف) عمله لثوان إضافية ، على الرغم من ثورة ضابطه ، ثم لم يلبث أن نهض فى هدوء مستفز ، قائلاً :

ـ لا بأس أيها الضابط ، لقد أنهيت عملى هنا .

لم يكن من المعتاد أن يخاطب جندى بحرى ملتزم فى البحرية النازية ، ضابطه الأكبر على هذا النحو المستهتر ؛ لذا فقد صاح فيه الضابط فى حدة شديدة :

ـ قف بانضباط واد التحية جيدًا أيها الجندى .

ولكن (رالف) لم يقف بالانضباط العسكرى اللازم .

بل ولم يحاول حتى هذا ..

والأدهى أنه قد قام بعمل عجيب ، يعد فضيحة فى أى نظام عسكرى ، إذ خلع قبعته أمام ضابطه ، وابتسم فى سخرية ، قائلاً :

ـ لا داعى لكل هذا .. لقد انتهت مهمتى هنا .

وقبل حتى أن يرفع حاجبين ، من فرط الدهشة ، فوجئ النازى بالجندى (رالف) يقدم على ثالث عمل مستفز .

بل ثالث عمل جنونى تمامًا ..

لقد اندفع نحو حاجز المدمرة ، ثم وثبت عبره ، ليقفز إلى مياه المحيط ويغوص فيها فى سرعة ..

ووفقًا للنظم البحرية كان ينبغى أن يصرخ الضابط بكل قوته :

ـ رجل فى البحر .

ولكن الضابط النازى لم يفعلها ، إذ اتسعت عيناه عن آخرهما وهو يحدق فيما تركه (رالف) خلف بكل ذهول وذعر الدنيا ..

ففى تلك اللحظة فقط أدرك الألمانى أن من كان أمامه ليس حتمًا أحد جنود الأسطول النازى ..

بل وليس حتى ألمانيًا ..

ليس لأن (رالف) قد أطلق عبارة إنجليزية ساخرة وهو يقفز إلى المحيط ، ولكن لأن ما فعله عند مؤخرة المدمرة ، وما تركه خلفه هناك كان رهيبًا .

رهيبًا بحق ..

* * *

منذ بدأت الحرب العالمية الثانية ، اشتبكت أساطيل الدول المتحاربة فى معركة عنيفة ، ربما لم يشهد العالم مثيلاً بحريًا لها ، فى تاريخه كله .

معركة سعى كل طرف فيها للسيطرة على البحار والمحيطات وتحجيم قدرة الخصم على التحرك فيها بحرية ، باعتبار أن النقل البحرى هو الوسيلة الرئيسة ، التى كانت متاحة آنذاك لنقل الأسلحة والمعدات الثقيلة ، من مصانعها فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وحتى الجزر البريطانية التى تنقلها بدورها عبر المسارات البحرية أيضًا ، لجنودها الذين يحاربون فى قلب (أوروبا) و(آسيا) و(أفريقيا) أيضًا ..

ومع ضربة (بيرل هاربور) ودخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحرب بثقلها كله ، أصبحت المسارات المائية هى وسيلة نقل الجنود أيضًا ، إلى ساحات المحاربين ..

وبأى ثمن ..

وكانت الحرب عنيفة إلى أقصى حد ..

المدمرات والغواصات اليابانية والألمانية ، تسعى بكل قوتها وكل ثقلها ، لإغراق حاملات الجنود والطائرات والمعدات فى حين تسعى قطع الأسطول البريطانية والأمريكية لإغراق المدمرات اليابانية والألمانية ، قبل أن تنفذ مهمتها ..

ولفترة ما ، بدأ وكأن مصير الحرب كلها يتوقف على الانتصار فى المعركة البحرية بالتحديد ، وخاصة بعد أن بلغت خسائر

الطرفين حدًا رهيبًا ، أصبح يهدد بدمار شامل .. وفى تلك المعركة البحرية كانت الغواصات هى السلاح الأكثر خطورة وفاعلية بلا منازع ، إذ إنها تتسلل تحت سطح الماء ، ويمكنها الاقتراب فى سرية ، حتى مجال رمايتها ، ثم إطلاق طوربيداتها على مدمرات الخصم فى غفلة منه ..

لذا فقد أصبح الشغل الشاغل للطرفين هو تطوير الغواصات ورفع قدرتها على الأداء ومضاعفة قدرات الطوربيدات التدميرية ، و... ولكن الألمان كان لهم مسار آخر ..

مسار أكثر عبقرية ..

لقد جندوا علماءهم وعقولهم ، للفوز بهدف آخر ، ألا وهو القدرة على رصد غواصات الخصم ، قبل أن تبلغ مدى الرماية المنشودة .

وفى واحدة من أعظم روايات الخيال العلمى على الإطلاق ، إلا وهى رواية (عشرون ألف فرسخ تحت الماء) للكاتب المبدع (جولى فيرن) استقى العلماء الألمان فكرة جهاز رصد الأعماق ..

وبدءوا فى تنفيذه ..

ثم انتقلوا إلى مرحلة التجريب ..

طوال شهر كامل لاحظ البريطانيون والأمريكيون أن قدرة الألمان على رصد غواصاتهم تجاوزت كل الحدود المنطقية وأنهم لا يكتفون بكشف أمرها ، قبل أن تبلغ المدى اللازم لتدميرها فحسب بل أنها ترشد طائراتها إليها أيضًا فتتجه نحوها مباشرة وكأنها تعرف موضعها جيدًا ، وتقصفها بقنابل الأعماق حتى تنسفها نسفًا .

وبهذا ارتفعت خسائر الغواصات الأمريكية والبريطانية إلى حد مخيف .. وكما يحدث فى مثل هذه الظروف بدأت المخابرات البريطانية فى دراسة الأمر ، ورصده عن قرب من خلال عملائها فى قلب (ألمانيا) ..

ولأنها كانت متوغلة فى العمق النازى بحق حصلت المخابرات البريطانية على أجوبة أسئلتها ، خلال أسبوع واحد فحسب ..

وأدركت أنها تواجه خطرًا داهمًا ..

وهنا كان من الضرورى بل من المحتم أن يجتمع رجالها ، للبحث عن حل لهذه المواجهة الجديدة ، والتى تسيدت فيها البحرية الألمانية عرش البحار والمحيطات .

كان الألمان يعملون على تطوير جهازهم الجديد ، فى سرعة مدهشة ، بعد أن زودوا واحدة من أقوى وأسرع مدمراتهم

بالنموذج الأول منه ، والذى حقق بالفعل نجاحات واضحة ، خلال ما يزيد على الشهر ، وكان على البريطانيين أن يعملوا بأقصى سرعة وفى ثلاثة محاور فى آن واحد .

المحور الأول هو تدمير جهاز رصد الأعماق ، الذى تحمله المدمرة الألمانية ، والمحور الثانى هو منع تطوير الجهاز ، فى وقتهم على الأقل والثالث والذى اعتبرته المخابرات البريطانية أخطر وأهم المحاور ، كان الحصول على تصميمات الجهاز ، لإنتاج سلاح مماثل ، والسعى لإيجاد وسائل مضادة له ، فى الوقت ذاته .

ومن أجل تلك الأهداف الثلاثة اجتمع رجال المخابرات البريطانية لثلاثة أيام متوالية ، لم يتذوقوا خلالها إلا قدر الأدنى من النوم ، الذى يبقيهم على درجة مناسبة من الوعى ، تكفى لوضع خطة شديدة التعقيد ..

والواقع أن اجتماعهم الطويل هذا كان مثمرًا بحق ؛ إذ أسفر عن خطة مدهشة لتحقيق الأهداف الثلاثة ، فى ضربة واحدة تقريبًا .

ومن الواضح أن الجزء الخاص بمنع تطوير الجهاز ، والحصول على تصميماته الرئيسة ، كان عبقريًّا وفريدًا بحق إذ خضع نشر

وثائقه لبند السرية البالغة ، الذى لا يتيح كشف الأوراق قبل مرور خمسة وسبعين عامًا على نهاية الحرب العالمية الثالثة ، وهو أقصى قدر مسموح به فى قانون الوثائق البريطانى ..

باختصار ، لن يمكننا معرفة ما تم بشأن المحورين الثانى والثالث قبل عام 2015 .. أما بالنسبة للمحور الخاص بتدمير نسخة جهاز رصد الأعماق على متن المدمرة الألمانية الذى أطلقوا عليها اسم (صائدة الغواصات) فقد تم نشر وثائقه كاملة .

والواقع أن البريطانيون قد بذلوا جهدًا بحق فى هذه العملية المدهشة ، والتى بدأت ببرقية شفرية ، تم إرسالها إلى واحد من أهم جواسيسهم فى (برلين) يطلبون منه فيها أن يمدهم بالملفات الكاملة لكل طاقم الضباط والبحارة الذين يعملون على المدمرة .

(صائدة الغواصات) ..

ولقد أدهش ذلك المطلب جاسوسهم ، وأربكه بشدة ، فأبرق إليهم يؤكد أن كل طاقم المدمرة تم اختياره بعناية فائقة ، وبواسطة رجال (الجستابو) أنفسهم ، وأنه من الخطورة ، كل الخطورة بذل أية محاولة لتجنيد أحدهم !

وكالمعتاد ، لم تشرح له المخابرات البريطانية وجهة نظرها أبدًا ، وإنما عادت تبرق إليه بضرورة بذل كل الجهد الممكن ، لتوفير الملفات المطلوبة مهما يكن الثمن .. ومن الواضح أن ذلك الجاسوس الذى أشارت إليه الوثائق باسم (أليكس) وهو ليس اسمه الحقيقى حتمًا ، قد بذلك جهدًا خرافيًا ، ليرسل إليهم صورة من تلك الملفات عبر عميل آخر سويسرى الجنسية ، أطلقت عليه الوثائق اسم (شبح برن) ، ربما لأهميته وخطورته فى ذلك الحين .

المهم أن الملفات قد وصلت إلى المخابرات البريطانية ، التى قضى رجالها ليلة بأكملها فى مراجعة صور أفراد الطاقم ، وصور رجال مخابراتهم ، قبل أن يقع اختيارهم على جندى روسى المولد يدعى (رالف هايد نبرج) .

وذلك الاختيار لم يعتمد على دراسة عميقة لشخصية (رالف) أو حتى تحريات مسبقة عنه ، وإنما عتمد فقط على شكله وملامحه .

هذا لأن (رالف) كان يشبه إلى حد كبير ، رجلهم (إدوارد رينز) ، الذى تم اختياره للقيام بالمهمة ، نظرًا للتشابه أيضًا .

وكان من الضرورى أن يتم كل شىء بسرعة ودقة ، وحزم .. وفى منتصف الليلة نفسها ، خضع (أدوارد) لعملية جراحية

تجميلية ، الغرض منها تقريب المسافة بين ملامحه ، وملامح (رالف هايد ينبرج) ..

وفى صباح اليوم التالى مباشرة ، وبينما رست المدمرة الألمانية وخرج بحارتها للتنزه والعبث فى الميناء بعد فترة طويلة فى عرض البحار والمحيطات ، كان أحمد عملاء المخابرات البريطانية يؤدى دوره فى الخطة ، دون أن يدرى ما يتجاوز ذلك الدور ، وربما لم يدر ، حتى لحظة وفاته .

فمع زجاجة خمر ، ووجه محتقن ، وعينين زائغتين ، اعترض العميل طريق (رالف) وتحرش به دون سبب منطقى ، وراح يسب أبويه وأسرته وينعته بصفات يندى لها الجبين حتى ثارت ثائرة (رالف) فانقض عليه للاقتصاص منه بكل ما يعتمل فى أعماقه من غضب ثائر ..

وهنا وبدون أى مقدمات نفض العميل البريطانى عن نفسه كل علامات السكر الزائفة ، وتحول فى لحظة واحدة إلى مقاتل شرس ، بالغ النشاط والحيوية ، وثب بمنتهى الخفة ، ليلكم الألمانى فى أنفه وقاعدة عنقه بمنتهى العنف ، وفى لحظة واحدة ، اختفى العميل البريطانى وترك (رالف) خلفه ، سعل بشدة ، ويحاول عبثًا منع الدماء التى تدفقت من أنفه المحطم بغزارة ..

وبسرعة تضافر رفاق (رالف) لنقله إلى أقرب مستشفى ، أو أقرب نقطة إسعاف حيث تم تضميد إصابة أنفه ، وطمأنة الطبيب بأن تلك الحشرجة فى صوته لن تلبث أن تزول ، عندما تتحسن تلك الكدمة الواضحة فى قاعدة عنقه ..

وعلى الرغم من ضماداته وكدمته ، لم يشأ (رالف) إفساد ليلته ، فعرج مع رفاقه إلى أقرب حانة ، ليقضوا سهرتهم حتى الصباح .

ولأن المدمرة سترحل مرة أخرى فى مساء اليوم التالى مباشرة ، كان لابد من تنفيذ الجزء الثانى من الخطة ، دون أدنى إبطاء ، على الرغم من أن جراح عملية (إدوارد) التجميلية لم تلتئم بعد .

وكان على (إدوارد) الذى خرج من حجرة العمليات منذ ساعات قليلة ، أن يقطع رحلة طويلة عبر بحر (المانش) حتى يبلغ الميناء الفرنسى الذى ترسو عنده المدمرة الألمانية قبل مطلع الفجر .

والمدهش أن عملية الاستبدال لم تكن صعبة أو مرهقة أبدًا ، إذ كان (رالف) ورفاقه شبه فاقدى الوعى ، عندما وصل فريق المخابرات إليهم مع (إدوارد) فى الخامسة وسبع دقائق فجرًا ..

وبكل بساطة ووسط كومة من شهود الإثبات والأصدقاء ورفاق السلاح ، عاد (رالف) إلى المدمرة الألمانية ، ليقدم تقريرًا عما أصابه فى الميناء .

وعندما تم التأكد من اكتمال العمل وأقلعت المدمرة النازية ، لتواصل رحلة صيد غواصات الأمريكيين والبريطانيين كان تغييرًا أساسيًا قد حدث دون أن ينتبه إليه شخص واحد على سطحها .

لقد تم استبدال (رالف) الألمانى النازى الوطنى ، بالبريطانى (إدوارد) الذى أصبح نسخة طبق الأصل منه مع الضمادات على أنفه ، والكدمة فى قاعدة عنقه ، وذلك الصوت المتحشرج الأجش ، الذى لا يشبه صوت أحدهما على الإطلاق ..

وفور إقلاع المدمرة ، بدأ (رالف) المزيف رحلة البحث عن جهاز رصد الأعماق .. ومع توسط الشمس لكبد السماء بلغ هدفه ، وحدد موقعه ، وراجع خطته واستعد لخطة العمل المتفق عليها .

وفى تلك الليلة ، نام (إدوارد) ملء جفنه وسط جنود ألمان يؤمنون كل الإيمان بالفكر النازى وحتمية سحق كل ما يعاديه ..

باختصار نام وسط أعدائه ويكفى كشف هفوة واحدة منه ، لينقضوا عليه ، ويمزقوه إربًا فى لحظات عمله على الفور ..

وفى نقطة تعلو تلك الحجرة ، التى تحوى جهاز رصد الأعماق ، زرع المتفجرات التى تم إخفاؤها بمنتهى الغاية فى حذائه ، و ...

ولكن ذلك الضباط النازى كشف أمره ..

وعلى الرغم من صراخ الضابط الألمانى ووعيده ، أكمل (رالف) عمله ، ثم هب يلقى نفسه فى مياه المحيط .

ولثوان حدق الضابط النازى فى المتفجرات التى تركها (رالف) خلفه ، قبل أن يصرخ بكل قوته :

ـ قنبلة على السطح ..

ولكن صرخته لم تكتمل أبدًا ، فقد قاطعها انفجار مدمر ، نسف مؤخرة المدمرة ودفتها الرئيسة وجزءًا من سطحها ، يطل مباشرة على جهاز رصد الأعماق ..

ومع دوى الانفجار ، اندفعت الغواصات الأمريكية والبريطانية نحو المدمرة ، وكأنما كان الانفجار إشارتها للهجوم واستغلت التلف الجزئى الذى أصاب جهاز الرصد لتنطلق طوربيداتها نحوها فى آن واحد .

وكانت أسرع مدمرة تغرق فى تاريخ الحرب العالمية الثانية كلها ، بعد أن حولتها الطوربيدات إلى أشلاء متناثرة .

وحتى قبل أن تصل الطائرات الألمانية كانت إحدى الغواصات البريطانية قد التقطت (إدوارد) وانطلقت عائدة به إلى الوطن ..

وهكذا وصلت المقاتلات الألمانية لتجد أمامها محيط تسبح فيه

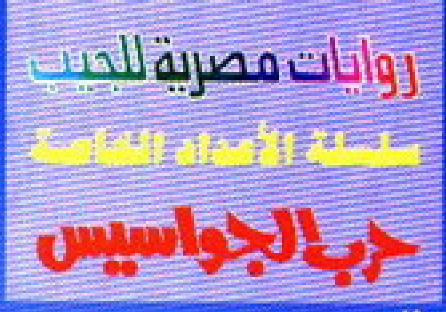
جثث أفراد طاقم المدمرة ، التى غاصت بجهاز الرصد إلى الأعماق كالحجر .

محيط من الدم ..

والهزيمة ..

بلا حدود ..

* * *





قاهر الجواسيس



د. نبيل فاروق

صراع العقول
الذى يتفوق
دومًا على
أعتى الأسلحة
والمعدات





15 / 1 / 000





الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم